مغامرات مجنون العرب

مقامات عصرية

حسن توفيق



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مغامرات مجنون العرب

المؤلف : حسن توفيق

رقم الإيداع : ٩٤٨٤

الطبعة الأولى ٢٠١٢



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com



مجنون العرب ..
مغامرات لها العجب !

بقلم : حسن توفيق

تربطني مع مجنون العرب علاقة صداقة صادقة وعميقة ، لأنها صداقة لا ترتبط بمصالح شخصية له أو لي ، فنحن نلتقي معا في معظم الليالي لكننا لا نلتقي إلا على الحب، وعلى الإيمان بأن الحياة يمكن أن تكون أجمل مما هي عليه، وهذا ما يدفع المخلصين من الناس إلى مقاومة الظلم والطغيان ، والبحث عن الوسائل الكفيلة بأن يصبح الإنسان أخا حقيقيا للإنسان ، لا بمجرد الأقوال الحلوة والمزوقة التي تنطلق وتتردد على الشفاه، وإنما بالأفعال التي تحاول أن تزيح البؤس من.قلوب البؤساء وأن تخفف من معاناة التائهين في صحراء الحياة .

لكن صداقتي مع مجنون العرب لا تعني أني مجنون مثله أو أنه عاقل مثلي ، فكل ما في الأمر أنه يروي لي مغامراته الغريبة التي يؤكد أنه قام بها، ثم يطلب مني أن أدون أحداثها ووقائعها وما جرى له فيها، وبالطبع فإني أستجيب لطلب هذا الصديق المجنون، وأبادر بتسجيل تلك المغامرات الغريبة على الورق أو على الكمبيوتر بشكل مباشر ، دون أن أكون مسؤولا عما فيها من شطحات أو أمور قد لا يصدقها العقلاء أو يرون أنها تخاريف ، وعلى هذا الأساس فإني قمت بتسجيل الكثير من تلك المغامرات التي صدرت في كتابين أولهما بعنوان مجنون العرب بين رعد الغضب وليالي الطرب، والكتاب الثاني بعنوان ليلة القبض على

مجنون العرب ، لكني كنت ألاحظ أن صديقي كان يطمح أو يطمع في أن يرى هذين الكتابين متجاورين ضمن مجلد واحد يحتضنهُما معا ، وبالطبع فإن من حقه الآن أن يتباهى بأن طموحه قد تحقق وبأن ما كان يطمع فيه قد تحول إلى واقع يراه بعينيه ويمسكه بكفيه !

فيما يتعلق بالكتاب الأول فإن مجنون العرب يحب أن يرى العجب، ولهذا السبب فإنه لا يطيق أن يغمض عينيه ، كما أنه يبيح لنفسه أن يتجسس بأذنيه، ولهذا فإنه يستطيع أن يرى لمسات العشاق للعشاق، وأن يرصد همسات الأشواق ، ولا يتردد هذا المجنون في استخدام ما لديه من حيل، طالما أنها تفتح أمامه السبل .. فلديه طاقية للإخفاء ، تخفيه عن الأنظار حين يشاء ، ولديه بساط الريح ، وبفضله يتنقل وهو مستريح ، كما أن لديه صاروخا عابرا للزمان ، يمكنه من الوصول بكل أمان إلى أي زمان كان !

وبفضل هذه الحِيل وسواها ، وبفضل وسائل أخرى أهديت له أو اشتراها ، تمكن مجنون العرب أن يتنقل دون أي تعب ما بين مكان ومكان ، وأن يطير من زمان إلى زمان، وأن يلتقي مع أصدقاء أعزاء لم يعودوا من الأحياء ، وأن يستمع إلى شعراء عظماء، ممن غابوا عن الدنيا منذ سنوات وسنوات، أو حتى منذ قرون غرقت في بحر الظلمات ، ومع كثرة التنقلات والأسفار والرحلات أتيح له أن يعرف ما لم يكن يعرف ، وأن يعيش كالوتر المشدود بين رعد الغضب وليالي الطرب !

أما الكتاب الثاني فإننا نعرف من خلال صفحاته الأولى أن أمير الشعراء أحمد بك شوقي قد قطع إجازته التي كان يقضيها في أحد منتجعات الدار الآخرة التي يقيم فيها منذ يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٢ حيث طلب من الإنتربول السماوي سرعة إلقاء القبض على مجنون العرب ، وبعد تسوية الخلافات العربية – العربية بين الإثنين تحقق الوئام ولم يعد بينهما خصام ، فاقترح أحمد شوقي أن تتوج المصالحة بينهما بأن يكون عنوان الكتاب ليلة القبض على مجنون العرب ، وتمت الموافقة على الاقتراح دون أن يعترض أحد بفيتو أو يمتنع سواه عن التصويت !

يتضمن هذا الكتاب الثاني العديد من الرحلات والمغامرات والحكايات ، منها حكاية الخروف الذي استنجد بالمجنون ، بعد أن رأى المسلمين وهم يذبحون أقاربه

ويأكلون من لحمهم الضاني ، خصوصا في عيد الأضحى ، وقد تم تحويل هذا الخروف بعد طول تفكير إلى خنزير ، لكنه اكتشف أن المسيحيين لن يرحموه ، ولحل المعضلة أو المشكلة تمت عملية تحويله إلى بقرة فأصبح معبود الهندوس وبمجرد شعوره بأنه أصبح بقرة تحول إلى طاغية مستبد ، يقوم أعوانه بتهريب الهدايا والقرابين من الهند إلى بنوك سويسرا وسواها من البنوك الأجنبية !

إلى جانب حكاية الخروف ، هناك حكاية الحمار الذي اعترف للصحافة بأنه لا يحب النظافة ، وحكاية أخرى عن أفعى غادرة تتسلى بامرأة فاجرة ، ظلت تزعم أنها طاهرة ، فضلا عن حكايات أخرى كثيرة ، يمكن أن يصدقها أو يكذبها العقلاء ، وإذا كان الكتاب الأول يهتم بحكايات المجنون مع الناس وخصوصا الشعراء ، فإن الكتاب الثاني يركز على حكايات المجنون مع الطيور والحيوانات .

والآن تبدأ الرحلة مع مغامرات المجنون ، لكنني بالطبع لست مسؤولا عما قد يحدث ، فأنا مجرد مدون ومسجل لتلك المغامرات ، ومستعد لأن أتبرأ منها إذا أحسست أنها ستوقعني في مأزق !

حسن توفيق

الأول من مارس ٢٠١٢

مغـــامرات
مجنـــون
العـــرب

Adventures of Crazy Arabs

(١)

مجنون العرب
بين رعد الغضب وليالي الطرب
مقامات عصرية





المجنون .. ليس أنا !!

مقدمة

المجنون ليس أنا.. هذا ما أريد أن أوضحه – منذ البداية- حتى لا تختلط الأمور، لكن هذا التوضيح الحاسم لا يعني أني أتبرأ من «مجنون العرب» فأنا أعترف – دون أن يتم تعذيبي جسدياً – بأن لي صلة حميمة به، فهو صديق صادق قديم، لدرجة أني لا أستطيع أن أصبر على فراقه ولو لبعض الوقت، كما أنه لا يحس بنعمة الأمان إلا إذا كان قريباً مني، بل إننا – بكل صراحة – ننام على سرير واحد.. هذا إذا نمنا.. نظراً لأننا ممن يعشقون السهر، ويغتالون النوم في الليل، إلى أن يعلن الفجر – بإشراقته – أنه قد تجلى وظهر.

وأعترف أيضاً بأني أحس بالوحشة والخوف حين يبتعد عني «مجنون العرب» لكي يتركني وحدي مع العقلاء، ولكي يقوم وحده برحلات غريبة، ومغامرات لا يصدقها أحد، لكنه يزعم أنها رحلات ومغامرات حقيقية، بينما أراها أنا، مجرد شطحات وهمية، ولكن لأن الحب بيننا ليس من طرف واحد، فإنه يشعر – هو الآخر – بالوحشة والخوف، حين أبتعد عنه، حتى أستطيع أن أمارس عملي الصحفي الذي انهمكت فيه منذ أن عملت في دولة قطر ابتداء من يوم ١٠ مايو سنة ١٩٧٩، حيث ألتقي مع العقلاء من الشعراء والأدباء والنقاد، لأتلقى منهم ما تجود به قرائحهم، أو نتحاور حول أحدث الإصدارات الأدبية أو الفكرية، وقد أهرب أحياناً من

مكتبي، حتى يتسنى لي زيارة الأصدقاء الأحباء، وكلهم - بالطبع - من العقلاء وفي مقدمتهم أخي أو ابني الحبيب الشاعر المبدع مجمد بن خليفة العطية.

هؤلاء الأصدقاء جميعاً يتابعون - عن بعد - رحلات ومغامرات «مجنون العرب» دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب منه، وإن كانوا يعرفون أخباره ويكتشفون أسراره مني أنا، فهم يسألونني باستمرار، عن أخباره وعن أسراره التي أشرحها أو أفضحها أمامهم، دون أن أهتم بحكاية أن إفشاء الأسرار يعد جريمة، أو على الأقل فإنه عيب ممقوت.

غير هؤلاء العقلاء، هناك أصدقاء كثيرون لي من مختلف أقطار أمتنا العربية، يحبون أن يرصدوا تحركات «مجنون العرب» من خلال سهرات جميلة مطولة، كلما أتيح لي أن ألتقي معهم في القاهرة أو الإسكندرية، وفي بيروت أو حلب أو أبو ظبي أو سكيكدة وبجاية وفاس، أو في بغداد الغالية، قبل أن تجثم على صدرها قوات الاحتلال الأجنبي التابعة للإمبراطورية الأمريكية، والتي يسميها بعضهم، وليس أنا، إمبراطورية الشر.

حين أسهر مع «مجنون العرب» ينبغي أن أصدق كل ما يحكيه ويرويه لي، حتى يظل «تطبيع العلاقات» موصولاً وممتداً ما بين العقل والجنون من جهة، ومن جهة ثانية، فإني أصدق المجنون، لأن لديه حيلاً ووسائل، لا يحلم بها العقلاء، فأنا متأكد من امتلاكه لأسلحة إثارة شاملة، من بينها طاقية الإخفاء، وبساط الريح، والصاروخ العابر للزمان، وبهذه الأسلحة وحدها، يتحرك المجنون، أينما شاء، دون أن يستطيع أحد منعه، أو اعتقاله ووضعه في معتقل «جوانتانامو» أو سواه من المعتقلات في مختلف أرجاء الكرة الأرضية.

يحكي لي المجنون أنه قد التقى مع امرئ القيس الذي كان يرتدي بنطلون «جينز» ويركب - بدل الجمل - سيارة مرسيدس بنز، كما يروي لي أن امرأ القيس قد تبرأ من معلقته القديمة الشهيرة «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»، وأنه قد كتب معلقة معاصرة جديدة، ينوي أن يعلقها - لا على أستار الكعبة - وإنما في إحدى حدائق واشنطن، وينبغي أن أصدق المجنون فيما يحكيه وما يرويه، كما ينبغي أن أصدقه حين يزعم أنه قد التقى مع عمر بن أبي ربيعة الذي يسهر في ملهى «الليدو» وفي «كازينو بديعة» بعد أن رفض الانغماس في مستنقعات السياسة، وتركها لبني أمية، مقابل أن يتركوه وشأنه مع

النساء، سواء أكن قرشيات، أو باريسيات!

حدثني «مجنون العرب» كذلك عن لقاءات جمعته مع عنترة بن شداد الذي نهض من الرماد، ثم انطلق ليواجه أسراب الجراد التي اجتاحت حقول الطين والنفط في آن واحد، وكيف أن عنترة قد شاهد الجبناء وهم يعتصمون بجبل السكوت، تاركين من يموت يموت. وإلى جانب لقاءاته مع عنترة، أيقظني المجنون، ذات مرة، ليروي لي أن زهير بن أبي سلمى، قد تحول من مبصر إلى أعمى، لكنه استطاع أن يصحبه إلى عيادة للعيون، حيث استعاد بصره عن طريق الجراحة بأشعة الليزر، ولابد أن أصدق المجنون طالما أنه يمتلك أسلحة لا يحلم بمثلها العقلاء.

استكمالاً لمغامرات المجنون، فإنه التقى مع المتنبي الذي كان يتصدى للبراكين والحمم في بغداد، كما التقى مع الملك خوفو الذي خرج غاضباً من الهرم في الجيزة، وفضلاً عن هذا فإن المجنون شاهد بعينيه أبا نواس، نائماً على أحد الأرصفة، بعد أن لعبت برأسه الخمر، التي هي «الراح» وهي «الطلا» وهي «القهوة» وهي «الصفراء» التي لا تنزل الأحزان ساحتها، وقد فند أبو نواس للمجنون – بعد أن أفاق – أكذوبة أنه قد تذلل للأنجاس، لكي يعينوه في وظيفة كناس. ولم يكتف المجنون بهذا، بل إنه روى لي أن الأفعى قد صادقت الغول، ولهذا أصبح أبو نواس في حالة ذهول، وإن كان قد أكد أن الليل لن يطول.

على الرغم من أني أصدق ما رواه لي صديقي «مجنون العرب» إلا أني – في الحقيقة – أشك في أنه التقى مع أمل دنقل في المجلس الأعلى للثقافة بمصر، وأن المتنبي قد حضر اللقاء العاصف الذي حاول أن يخفف من سخونته أحد الذين يحبون النظام ويحرصون على ديمومة الاستقرار. كما أنني أشك – بصورة أكبر – في اللقاء الذي جمع بين «مجنون العرب» ومحمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب في البصرة، حيث حمل كل منهم بندقية لكي يناضلوا ضد المحتلين الأميركان وأذنابهم البريطانيين، كما أنهم كانوا يقومون باستجواب الغزاة الذين يقعون في الأسر، بعد أن عاملوهم أحسن معاملة، وفقاً للشريعة الإسلامية، وما جاء بعدها بقرون من اتفاقيات جنيف الخاصة بحقوق الأسرى.

على الرغم من كل ما جرى في أرض العراق، يؤكد «مجنون العرب» أن لكل زلزال توابع، وأن لكل زمان أفراحاً وفواجع، كما أنه يؤكد في لاميته الجديدة التي سماها «لامية الفرات» والتي تختلف عن «لامية العرب» للشنفري، أو «لامية العجم» للطغرائي، أن هذه اللامية ترفض اليأس والسبات، وتدعو الثوار للثبات.

بعيداً عن السياسة، وحتى لا أنساق وراء «مجنون العرب» الذي يبدو أنه يريد أن يورطني، لابد أن أقول إنه قد روى لي عن لقاء جمعه مع الشاعر الأندلسي الشهير، عاشق ولادة بنت المستكفي، وهو ابن زيدون، حيث انطلق الاثنان للبحث عن كنز مدفون، كما أن المجنون قد أضحكني – حقاً – حين روى لي حكاية الحمار الذي تعرف عليه بعد أن حاول الانتحار، احتجاجاً على الانحدار الذي وقعت فيه الأغنية العربية، التي تسمى «شبابية».. وكيف أن الحمار نفسه قد جرب الغناء فتألق، وعلى سواه تفوق. كما روى لي المجنون كيف أن مجنون ليلى – قيس بن الملوح قد سقط أمام عينيه بالضربة القاضية، في أقل من ثانية، وأن الملاكم الذي أوقعه لم يكن محترفاً للملاكمة، وإنما هو شاعر قوي البدن، هو عمر بن أبي ربيعة، وللأمانة فإن الضربة القاضية قد جعلت مجنون ليلى يفيق من أوهامه، خاصة وأنه كان قد اتصل بالموبيل مع ليلى العامرية، فإذا بها تخبره – بمنتهى اللامبالاة – أنها مشغولة بإقامة الحفلات الصاخبة، لكي تتعرف في كل حفلة على مجنون جديد من المجانين الكثيرين الآخرين.

بمنطق العقلاء، يبدو أن جميع من التقى معهم «مجنون العرب» قد رحلوا منذ قرون موغلة في الزمان، أو منذ عدة سنوات قريبة، ولم يكتف المجنون بهذه اللقاءات، وإنما التقى مع شاعر شهير ممن يكتبون قصائدهم بالعامية المصرية، هو عبد الرحمن الأبنودي، الذي تواطأ مع الكاتب الفنان الدكتور سمير سرحان، وكانت ثمرة التواطؤ ظهور «أيامي الحلوة».. وإذا كان امرؤ القيس وعمر بن أبي ربيعة وزهير بن أبي سلمى والمتنبي، وحتى الجواهري وأمل دنقل والسياب لا يستطيعون الآن أن يتقدموا بإفاداتهم أو شهاداتهم التي تثبت أو تنفي أن «مجنون العرب» قد التقى معهم، فإن أية محكمة دولية تستطيع الآن استدعاء الأبنودي وسمير سرحان قبل رحيله عن عالمنا، لكي يدليا بشهادتيهما ويقدما إفادتيهما.

يستطيع «مجنون العرب» أن يحكي لنا كيف تجول وتنقل ما بين رعد الغضب وليالي الطرب، ومن حق العقلاء بالطبع أن يصدقوه أو أن يكذبوه. أما أنا فلابد أن أقرر - بوضوح - أني، برغم الحب المتبادل بيني وبين «مجنون العرب» لا أستطيع أن أتفق معه في موضوعين مهمين، وحساسين، أحدهما موضوعي، والثاني فني، وربما يرجع سر عدم الاتفاق إلى طبيعة شخصية كل منا، فأنا - مثلاً - أخاف من السلطة، لدرجة أني أرتعش إذا وجدت نفسي فجأة أمام رجل شرطة، حتى لو كان منهمكاً - لا قدر الله - في التهام طبق سلطة، أما «مجنون العرب» فإنه إنسان متهور، ولا يخشى أن يحبسه أي متسلط في زنزانة فردية، أو أن يحشره في زنزانة جماعية، ولهذا السبب فإنه - كما يزعم - قد واجه نيرون بشجاعة، كما تصدى لهولاكو ببراعة، ووقف في وجه الإمبراطور طائش بن راعش الذي يقتلع الخضرة والحشائش ويرتكب الفواحش. من هنا يحق لي، قبل فوات الأوان، أن أعلن براءتي من الآراء والمواقف المتهورة التي أبداها هذا المجنون تجاه كل هؤلاء الملوك والأباطرة والرؤساء، مع ضرورة التأكد والتأكيد على أنه -وحده- يتحمل عاقبة ما قد تصل إليه الأمور مع أي ملك أو إمبراطور أو رئيس، فأنا - والحمد لله وبحكم ما وهبني من عقل - أعرب لهؤلاء جميعاً عن أعمق آيات التقدير، خاصة إذا كانوا ما يزالون يعضون على لجام السلطة، بأسنان فولاذية، وإرادة حديدية، بصرف النظر عن حب المحكومين لهم أو استثقالهم لظلالهم.

هذا عن الموضوع الأول، أما الموضوع الثاني الذي أختلف فيه مع صديقي «مجنون العرب» وهو موضوع فني، كما قلت، فإنه يتمثل في تصوره هو عن طريقة كتابته لرحلاته ومغامراته، فهو يتصور أنه قد أتى بجديد، أما أنا فأرى أنه ينهج نهج «المقامات» التي كتبها من القدماء بديع الزمان الهمذاني والحريري، كما كتبها من بعدهما بقرون وقرون، ناصيف اليازجي، والعبقري بيرم التونسي.

وفي هذا السياق يرى أحد أساتذتي العمالقة، وهو العلامة الدكتور شوقي ضيف أن «.. بديع الزمان هو أول من أعطى كلمة (مقامة) معناها الاصطلاحي بين الأدباء، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة، وهي جميعها تصور أحاديث تلقى في جماعات، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث. وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص

قصيرة، يتأنق في ألفاظها، ويتخذ لقصصه جميعاً راوياً واحداً هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحاذ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم..».

على الرغم مما بيني وبين المجنون من أسرار، لا يصح أن أفشيها، إلا للأصدقاء وحدهم، فلابد أن أذكر هنا أنه قد اغتاظ مني أشد الغيظ، حين واجهته بما قاله الدكتور شوقي ضيف،وأكدت له أنه لم يأت بجديد في رواية أخبار رحلاته ومغامراته، بل إني اعترضت - بشدة - على عادته الغريبة التي لم يستطع التخلص منها حتى الآن، وهي التزامه بأسلوب السجع، وقد ضحك المجنون ضحكة ماجنة، كأنه يقلد ضحكات صديقه عمر بن أبي ربيعة، عندما قلت له بالحرف الواحد: يا مجنون.. لماذا تلتزم بأسلوب السجع.. هل تظن أنه يلذ للسمع.. وأنه يؤثر في قلوب الجمع.. ويجري على خدودهم الدمع؟

أعترف بأن المجنون قد أحرجني ودحرجني في بئر الخجل، حين قال لي: يا صديقي العاقل..إنك قد استخدمت السجع الذي تنهاني عنه أو تطالبني بالابتعاد عنه، ولابد أن أذكرك - في هذا المقام وليس في هذه المقامة - بما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي:

أحرام على بلابله الدوح..

حلال للطير من كل جنس؟

فجأة.. وجدت المجنون يقول لي: إذا كنت قد ذكرت بديع الزمان والحريري واليازجي وبيرم التونسي، فإنك نسيت إنساناً عبقرياً، دون أن تتنبه إليه، وهو شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري الذي أبدع «رسالة الغفران» وقد التقى خلالها بشعراء وأدباء عمالقة، ممن سبقوه في الزمان أو ممن عاصروه.

تبقى نقطة تتعلق باللغة، وباختصار فأنا و«مجنون العرب» متفقان تماماً على ضرورة استخدام لغتنا العربية الفصحى العريقة، وهذا ما يجده المتابعون لهذه المقامات في معظمها، لكن «مجنون العرب» شاء أن يستخدم اللهجة الخليجية المتداولة في قطر عندما كتب بعض رحلاته ومغامراته، وذلك لأنه يعيش في قطر منذ سنوات طويلة، كما أنه استخدم العامية المصرية، خاصة عندما التقى مع الأبنودي. ومن ناحيتي فإني

سأحاول أن أشرح الكلمات التي تبدو صعبة في بعض المقامات، وأمري لله.

قلت لمجنون العرب: «اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية»، ولكن اسمح لي الآن أن أشكر كثيرين ممن حثوني أن أسجل رحلاتك ومغامراتك بأسلوبك المعجون بالسجع الذي يلذ له السمع .

أختتم هذه السطور بإعادة التأكيد على أن المجنون ليس أنا.. وإنما هو صديقي الذي لا أصبر على فراقه ولو لبعض الوقت، كما أنه لا يحس بنعمة الأمان إلا إذا كان قريباً مني، ومع هذا فلابد أن أكرر أنه وحده المسؤول عن رحلاته ومغامراته، وأني لم أتواطأ معه إلا بتسجيلها على الورق.. على امتداد صفحات هذا الكتاب، وأخيراً فإني أقر بأني قد كتبت هذه السطور في نفس اليوم الذي وُلدت فيه منذ ستمائة سنة، وفقاً للتقويم الخاص بمجنون العرب.

حسن توفيق

٣١ أغسطس ٢٠٠٣



٢

امرؤ القيس يرتدي الجينز .. ويركب مرسيدس بنز

لأن مجنون العرب.. يحب أن يرى العجب.. فإنه لا يحب أبداً أن يغمض عينيه.. كما أنه يبيح لنفسه أن يتجسس بأذنيه.. وهكذا يستطيع أن يرى لمسات العشاق للعشاق.. كما يستطيع أن يرصد همسات الأشواق.. ولا يتردد المجنون في استخدام ما لديه من حيل.. طالما أنها تفتح أمامه السبل.. فلديه طاقية إخفاء.. تخفيه عن الأنظار حين يشاء.. ولديه بساط الريح.. وبفضله يتنقل وهو مستريح.. كما أن لديه صاروخاً عابراً للزمان.. يمكنه من الوصول بكل أمان.. إلى أي زمان كان.

بفضل هذه الحيل وسواها.. وبفضل وسائل أخرى أهديت له أو اشتراها.. تمكن مجنون العرب.. أن يتنقل دون أي تعب.. ما بين مكان ومكان.. وأن يطير من زمان إلى زمان.. وأن يلتقي مع أصدقاء أعزاء.. لم يعودوا أحياء.. وأن يستمع إلى شعراء عظماء.. ممن غابوا عن الدنيا منذ سنوات وسنوات.. أو حتى منذ قرون غرقت في بحر الظلمات.. ومع كثرة التنقلات والأسفار والرحلات.. أتيح للمجنون أن يتعرف وأن يتجسس.. كما أتيح له أن يتنفس.. بين رعد الغضب.. وليالي الطرب.

★★★

تاه المجنون ذات مساء.. في قلب الصحراء.. لكنه أحس بالفرح عندما لمح ثلاثة رجال.. يقفون عند أحد التلال..

أكبرهم يضع على رأسه الغترة والعقال.. لكنه يرتدي بنطلون جينز.. ويستند على باب سيارة مرسيدس بنز.

هز المجنون رأسه بالتحية.. وسألهم عما إذا كانوا يعرفون اللغة العربية..فضحك أحدهم قائلاً: نحن نعرفها رغم أنها أصبحت من اللغات الثانوية.. أما الإنجليزية فإننا نجيدها لأنها هي اللغة الأساسية.. وتلطف أكبرهم ووضع يده على كتف المجنون.. وقال له: ولماذا لا تسألنا عمن نكون؟!.. سأروي لك الحكاية.. من بدئها حتى النهاية.

هذان الرجلان صديقان.. وأنا وهما هربنا من سجن الزمان.. بعد أن قمنا برشوة السجان.. وقد جئنا إلى هنا لاستعادة الذكريات.. في هذه المنطقة بالذات.. والمنطقة إذا كنت تجهل.. اسمها منطقة «دار جلجل».. زمان كان هنا بلاج من أحلى البلاجات.. وكانت تستحم فيه أجمل الفتيات.. وقد تغزلت فيهن وكتبت عنهن معلقة.. لكني أعترف الآن بأني جعلتها طعاماً للمحرقة.. نظراً لأني أكتب الآن معلقة جديدة.. وسأعلقها في إحدى حدائق واشنطن البعيدة.

قال المجنون بشيء من الحسم:

★ لكني حتى الآن لم أتشرف بالاسم!..

- آه.. معك حق.. اسمي القديم هو امرؤ القيس.

★ أكاد لا أصدق ما يقال.. أأنت بالفعل الشاعر الذي كان يبكي على الأطلال.. ويقول لصديقيه:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

- هذا ما كان.. أيام زمان.. أما الآن فإني كتبت - كما قلت لك - معلقة جديدة.. وسأسمعك حالاً بعض أبياتها الفريدة.

.. وتنحنح امرؤ القيس ومال.. ثم كشخ الغترة والعقال.. وقال:

قفا نبك من ذكرى دجاج متبل

يطش بزيت حيث يقلى بفلفل

ويوضع في المقلاة يحمر زيتها . بأفران مكروويف بالشبس تمتلي

فقد ضاق بطني بالجمال وأكلها وأصبح كتاكي قريباً لمنزلي

أفاطم مهلاً.. أين صحن المخلل وإن كنت قد نظفت صحني فهرولي

وما نبشت كفاك إلا لتنهشي بكفيك في أعماق ورك مفتل

أتيت بمرسيدس فما عدت دارياً بحال جمالي في بلاجات جُلجل!

و«جنزاً» أحب البنطلون لأنني أحرك ساقي فيه دون تململ

.. لم يصفق المجنون لما استمع إليه.. فاغتاظ امرؤ القيس وفرك له أذنيه.. ثم انطلق مع صديقيه.. حيث امتطوا جميعاً صهوة المرسيدس البنز.. وهم يترنحون مما أصابهم من العز.. أما المجنون فقد اهتدى للطريق.. بعد أن ظل تائهاً بلا رفيق.. لكنه لاحظ أن الزحام شديد.. بسبب تنافس الناس على لقاء عيد.. هو عيد الفطر السعيد.. وهذا ما يدفعهم لشراء كل جديد.. واكتشف المجنون أن أبناء الصين.. وكلهم من البوذيين.. أو من أتباع كونفوشيوس.. هم الذين يعملون بجهد ملموس.. لكي يصنعوا فوانيس رمضان.. ويقدموها بأجمل الأشكال والألوان.. لأطفال «لا إله إلا الله».. فتنهد المجنون وقال: آه ثم آه.

لم يشتر مجنون العرب.. إلا كيلو عنب.. بعد أن تأكد أن من زرعوه من الفلاحين العرب.. لكنه تعجب كل العجب.. حين تنبه أن المحلات العربية.. ليس فيها غير البضائع الأجنبية.. فتأكد له أن العرب.. لا يصنعون لأطفالهم حتى اللعب!





امرؤ القيس بين الأمل واليـأس
اليوم خمر ... وغداً أمر !!

وجد المجنون نفسه مرة ثانية.. تائهاً فوق أحد الجبال النائية.. وحين أحس بالتعب.. تكدر مزاجه واضطرب.. فقرر الجلوس قليلاً فوق قاعدة صخرية.. ليتلهى برؤية ما حوله من النباتات البرية.. لكنه اكتشف شبحاً جالساً فوق القاعدة.. وهو يردد عبارة واحدة.. اليوم خمر.. وغداً أمر.. ولاحظ المجنون أن حالة الشبح لا تسر.. فاقترب منه ليغوص في أعماق السر..

★ السلام عليكم أيها الشيخ الهمام.

- أي سلام؟.. لقد فقدت شهيتي للكلام.. بعد أن جرى لي ما جرى.. ولم أعد قادراً حتى على أن أرى.. ولن أقول لك أكثر من أن اليوم خمر.. وغداً أمر!

★ هذا يعني أنك امرؤ القيس؟!

- نعم.. وقد تلاقينا منذ فترة قريبة قبل غروب الشمس.

★ آه.. لقد تذكرت الآن..وكان معك خليلان.. وكانت معك سيارة مرسيدس – بنز.. كما أنك كنت ترتدي بنطلون جينز!

- إنك تدفعني الآن لأن أتذكر.. ما يجعلني أبكي وأتحسر.

★ وماذا جرى لك يا ترى؟

- لقد كنت خارج السيارة.. عندما انقضت عليها طيارة.. وألقت فوقها شيئاً يشبه المنجنيق..فشب فيها حريق، وبعدها

تحول كل شيء إلى كتل من النيران.. ورأيت خليليّ أمام عيني وهما يحترقان.

★ وماذا أنت فاعل الآن؟

- سأسكر اليوم ثم أذهب إلى قيصر الروم.. لأروي له عما ابتليت به من الهموم.. وأطلب منه مد يد المساعدة.. وأن يقدم لي ما أرجوه من مساندة.

.. وأمعن امرؤ القيس في الشراب.. فتركه المجنون كأنه فص وملح وذاب..وبعد أن اهتدى إلى الطريق.. دخل بيته العتيق.. وهو يفكر مرتاعاً في حكاية المنجنيق.. وفجأة سمع جرس الباب.. فقام ليجد الربع والأصحاب.. يطلبون منه أن يذهب معهم إلى شمال قطر.. في رحلة يستمتعون فيها بالسهر.. على إيقاع نور القمر.. فركب المجنون معهم في الرنج روفر المتين.. حيث انطلقوا إلى عشيرج متحمسين.. وبعد أن نصبوا الخيام.. وجدوا البرد ينفذ إلى العظام.. فأشعلوا النار ليتدفأوا ويجهزوا الطعام.. لكنهم بدلاً من أن يذوقوه ويأكلوه.. نسوه على النار فأحرقوه.. فطالبهم المجنون بأن يُحكموا العقل.. وأن يعودوا لبيوتهم فهذا خير حل.. وكتب المجنون في لحظة غضب.. هذا الذي قد كتب:

جاء ربعي وتلاقوا عند بابي

وتجهزنا.. بأكل .. وشراب

خيشة العيش حملنا ودجاجاً

وبغوري الشاي جئنا والكباب

إنها الكشتة في ليل شتاء

مقمر.. رغم ألاعيب السحاب

حيث راح الرنج يطوي أرضنا

بعد تحفيص وخوض في التراب

وأنا في الرنج معفوس لأني

آكل الرمان مبلول الثياب

حين خيمنا شمالاً في عشيرج
لعب البرد بأعصاب الشباب
فارتدى جاسم زوجاً من دلاغ
أين دفء البيت من هذا العذاب؟!
.. أوقدوا النار لنلقى بعض دفء
صاح يعقوب بحزن واكتئاب
فتسابقنا جلوساً قرب نار
وتركنا النار تعلو كالهضاب
فإذا اللحم سراب من رماد
والدجاج الحلو أمسى كالهباب
حظنا مال فجدنا بدموع
وتعشينا بأطباق السراب
قلت للربع: أعيدوني وعودوا
لا تمروا أبداً يوماً ببابي!

دخل المجنون بيته وهو يغلي من الغضب..وفتح التليفزيون دون سبب.. فوجد على الشاشة أناساً يتكلمون.. منهم من يتناقشون.. ومنهم من يصرخون.. ومنهم من يتهاوشون.. وهنا تسمر المجنون أمام الشاشة الصغيرة.. وهو يلتهم قطعة كبيرة من فطيرة.. وأخذ يستمع لما يقال.. عساه أن يعرف ما سينتهي إليه الجدال..

★ أنا أعتقد أن امرأ القيس قد أخطأ.. وأنه بدلاً من أن يتقدم قد أبطأ.. ولو أنه ظل يركب الجمال.. لكان حاله اليوم أحسن حال.. لكنه – بكل أسف – اغتر بالمرسيدس – البنز.. وفرح بارتداء الجينز.

– اسمح لي أن أفند هذا الذي يقال..

★ سأعطيك المجال..

- إن المرسيدس – البنز.. ضرورة عصرية..لكن عقولنا نحن هي التي ليست عصرية!

★ هل تقصد أننا ما زلنا في عصر الجاهلية؟

- أنا لا أقصد هذا يا جاهل.. أنا أقصد أن على كل منا أن يكون الفاعل.. ألا تتذكر أن امرأ القيس قد حاول أن يستنجد بالطامعين من الغرباء.. لكي يساعدوه في القتال ضد الأشقاء.. فماذا كانت النتيجة التي نراها؟.. وهل يستطيع أحد أن يغيرها أو يتلافاها؟.. الطامعون الآن في كل مكان موجودون.. وإذا قالوا لامرئ القيس كن قرداً أو فأراً.. فهذا ما سيكون!



٤

الصحراء مقبرة ... والرحلة إلى أنقرة ... ليست مسخرة

لم يعد امرؤ القيس يتحمل حر الصحراء.. كما أدرك أن السيف وحده لا يكفي لقتال الأعداء.. فأخذ يتخبط في متاهة الفكر.. لعله يتوصل إلى طريق النصر.. وهكذا شوهد يدخل إلى إحدى الشركات.. بعد أن علم أنها متخصصة في الإلكترونيات.. وهي «شركة البسوس.. لجلب التكنولوجيا للمنحوس».

بمجرد دخول امرئ القيس إلى الشركة.. رمقته إحدى العاملات بنظرة ساحرة.. وأوصلته إلى مكتب الإدارة الفاخرة.. حيث استقبله المدير بكل حفاوة.. وطلب له كابوتشينو وقطعة بقلاوة.. ثم سأله عما يريد.. لكي يقدم له المفيد.. ودخل الاثنان في مناقشات.. حول الحروب السابقة.. والحروب اللاحقة.. والفرق بين حرب الهكسوس.. وحرب البسوس.. وأشار المدير الأشقر إلى بعض الصور.. فأمعن فيها امرؤ القيس النظر.

انظر جيداً يا مستر امرؤ القيس.. هذه الصورة لمكيف هواء.. يجعلك تتحمل حر الصحراء.. ويمكننا أن نثبته لك على سنام الجمل أو ظهر الحصان.. حيث تنطلق به بكل راحة وأمان.. والمكيف يعمل بالطاقة الشمسية.. وبإمكانه الاتصال بالأقمار الصناعية.. أما السيوف.. فلدينا منها ما هو غير مألوف.. فهناك نوع لا تمسكه الأيدي البشرية.. لأنه يتحرك بصورة تلقائية.. لقتل الأعداء في أقل من

ثانية.. وهناك أيضاً أنواع.. تطير وحدها لاقتحام الحصون والقلاع.

انصـرف امـرؤ القـيس دون أن يأكـل الـبقلاوة.. وودعـه المـدير بكلمـات مدونـة بالحلاوة.. واستقر رأي امرئ القيس.. على الذهاب إلى القيصر قبـل طلـوع الشـمس.. وهكذا انطلق إلى الغرب.. دون أن يتناول أي شرب..لكنه اصطحب معه بعض الأهل.. لكي يؤنسوه في وحشة الليل.. كما اصطحب معه سلمى الجميلة.. لأنها تزيح عن صدره أحزانه الثقيلة.. وأسكنهم امرؤ القيس في فندق رومي فـاخر.. وتـركهم لـبعض الوقـت لكي يشتري لنفسه سجائر.. وفجأة اهتـزت الأرض.. بـالطول والعـرض.. فعـاد امـرؤ القيس إلى الفندق الرومي في الحال.. ليجد أن الأهـل خارجـه في أسـوأ حـال.. وبكـت سلمى وهي تحكي له ما كان.. فاغتاظ وقال وهو يجز على الأسنان:

ألا عم مساء أيها الفندق الغالي

فقد بات فيك الأهل في يوم زلزال

ولم يهربوا إلا وقـد علمـوا بمـا

يُحاك لهم من دفـع فيـزا وأمـوال

لقاء شراب ليس من بئر زمـزم

ولحم عصي المضـغ مـر وقتـال

وحبة مشروم وأفخـاذ ضـفدع

ودهــن لخنزيـر مغطـى بغربـال

وشاشــة تلفـاز تبـث فواحشـاً

وفيلماً يبث الرعب في قلب أطفال

لئن كنت عربيداً فـإني أرى هنـا

أناسـاً أقـاموا للزنـا ألـف تمثـال

وقد فقدت سلمى أحب عبـاءة

إليها وعادت تشتكي فقد خلخال

وساخ حصاني في الرمـال كأنـه

رماد من البركان في الزمن الحـالي

.. رفض امرؤ القيس أن يعود من حيث جاء.. لكنـه طلـب مـن الأهـل أن يعـودوا وحدهم إلى الصحراء.. وطالب سلمى بألا تجلس صباحاً في الشمس.. خصوصـاً بعـد وضع ساقها اليمنى في الجبس.

بعد دقائق معـدودات.. لمـح المجنـون رجـلاً غريبـاً في الظلمـات.. وعـلى الفـور عرفـه المجنون.. فانتابته الظنون.. لأن الرجـل هـو مـدير «شـركة البسـوس.. لجلـب التكنولوجيا للمنحوس».. أسرع المجنون في خطاه.. ليبحـث عـن امـرئ القـيس في كـل اتجـاه.. وحـين التقاه.. وجده يطلق الآه تلو الآه.

سأل المجنون امرأ القيس عما ينويه.. ولمـاذا يمشـي إلى الغـرب وسـط الظلمـات والتيه.. فأخبره امرؤ القيس بما رأى أنه الصواب.. خصوصاً أنه قد كـف عـن الشـراب وتاب.

★ أريد الذهاب إلى قيصر الروم.. لعله يزيح عني بعـض الهمـوم.. ويسـاعدني في أخـذ الثأر.. ممن قتلوا أبي بالحيلة والغدر.. فرغم أن أبـي ضـيعني صـغيراً.. إلا أنـه حملنـي دمـه كبيراً.. وأنت تعرف أني قد سبق أن قلت: غداً أمر...ولهذا لابد من النصر عند أخذ الثأر.

– كثيرون يقولون وهم يؤكدون.. إني رجل مجنون.. ولكني أرجو أن تسمع منـي.. وألا تخيب ظني.

★ ماذا تريد أن تقول؟

– أرجوك ألا تذهب لقيصر الروم.. ففي ذهابك إليه ما يزيد الهموم.. يـا سـيدي يـا امرأ القيس.. إني متأكد من طلوع الشمس.. وأنك ستنتصـر.. بشـرط أن تنتظـر.. إلى أن تتجهز وحدك.. وساعتها لن يقوى الأعداء أن يقفوا ضدك.. أما الآن فإن الصحراء تبدو مقبرة.. كما أن الرحلة إلى أنقرة.. ليست أبداً «مسخرة»!

٥

العفريت .. في يده كبريت .. وامرؤ القيس .. يشرب الكأس

تحير امرؤ القيس حيرة شديدة.. فإما أن يذهب إلى بلاد اليمن السعيدة.. لكي يعود ومعه رجال.. يساعدونه في مواجهة خصومه أثناء القتال.. وإما أن يتوجه غرباً إلى القيصر.. لكي يطلب إمداده بحشد من العسكر.. وظل إمرؤ القيس متحيراً بعض الوقت.. إلى أن خلع عباءة التردد والصمت.. فقد أيقن أن النظام العربي ضعيف.. وأن الزمان لا يقابل الضعفاء بوجه لطيف.. وهكذا حسم الأمر.. استعداداً ليوم الثأر.. وقرر أن يدرأ عنه الهموم.. بالذهاب إلى قيصر الروم.

تخوف المجنون مما قد يواجهه امرؤ القيس من مصير.. وناشده بألا يسير.. وقال لامرئ القيس.. أخشى أن تشرب الكأس.. ولابد أن أذكرك بأنك قد قلت بالأمس:

تطاول الليل علينا دمون

دمون.. إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبون

لم يهتم امرؤ القيس بقول المجنون.. وأكد أن لقاء القيصر سهل ومضمون.. وأن الطريق إليه مأمون.. وهنا قرر المجنون أن يذهب معه.. لعله يستطيع أن ينفعه.. أو أن يسليه في الطريق.. ويخفف عنه بعض الضيق.

على امتداد الطريق شاهد الإثنان.. ما تشيب له الولدان.. فقد شاهدا ظلاً مخيفاً لعفريت.. يمسك بيده اليمنى علبة كبريت.. ويطلق باليسرى سرباً من البوم.. وحوله علب ملآنة بالسموم.. كما شاهدا أشلاء فارس قتيل.. بقرب حصان لا يكف عن الصهيل.. وفي السماء كان الرعد.. يقرقع ويشتد.. ويسأل عمن معه وعمن ضد.. تلفت امرؤ القيس إلى المجنون.. وقال: أنا لا أحب الذين يبكون.. فأجابه المجنون بأنه لا يبكي.. لكن امرأ القيس قال: بل إنك من القلب تبكي.. وهذا ما يضاعف حيرتي وشكي.. وتنحنح الشاعر الفارس الحزين.. ليقول بحزن دفين:

أنا.. أمرؤ القيس الذي عدت كي أرى
ينابيع إلهامي.. تباع وتشترى
أمر على الأطلال في ساحة خلت
ولم يبق فيها غير ياس تسمرا
أخوض الليالي موجة بعد موجة
ولست أرى فجراً يطل مبشرا
وفي الأفق رعد قد تمدد وافترى
ليخفي بسقف الليل بدراً منورا
أرى في المدى أشلاء من كان فارساً
وظلاً لعفريت أتى متجبرا
وكنت أرى فيما مضى شمسَ يعربٍ
وواحات نخل تجعل التمر سكرا
وكنت أرى سلمى وأعشق حسنها
وأشهد.. لو صخر رآه.. لأثمرا
فمالي أرى الدنيا تبدد صفوها
ومستقبلاً وعراً وجيلاً محيرا

بغيــر يقــين أهجــر الآن مــوطني

أقول لنفسـي: قـد أعـود مظفـرا

بكى صاحبي لما رأى الغرب وجهتـي

وأيقــن أني قــد أذل لقيصــرا

.. بمجرد دخوله من بوابة القصر المرمرية.. أجريت لامرئ القيس مراسم استقبال رسمية.. ودخل على القيصر.. ورآه جالساً في هيئة غضنفر.. أما المجنون فقد وضع على رأسه طاقية الإخفاء.. وتذكر على الفور قول أحد الشعراء الحكماء:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة

فلا تظنن أن الليث يبتسم

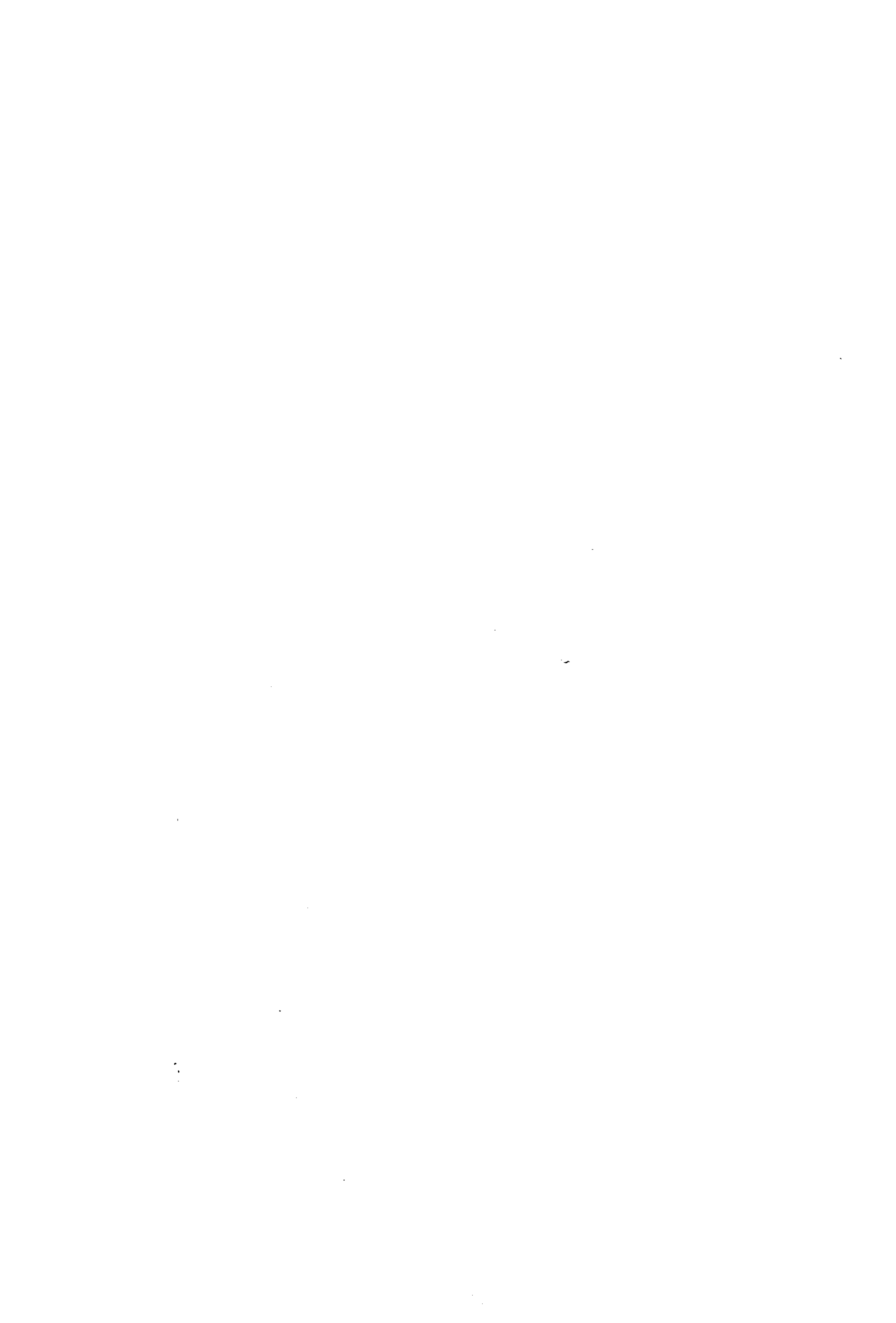
حين تهلل وجه امرئ القيس.. كان قد شرب الكأس.. فقد وعده القيصر خيـراً.. مـا دام يريد أن يأخذ ثأراً.. وخرج الشاعر بعـد اللقـاء.. ليؤكـد للصـحفيين أنـه قـد عـاد إلى حالـة الصفاء.. بعد أن أحس أن النصر سيأتيه دون إبطاء.. فقد وعـده القيصـر.. بحشـد كبيـر مـن العسكر.. وفي طريق العودة الطويل.. جاء مبعوث القيصر الجليل.. وسـلم لامـرئ القـيس هدية.. بالقرب من مدينة أنقرة الرومية.. وكانت الهدية بدلـة مزركشـة.. تغمـر مـن يلبسـها بروح الفرح والفرفشة.. وفي الحال ارتدى امرؤ القيس البدلة..لكن فرحتـه لم تـدم أكثـر مـن ليلة.. وقد أحس المجنون أنها بدلة ملغومة.. وبالفعـل فإنهـا كانـت مسـمومة.. وهنـا بكـى المجنون أشد البكاء.. بينما سقط امرؤ القيس فوق رمل الصحراء.. ورأى قبـراً لامـرأة مـن بنات ملك الروم.. فأدرك أن سيوافيه الأجل المحتوم.. قبل أن يأخذ الثأر.. وقبل أن يتحقـق له ما كان يرجوه من نصر.. وهكذا اندفع قائلاً لمن تسكن في القبر:

أجارتنا إن المزار قريب

وإني مقيم ما أقـام عسـيب

أجارتنا إنا غريبان ها هنا

وكل غريب للغريب نسيب





عمر بن أبي ربيعة ..
يسهر في الليدو وكازينو بديعة !

لأن الحمار حمار.. فإنه لا يقوم بالاحتجاج أو الاستنكار.. عندما يحمل من الأثقال.. ما قد تنوء به الجبال.. ولكن في بعض الأحيان. قد يتمرد الحمار على الإنسان.. ويعلن العصيان.. رافضاً أن يمشي رغم كل الضرب والإذلال والهوان.. ولهذا يقول المصريون.. عن الشخص الذي يضربه الآخرون.. «علقة ساخنة».. إنه «.. أخذ علقة: ما خدهاش حمار في مطلع..».

ويبدو أن شركات الاتصالات.. على امتداد كل القارات.. قد تعلمت كالحمار أن تطيع أصحاب «الموبيلات».. وأن تتمرد في بعض الأحيان.. حين يتزاحم كل إنسان.. مع غيره من الناس.. من مختلف الألوان والأجناس..لكي يرسل الجميع «ميسيجات».. كلها تردد عبارة واحدة Happy New Year.. وعلى الرغم من أن السنة الميلادية تخص المسيحيين.. إلا أنهم يجدون الآخرين.. من بوذيين ومن مسلمين.. يشاركونهم في ترديد: «هابي نيو يير..»!

كان المجنون يريد السفر إلى باريس.. لقضاء ليلتي الأربعاء والخميس.. في زيارة متحف اللوفر صباحاً.. والسهر في الليدو أثناء الليل.. وقد هرب من مكانه بالفعل.. وسافر دون أن يدفع شيئاً بالريال أو اليورو أو الدولار.. والبركة طبعاً في «بساط الريح» الجبار.. وأثناء طيران المجنون في الأجواء.. وجد بالقرب منه طائرة

تشق عباب الفضاء..وتلصص المجنون على الطائرة.. وهي إلى وجهتها الأوروبية سائرة.!
فوجد فيها أحد الرجال.. يقوم بكل فرح واختيال.. بتغيير ثيابه العربية.. وارتداء ملابس أوروبية.. فاقترب المجنون بدافع الفضول.. من الطائرة ليعرف ماذا يجول.. في بال الرجل الذي «كشخ» وتعطر.. ومشى داخل الطائرة يتبختر.. وهكذا أرهف المجنون السمع بكلتا أذنيه..بينما كان الرجل يبوح لنفسه بما لديه:

«أشلح» الليلة سروالي ونعلي
مدخلاً في بنطلون الغرب رجلي
تاركاً «غترة» رأسي وعقالي
جنب «بشتي» ناسياً عادات أهلي
واضعاً فوق عيوني «كشمة»
«كشخة» من صنع أوروبا لمثلي
غارساً في «عروة الكوت» ورودا
ممسكاً «برنيطة» الرأس كظلي
ومن الساق «دلاغ» يتدلى
فوق «جوتي» جلد كنجارو.. وأصلي
إنها راحة بال.. بعد صبر
إنها رحلة لهو للتسلي
قلت للزوجة: «ياأم عيالي
إنني من أجل شغلي سأولي
فاسمحي لي بغياب عنك شهراً
فأنا – والله– معفوس بشغلي»
قالت الزوجة: «إن الشهر وايد
حفظ الله أبا الجهال.. بعلي..»
يا «هيد برك» وياكل الملاهي
لك حبي.. أنت شغلي.. طول ليلي

آه ممـــا ســـألاقيه..ووبـــلي .

حين تدري زوجتـي.. أيـن محـلي!

.. ألقى المجنون على الرجل نظرة حائرة.. امتزجت فيها الشفقة بـالروح السـاخرة. ثم ابتعد عن الطائرة.. حيث هبط ببساط الريح في شارع «بيجال».. ورأى فيه زحاماً مـن نساء ورجال.. وتصور المجنون أن النساء يعشن في ضائقة ماليـة.. لأنهـن رغـم بـرودة الشتاء الثلجية.. يلبسن تنانير قصيرة.. تكشف – يا ولداه – عما فوق سيقانهن المثيرة!

في شـــارع بيجـال رأى المجنــون رجلـين يتمشـيان.. وهمـا يتحـاوران.. وأحيانـاً يتهامسان..وأحس المجنون أنهما من بني العروبة..التي أصبحت أشبه بالسفينة المثقوبة..

– لماذا تأخر عمر عن الموعد؟

★ يبدو أن النساء هنا لا يشعلن غرامه.. وهكذا فإنه فقد اهتمامه.

– لكنه عاشق للنساء.

★ هذا صحيح.. وكلنا نعشق النساء.. لكن النساء هنا عجيبات.. فكلهن هزيلات.. ممصوصات.. نحيفات.. وعمر لا يحب إلا البدينات.. المربربات!.

.. هنا اندفع المجنون إلى الرجلين.. وقال: هل تسمحان لي بكلمة أو كلمتين.. أريـد أن أعرف أولاً من هو عمر؟.. ربما أستطيع البحث عنه بعد اقتفاء الأثر.. وثانياً.. لمـاذا يكره عمر الرشاقة.. بكل ما فيها من حيوية وطلاقة؟

قال أحد الرجلين وهو ينظر إلى امرأة نظرة جائعة.. لأنها تبدو امرأة حلوة ورائعـة:.. إننا نبحث عن صديقنا الشاعر عمر بن أبي ربيعة.. لقد سـهرنا معـه مـن قبـل في كـازينو بديعة.. وكنا قد تواعدنا معه على سهرة الليلة.. في أبهى حفلة.. يقـدمها ملهـى «الليـدو» الموجود في «الشانزلزيه».. فإذا كان الأمر يثير اهتمامك يا سـعادة «البيـه».. فعليـك أن تبقى معنا.. حتى يأتي عمر فنصحبه ويصحبنا.

اندهش المجنون عمر بن أبي ربيعة.. يسهر في الليدو وكازينو بديعة!

.. لا تتعجل. سـ وي لك الحكاية.. من بـدئها لحـد النهايـة.. ولكـن عنـدما يـأتي عمر.. ويأتي معه القمر'





بائعات الهوى في بيجال ...
رقص على الشوك بغير جدال !

كالأمواج التي تتحرك وتندفع.. وإن كانت تنخفض أو ترتفع.. ظلت حشود من النساء والرجال.. تتحرك في شارع بيجال.. وتنبه المجنون وهو واقف مع صديقي عمر.. أن هناك نساء يغمزن بعيونهن دون حياء أو خفر.. وأنهن يتحركن ببطء قرب أعمدة الإنارة.. ويقمن بحركات، كلها إغراء وإثارة.. وقال أحد صديقي عمر بن أبي ربيعة.. وهو يضحك ضحكة خليعة.. آه من بائعات الهوى في بيجال.. إنهن يرقصن على الشوك بغير جدال.. وفجأة رن الموبيل الذي يحمله عدة رنات موسيقية..فاندفع ليرد باللغة العربية.. رغم أن الأجواء كلها فرنسية:

★ نحن الآن في شارع بيجال.. أمام المولان روج.. ومعنا شخص يريد التعرف عليك.

- أنا سبقتكما.. ودخلت الليدو في الشنازليزيه.. وقد حجزت لكما تذكرتين.. فلا تتأخرا.. لأن العرض سيبدأ بعد قليل..وستجدان فيه كل جميل.

... بعد المكالمة أراد المجنون أن ينصرف في اللحظة والتو.. لكنه اطمأن بعد أن عرف أنه مدعو.. وانصرف الثلاثة في الحال.. بعيداً عن شارع بيجال.. وحول المائدة.. التي اتخذ منها عمر بن أبي ربيعة قاعدة.. يراقب من خلالها حركات

النساء.. ويتأمل جمال الأضواء.. جلس الثلاثة معه يثرثرون.. بينما قال له المجنون؛

★ أنا سعيد حقاً بلقائك أيها الشاعر الساحر..

- شكراً لك. ولكن ماذا تعرف حقاً عني؟

★ اسمح لي أولاً أن أقول لك إنك أكثر شباباً مما كنت أتخيل.

- السبب يرجع إلى عشقي للحياة وحبي للنساء الجميلات.

★ أنت إذن ينطبق عليك المثل الفرنسي «شرشيه لافام».. فتش عن المرأة.

- لا تخلط الأمور.. فأنا شاعر أقدم من أي شاعر فرنسي.. بل أقدم من كل شاعر أوروبي.

★ أنا أعرف هذا طبعاً.. فأنت قد ولدت في المدينة سنة ٢٣ هجرية في نفس اليوم الذي قتل فيه عمر بن الخطاب.

- هذا صحيح.. ولهذا السبب يهاجمني المتزمتون.. ويقولون.. إن عمر الشاعر الفاسد.. قد ولد يوم مقتل عمر الخليفة الراشد.. على العموم أنا لا أهتم بالنقاد.. خصوصاً الذين تمتلىء صدورهم بالأحقاد.. والآن دعنا من هؤلاء.. ولنتحدث عن النسوان.. الحقيقة أني قد تأثرت.. بل إني بكيت.. عندما اقتربت مني إحدى بائعات الهوى في بيجال.. وأخذت تشرح لي ما تعانيه من أهوال.. والطريف أنها سمتني أُمر بن ربيئة.. لأنها لا تستطيع نطق حرف العين.

.. تدخل أحد صديقي عمر..وطلب منه أن يخبره بما قالته فتاة بيجال.. فانطلق عمر بن أبي ربيعة في الحال.. وتمايل قليلاً.. ثم قال:

أُمَـرَ بـن ربيئـة وردة العشق المضيئة

إنني بنت الفرنجة كنت في الماضي بريئة

إنما المهنة شاءت أن أرى دنيا رديئة

مع ناس قد أحبوا نكت الخمر البذيئة

وشباب قد أضاعوا عمرهم بين الخطيئة

فلتجرب أنت حزني أُمَـرَ بـن ربيئـة!

... اغتاظ أحد صديقي عمر منه.. وطالبه بألا يكدر الجو.. بما يغمر القلب بالحزن.. وقال له: يا عمر.. انظر إلى هذه الفتاة التي لا تتكرر.. إن جسدها ليس من طين وماء.. بل من المرمر.. وأنا كلمتها منذ لحظات.. وقد وعدتني بأن تسهر معي أحلى السهرات.. وأنا شخصياً كتبت عن رشاقتها الفريدة.. ما يبدو لي أنه قصيدة:

جسـد.. مرمـر ... وبـه أسـحر
يتثنـى في ... أبهـى مظهـر
وصـديقة أحـ ... ـلامي تبهـر
زهـرة فـل ... لا تتكـرر
عيناهـا مـن ... خمـر الكـوثر
شـفتاها يـا ... قـوت أحمـر
فمهـا يحـوي ... أحـلى سـكر
فـإذا اقتربـت ... يحلـو المنظـر
وإذا غابـت ... فرحـي يقهـر
فمتـى تـدنو ... ومتـى نسـهر؟
جسـد.. مرمـر ... وبـه أسـحر
معـه يـأتي ... فرحـي الأكبـر

... بعد لحظات.. مالت إحدى فتيات الليدو على عمر بن أبي ربيعة.. ولاحظ المجنون أنها تنطق حرف العين نطقاً صحيحاً.. فأدرك أنها قد اختلطت كثيراً بالعرب اختلاطاً واضحاً وصريحاً.. وأخذت فتاة الليدو تداعب عمر.. وتعاتبه في نفس الوقت.. لأنه أكد لها أن كازينو بديعة.. أجمل من الليدو.. وسمع المجنون منها ما تقول.. بينما كان يجلس في اندهاش وذهول:

كيف.. مسيو.. عمر بن ربيعة
كيف تشتاق لكازينو بديعة؟

إن في الليـدو نسـاء لا تجـارى

هـُن في الليـل حمامـات وديعـة

حين يرقصن يفيض الجو سحراً

بـين أمـواجٍ لموسـيقى سـريعة

فإذا كنت تحب الرقص فاشربْ

واندمج كي يحضن القلبُ ربيعه!





مسيو عمر.. يستعيد الزمان الذي عبر.. وبعينيه مفاتيح السهر!

لم يسمع أحد عن ضحكة باللغة العربية أو ضحكة بالإنجليزية أو الصينية أو اليابانية.. الضحكة صوت. ينطلق في الهواء وقد يتجدد.. أو يتبدد.. ولذا يستطيع كل الناس.. رغم اختلاف اللغات والأجناس.. أن يفهموا الضحكة ومعناها.. وأن يدركوا مغزاها وفحواها.

هكذا راح مسيو عمر بن أبي ربيعة يتفلسف.. بعد أن أطلق ضحكة حلوة.. غمرت قلوب سامعيه بالنشوة.. وقد سرت عدوى النشوة إلى قلوب كل الجالسين في الليدو من فرنسيين ويابانيين.. ومن سود وبيض.. ومسيحيين وبوذيين.. وإلى غيرهم من الآخرين.

قال عمر للمجنون: أتعرف أن كل نساء الليدو يعرفنني.. وبالحب والخير يذكرنني!.. تماماً كما كانت نساء مكة يعرفنني ويذكرنني.. هذا طبعاً أيام زمان.. عندما كانت كل امرأة منهن تراني أتبختر بالحصان.. أما الآن.. فإن نساء الليدو يعرفنني من خلال موقعي على الإنترنت!.. وبين الحين والحين أتلقى منهن رسائل بـ«الإيميل»!!

★ وهل يعرفنك الآن شخصياً؟.. وكيف؟!

- أيها المجنون الغبي.. إن موقعي على الإنترنت مزين بالصور..وكلها تروي حكاياتي مع السهر.. عبر الزمان الذي عبر.. وحتى هذا الزمان الحاضر.. وإذا فتحت موقعي ستجد صوراً لي

مع هند وفاطمة ونعم.. كما ستجد صوراً أخرى لي مع سوزي وجاكي وجين!

★ أنا أفهم أن هند تعرف قصائدك الغزلية.. لأنها مكتوبة بلغتنا العربية.. ولكن كيف تفهم سوزي هذه القصائد وهي لا تعرف غير لغتها الفرنسية؟

- ألم تسمع أبداً بالمستشرقين.. والمترجمين!.. قبل أن تجيئوا أنتم استقبلتني ثلاث فتيات جميلات.. بأجمل الورود مع ألطف البسمات.. وسأروي لك أيها المجنون.. ما جرى عند دخولي حتى لا تساورك الظنون.. والآن اسمع يا مجنون:

حين مس الأرض غيث وانهمر
رحت لليدو بشوق قد كفر

عرفتني نسوة الليدو اللواتي
ليس فيهن حياء أو خفر

قالت الكبرى: أتعرفن الفتى؟
قالت الوسطى: نعم.. هذا عمر

قالت الصغرى.. وقد تيمتها:
قد عرفناه.. وهل يخفى القمر..

إنه ينعش أحلام الصبايا
إنه العاشق في أبهى الصور

إنه كنز من الحب تجلى
وبعينيه مفاتيح السهر

إنه يقطف ورداً من خدود
ويغني لزمان قد عبر

وهو في الحالين حلو ووسيم
ساحر يلقي دعابات السمر

تمايل المجنون من الطرب.. وتمايل معه كثيرون من العرب.. لكن المجنون قال – فجأة – لعمر.. بقدر كبير من الحذر:

★ إن كل قصائدك يا عمي عمر مكتوبة في النساء.. فلماذا لم تمدح أي خليفة من الخلفاء؟

– أولاً.. لا تكرر أبداً عبارة عمي عمر.. قل يا أخي عمر.. فأنا أكثر شباباً منك!.. وثانياً.. لقد سبق أن قلت للخليفة الأموي أنا لا أمدح الرجال، إنما أمدح النساء وذلك بعد أن طلب مني أن أمدحه.. والحقيقة أنني فعلاً أعشق النساء.. وتركت السياسة لبني أمية.. خصوصاً إنني من عائلة ثرية.. ولست محتاجاً إلى المال.. وبالتالي فإني لا أمدح.. وإنما أتغزل في كل وجه مليح، ثم أتركه إلى ما هو منه أملح.. وثالثاً.. إن الحكام يضعون الشعراء في المعتقلات والسجون.. إذا كتبوا عما هم يفعلون أو يرتكبون.. ولهذا فأنا أتقي شرهم وأكتب في الحب، بل أحياناً في المجون.. أليس هذا أفضل يا مجنون؟!

فجأة ترنح عمر.. لا بسبب ما شرب.. وإنما من فرط الطرب.. بعد أن سمع موسيقى التانجو والسامبا والجاز.. فأمسك سيفاً من سيوف الزينة.. وأخذ يتمايل أمام فتاة بدينة.. لأنه لا يحب النحيفات.. وهنا تحرك شاب مفتول العضلات.. يسمونه «بودي جارد» لكي يقبض على مسيو عمر.. لكن إحدى العاملات في الليدو اندفعت بسرعة.. وقالت للبودي جارد.. إن هذا الرجل الجميل.. ليس إرهابياً وليست له أي علاقة بخطف الطائرات.. وإنما يحب أن يخطف قلوب الجميلات.

لم يهتم عمر بهذا البودي جارد.. وواصل الرقص بكل ثقة واعتداد.. ثم أطلق ضحكة حلوة.. غمرت قلوب الجميع بالنشوة.. بينما أمسكت سوزي كتف مسيو عمر.. وأخذت تراقصه دون حياء أو خفر.. فقال عمر للمجنون.. اسمع ما سأقول يا عم مجنون:

يقبل الليل فينسينا النهار

عندما يلقي على الدنيا ستار

هذه سوزي بتانجو تتلوى

هذه جين تحيي BON SOIR

ونبيــذ مــن شــفاه تتغنــى

أخطـف القبلـة منهـا باقتـدار

وأنـا أرقـص كالسـاحر لمـا

يتمشـــى بـــين أولاد صـــغار

قـدمي تبـدع إيقاعـاً عجيبـاً

بينمـا النسـوة حـولي في انبهـار

كل هذا في ستار الليل يجري

كيف بـالله نـرى نـور النهـار؟!



٩

لماذا أطلق عمر بن أبي ربيعة ..
ضحكة صاخبة خليعة ؟

بعد الليلة التي قضاها مسيو عمر.. بين الغناء والرقص والسمر.. التفت نحو الفتيات، قائلاً لهن مرسيه.. وخرج من الليدو في الشانزليزيه.. حيث تحرك بكل ثقة واطمئنان.. نحو المكان الذي ربط فيه الحصان.. لكنه لم يعثر له على أي أثر.. فنصحه المجنون أن يبلغ الشرطة بالخبر.. لكن مسيو عمر خاف من الفضيحة.. فرفض النصيحة.. وقال: لابد أن أفراداً من عصابات ألمافيا.. قد جاءوا إلى هنا من إيطاليا.. ليخطفوا حصاني العربي الأصيل.. ويتركوني حائراً بغير دليل.. وربما طالبوني بفدية مستحيلة.. بحكم طباعهم الرذيلة.. وأنا الآن أريد النوم في مخدعي.. خصوصاً بعد أن أنفقت أغلب ما معي!

بدا مسيو عمر كالأسد الجريح.. فأركبه المجنون مع صديقيه في بساط الريح.. وارتفع البساط فوق البحر الأبيض.. وكان الموج أشبه بحصان لم يروض.. فتذكر عمر ما جرى لحصانه.. وجز قليلاً على أسنانه.. وبعد وقت قصير.. قال المجنون بصوت كسير.. إننا نوشك أن نعبر فوق البحر الأحمر.. فعاد لمسيو عمر بعض الاطمئنان.. وقال للمجنون: اهبط بنا قرب بيتي الذي كان.. أيام زمان.. وإن كنت أعرف أنه أصبح طللاً من الأطلال.. اهبط يا مجنون فلم يعد عندي ما يقال.

هبط المجنون ببساط الريح.. وقرر أن يذهب ليستريح.. أما مسيو عمر وصديقاه فقد تمشوا فوق الأرض العربية.. لكنهم لم يسعدوا بمشية هنية.. إذ انطلقت من حولهم الأعاصير.. فتوقفوا قليلاً عن المسير.. حيث استمعوا لحكاية غريبة.. نسي بعدها مسيو عمر ما جرى له من مصيبة.

شاهد عمر وصديقاه أحد الرجال.. وهو يحاول أن يعدل الغترة والعقال.. ويقول لنفسه بضيق وهم.. ماذاجرى لي اليوم؟.. حتى «البنشرجي» لم يعد بي يهتم.. إن «التاير بنشر».. في هذا الجو الأغبر.. وأخذ الرجل البدين الحزين.. يفصح عن حكايته ويبين:

بنشر التاير.. والشارع أغبر

إن حظي اليوم بالوحل تدثر

قطة البيت استطابت أن تنونو

فتيقظت.. وما كنت مخير

قمت من نومي بغيظ يتمادى

وإلى شغلي تأهبت.. مكدر

وتركت البنز.. خليه يولي

ضقت بالبنز فغادرت بجكور

في فريج الربع لاحت بسمة لي

فتمايلت - بزهو - أتعطر

وبدا الجو جميلاً.. وعيوني

تشرب البسمة من وجه منور

فجأة طاح عقالي في اضطراب

ورأيت الجو حولي قد تعكر

فترجلت من الجكور فوراً

وإذا بي أجد التاير بنشر

وإذا باسـتبن بنـز يتـراءى

ساخراً مني.. ومن حظ تعثـر

رحلت ملهوفاً لبنشرجي فريجي

قال لي: الحين أنا فيه يسكر!

.. تنهد عمر وهو يردد ما يقوله المصريون..

من شاف بلوة غيره.. هانت عليه بلوته.. وضحك وهو يقول: الحصان لا يحتاج إلا لماء وشعير.. أما هذه المركبات التي تسير.. فإنها تحتاج لبنزين.. خصوصاً إذا كان راكبها من الحجم المتين.. كما أنها تحتاج لبنشرجي غير كسول.. يظل يعمل.. دون أن يقول: الحين أنا فيه يسكر.. هل جاء إلى هنا ليعمل أم لكي يسخر!

أطلق عمر ضحكة صاخبة خليعة.. وقال لصديقيه: هل تذكران كازينو بديعة؟.. وقتها كان المصريون قد بدأوا يستوردون السيارات.. من نوع فورد وباكار بالذات.. وهكذا أصبحوا ينظرون إلى الحمار.. نظرة إشفاق أو احتقار.. رغم أنه كان يتحمل منهم الكثير.. عندما ينطلق بهم أثناء المسير.. ولم يكن يطالبهم إلا بالبرسيم.. وقطرات ماء توضع في جردل قديم!

من جديد.. ضحك عمر بن أبي ربيعة.. وقال إنه سمع في كازينو بديعة.. أغنية من أغنيات سيد درويش.. وفيها هجاء للسيارات.. مع إعطاء الحمار كثيراً من الامتيازات.

★ هل تتذكر هذه الأغنية.. يا عمر؟

- نعم.. يا رفيق ليالي السهر..

هذا صوت سيد درويش.. وهو يعدد مزايا الحمار.. وفضله على الناس أيام زمان:

بنزينـه شـعير — ربـاني مـش شـل

جنبكـو يـا حمـير — الأوتـو ينـذل

هـاتوا فـورد.. — هـاتوا باكـار

هـا يلاقـي فـين — زيـك يـا حمـار!

.. ويبدو أن الغناء.. قد أزاح عن عمر العناء.. إذ سرعان ما تعالت الضحكات.. وما لبث أن تحولت إلى قهقهات.. خصوصاً بعد أن رفع عمر إصبعه.. وأشار قائلاً لمن معه:

هايلاقوا فين.. زيك يا حمار!



١٠

«ماكو» غير هولاكو ...
وعلى النائمين إهلاكه !

حمل المجنون وردة واصطحب معه قصيدة، أثناء انطلاقه ليلاً للعمل في الجريدة، وعند الباب الذي يُفتح من غير بواب، كانت له وقفة مع الأحباب، حيث تسلم رسالة، يبدو أنها مكتوبة في عجالة، كان عنوان الرسالة «إلى العاقل الوحيد».. فأحس المجنون أنه كائن فريد، بعد أن زرع العنوان، في قلبه واحة الراحة والأمان، وجعله يتأكد أن زملاءه الآخرين، كلهم من المجانين، فخاف على نفسه من جنونهم، ومن شظايا ظنونهم، ولهذا قرر الابتعاد عن الجريدة، حيث مشى على يديه مسافة بعيدة، واتجه متحمساً إلى الكورنيش، ليقرأ من جديد تلك الرسالة بكل ما تحويه من فرفشة وتلطيش !

على الكورنيش تذكر المجنون ما كان منذ سنوات، عندما كانت الفئران تملأ الطرقات، وتعض السائرين وتعاكس السائرات، وتذكر – وقتها – رجال البلدية، وهم ينطلقون بكل همة وحيوية، لوضع السموم في الزوايا والمنعطفات، وحبك الدسائس والمؤامرات، لصد هجمات الفئران، التي كان القط يخشاها والإنسان، ووقتها استمع المجنون لفأر حكيم، يعلن لبني قومه النبأ الأليم، ويتنبأ بالكارثة في قصيدة شعر، يخاطب فيها كل فأرة وفأر:

ضاق صدري برجال البلدية
يقتلون الفار منا دون دية
ليس يكفيهم بأنا في شقاء
بينما الناس حياة شاعرية
كم شربنا من مجاري الصرف دهراً
وتجرعنا من البؤس البقية
حيث نحيا في خلاء أو بيوت
دون ناس أو جحور لولبية
نأكل «الكشرة» حتى نتعشى
ونداري الهم في الدنيا الشقية
ونرى الناس من التبذير ألقوا
بطعام فائض يغري الشهية
ويحهم.. لم يذكروا أن جياعاً
في بلاد العرب ماتوا في العشية
ويحهم.. إذ يزعمون العقل حكراً
بينما الأفعال أفعال غبية
أيها الفئران.. أنتم عقلاء
فاستعدوا لتلاقوا البلدية!

.. استلقى المجنون على ظهره فوق الحشيش، وهو يتأمل جمال الكورنيش، وفجأة سمع صيحة استغاثة عالية، فنظر إلى البحر ليجد أمواجه عالية، وفي قلبها رأى رجلاً لا تبدو منه غير الرقبة، وهو يتشبث بخشبة، ولأن المجنون لا يجيد السباحة إلا في «شبر مية».. فقد بادر بإلقاء حبل من الحبال الطويلة القوية، فأمسك به الغريق، وعاد لعينيه

بعدها البريق، لكن المشكلة أن المجنون تعثر واختل، وهو يسحب الحبل، فلم يجد أمامه من حل، سوى أن يغرس قدميه بسرعة بين الصخر، وإذا بشيء غريب يظهر وكأنه سر، يريد أن يخرج من أضلاع الصدر!

وجد المجنون قمقماً من النحاس، فاستبد به الفضول والحماس، وقام بفتح الغطاء المحكم، لكي يرى ما في داخل القمقم، وإذا بدخان يتلوى ويتجسد في هيئة عفريت، فاستجمع المجنون ما تبقى من عقله الشتيت، وقرر أن يهرب ببراعة، أو أن يواجه ما أمامه بشجاعة.

- من أنت أيها العفريت، وماذا تريد.. على وجه التحديد؟

★ أنا «محصور بن مغرور بن المنصور» وأنت أخرجتني من قمقم كنت محصوراً فيه، فاطلب الآن ما تتمنى وأتعهد لك أن ألبيه!

- هل تستطيع تجفيف عمامة هذا الرجل، وإراحته مما هو فيه من بلاء وبلل، وهل تستطيع أن تمنحه شعوراً بالأمل، بعد أن كاد يكون من الهالكين، في قرار البحر المكين؟

.. لم يتكلم العفريت كلاماً كثيراً بلا فائدة، ولكن لم تمر لحظة واحدة، إلا وقد أصبحت العمامة في أحسن حال، وأصبح من كان يشرف على الغرق في أهنأ بال، وهنا التفت العفريت إليه وقال:

- ألست أنت السندباد.. الرجل الذي كان يقيم في بغداد، لكنه كان يحب الرحلة إلى مختلف البلاد؟.. كم مرة أغرقتك موجة قوية، وأنقذتك منها معجزة إلهية؟!

تمتم الرجل بفرح ما بعده فرح:

- الحمد لله، فقد وجدت الآن من يعرفني، ويذكر اسمي الذي كدت من الرعب أن أنساه.

.. لإكمال المروءة والشهامة، ابتسم المجنون للعفريت أجمل ابتسامة، ثم طلب منه أن يعيد السندباد، سالماً غانماً إلى بغداد، فأمسك العفريت كتف المجنون وهو يقول: بشرط أن تأتي معنا، فالاعتذار غير مقبول!

حمل العفريت السندباد على ظهره، وجلس المجنون على كتفي السندباد، وانطلق

الثلاثة في الجو والليل حولهم حالك السواد، حيث شاهدوا من الفضاء شلالات حمراء تتدفق بالدماء، ورأوا بيوتاً تهاجمها ذئاب وتدمرُ ما فيها، على رؤوس أصحابها وساكنيها، فصرخ السندباد: هذه أول مرة أرى فيه قراصنة بريين، بعد أن رأيت من قبل قراصنة بحريين!.. وهنا بكى المجنون، وسقطت دموعه فوق أشجار الزيتون، أما العفريت فقال للسندباد: سأريك في اللحظة والتو، قراصنة آخرين يتباهون بإفساد الجو، والغريب أنهم ينكرون أنهم يفسدون، ويصدقهم بالطبع كل الذين منهم يخافون!.

كاد المجنون يسقط من الفضاء لكن السندباد، أنقذه بفضل رب العباد، فقد كانت تحوم حولهم آلات رهيبة، تحركها وجوه بشرية غريبة، تمطر موتاً يهطل على رؤوس الجائعين وأجساد الأطفال الخائفين، واغتاظ السندباد، عندما رأى النخيل يكسوه الرماد، أما المجنون فقد تذكر من يعرفهم في المدن الشقيقة والصديقة، وهم يسهرون مع برنامج «خير رفيقة لكل دقيقة»، ثم ينامون غافلين أو متغافلين، عن الخطر القادم المبين.. حيث يحلمون «بمن سيربح المليون؟».. لكي يسدد كل منهم ما عليه من ديون.. ويشتري ما يشتهي دون أقساط تتزايد بالفوائد.. وقد تقلب على رأسه كل الموائد.. أو تلقيه في ظلمة السجن.. ليظل فيه يتوجع ويئن.

بعد قليل، تساءل المجنون، بصوت محزون، عن المتسبب في قتل الضحايا، ونشر الخراب في كل الزوايا، وهنا رد عليه السندباد، بصوت لا يخلو من ثقة واعتداد.. المسؤول عن هذا هو هولاكو الذي جاء من أقصى الشرق، حاملاً معه المنجنيق والبرق، وها هو الآن يجيء من أقصى الغرب، ومن دون قلب.. وارتفع صوت السندباد، لكي يسمعه كل العباد.. صحُّوا النوم.. يا قوم..«ماكو» غير هولاكو.. وعلى النائمين التصدي له وإهلاكه!



١١

حكاية الرجل المهموم ...
والبلابل التي رباها البوم !

هبط العفريت بالسندباد، في أحد شوارع بغداد، وتركه لكي يرتاح بعد أن طال السهاد، أما المجنون فقد أهداه العفريت نوعاً جديداً من بساط الريح، لكي يطير على هواه دون إذن أو تصريح، وهكذا طار المجنون، يرى ما لا يراه العقلاء الخائفون، حيث رأى أن ميزان العدل قد اختل، بعد أن تزحلق الصبح في بئر الليل، ولم يعد الناس يميزون العسل من الخل، وكل منهم يزعمون أن لديه أفضل حل، لعلاج الجسد المعتل!

«كلهم يكذبون..».. هذا ما سمعه المجنون،فنظر من فوق إلى تحت، تجاه مصدر الصوت، فرأى طفلاً عنيداً يمسك بحجر، ويقذفه على شياطين البشر، ورأى أجساداً تحت الأنقاض، وفوق الأنقاض رأى نهر الدم وقد فاض، ورأى – من بعيد – رجالاً يتصافحون ويتعانقون، وبعد قليل رآهم يجلسون ويتنحنحون، وكل منهم يتحدث عن رابطة الأخوة، وعما لديه من قوة، لكنهم يؤكدون أن اللطف أجمل، وأن التحلي بالصبر أفضل، وهنا استمع المجنون، إلى صوت آت من ضباب القرون:

«يسوسون الأمور بغير عقل
وينفذ أمرهم فيقال: ساسة
فأف من الحياة وأف مني
ومن زمن رياسته خساسة»

التفت المجنون بشيء من الخوف، وقال لصاحب الصوت الذي وصف الجميعُ أجمل وصف..

- يا عم.. أو يا جد.. من أنت ومن أين أتيت؟

- أنا في مكاني لا أزور أحداً ولكن قد أزار، منذ أن فرضت على نفسي العزلة داخل أسوار.. أنا «رهين المحبسين».. فقدت نور العينين.. لكني أرى بنور البصيرة.. كل ما يدور في دنياكم الكبيرة.. أرى من صان.. وأرى من خان!.

... سكت رهين المحبسين، وذرف المجنون دمعتين، بعد أن عرف من رجل مهموم، حكاية «البلابل التي رباها البوم»:

«أنبئت أن سليمان الزمان ومن
أصبى الطيور، فناجته وناجاها

أعطى بلابله يوماً - يؤدبها
لحرمة عنده - للبوم يرعاها

واشتاق يوماً من الأيام رؤيتها
فأقبلت وهي أعصى الطير أفواها

أصابها العي حتى لا اقتدار لها
بأن تبث نبي الله شكواها

فنال سيدها من دائها غضب
وود لو أنه بالذبح داواها

فجاءه الهدهد المعهود معتذراً
عنها، يقول لمولاه ومولاها

بلابل الله لم تخرس ولا ولدت
خرساً، ولكن بوم الشؤم رباها»

.. اغتاظ المجنون حين عرف أن البلابل قد أصبحت خرساء، ولم تعد تغمر الأجواء

بالغناء، وهكذا قرر أن يهبط ببساط الريح، وهبط بالفعل قرب بيت جميل فسيح، لكنه سمع بكاء غريب الإيقاع، فدفعه حب الاستطلاع، لأن يهيء أذنيه للاستماع، وهكذا عرف المجنون حكاية، من الحكايات التي ليس لها نهاية.

ها هو المجنون يسترق السمع، وعيناه تفيضان بالدمع، بعد أنـدرى بما قد جرى، حيث اندفعت من داخل البيت الجميل والفسيح.. كلمات تختلط بتنهدات قلب جريح.. أما صاحب القلب الجريح فهو رجل هندي جاء للعمل، وكان في قلبه أمل، وهاهو الآن يحكي لزوجته، عما تسبب في محنته، ففي خارج البيت «دعموه» وداخل البيت ضربوه و«كفخوه» ثم هددوه بأن يطردوه و«يفنشوه».

الحكاية حكاية إنسان أصبح رمزاً لذل الناس، وهي حكاية لا تهم إلا من لديه إحساس، وقد سجلها المجنون، على لسان الخادم الآسيوي المحزون:

قلت « أطشا » وهززت الرأس هزا
وإلى السوق طويت الأرض قفزا

جالباً كرتون بيض وثيابا
عند «دوبي» و«دايات» وخبزا

مطلقاً ساقي «بالسيكل» أجري
دون«ليت» أكسرا الخاطر غمزا

وإذا بي «طايح» في Big problem
«دعموا» السيكل دعماً مستفزا

والثياب البيض صارت مثل وجهي
وجموع الناس تهريني «طنزا»

ووجدت البيض «معفوساً» بقربي
ومن الساق دماء تتنزى

ثم لما عدت للدار جريحاً
لم يصدق سيدي وانقض لكزا

وتـــولاني بشـــتم بعـــد «كفـــخ»

ثــم جــز الشــعر مــن رأســي جــزا

قــال لي «يــا سرســري» مالــك عــيش

هــا هنــا فاذهــب لهــز الــرأس هــزا

فاشهدي يــا زوجتــي ســوء مصــيري

إننــي صــرت لــذل النــاس رمــزا





الحفيد يتحفز... لكفخ الدوبي الذي يتطنز!

قبل أذان المغرب في رمضان.. تهبط على المجنون «ترابيزة» الرحمن.. وهي مائدة يومية.. يقدمها له على سبيل الهدية.. صديقه الشاعر العاقل محمد بن خليفة العطية.. وتضم المائدة فخذة خروف محمرة أو مشوية.. مع كل ما يفتح الباب للشهية.. ويظل المجنون تائهاً بين الأواني والصحون.. حيث يحتفظ لنفسه بما يشاء.. ويوزع باقي الترابيزة على الأصدقاء.. وقبل أن يعود في الليل من العمل.. ينطلق على عجل.. إلى مخبز الرغيف الساخن لشراء الكنافة.. مازجاً بينها وبين مهنة الصحافة.. في مزيج يجمع الحلو بالمر.. ويختلط اليسر فيه بالعسر.

منذ ليلتين وقعت حادثة.. اعتبرها المجنون أكبر كارثة.. فقد سقطت من يده أكياس الكنافة الطرية..وتناثرت أشلاؤها العسلية.. وأصابت كل أرجاء البنطلون.. بينما وقف الناس يتفرجون.. فمنهم من يقهقهون.. ومنهم من يشفقون.. أما المجنون فقد انتابه الذهول.. وأخذ يهذي ويقول:

بنطلوني غاص في صحن الكنافة

فتسربلت بأوراق الصحافة

محرجاً عدت إلى البيت بحزني

حيث أشعلت على الفور لفافة

واستقرت دمعتي في كوب شاي
فارتشفت الشاي، والدمع إضافة
وخلعت البنطلون الحلو حتى
يعطف الدوبي بمسحوق النظافة
إنما الدوبي.. تسلى وتطنز
شكل هذا.. يلبسه راعي ثقافة!
إنت وين الشغل هذا يا رفيج
سو من هذا ثريداً بالكنافة!

.. اغترف المجنون من الكلام المر ما اغترف.. فتصبب وجهه عسلاً وانصرف.. حيث قرر جمع شملِ العائلة من كل منعطف.. لكي يقدم له الجميع قرارات وتوصيات.. تتعلق بمواجهة الدوبي الذي تطاول بالتطنز والإساءات..للمجنون ثلاثة أبناء.. كلهم من العقلاء.. وللمجنون أيضاً حفيد وحيد.. يلبي لجده المجنون كل ما يريد..

قبل أن يدلي الحفيد بأقواله في جلسة الاستماع.. وقبل أن يشارك في مناقشات الاجتماع -أرسل لجده المجنون.. رسالة على الموبايل المطحون.. وهذا نص الرسالة.. دون إفاضة أو إطالة..: .. إنت في واحد قمر.. في وصف إنت يحتار كل نفر.. أنا ما في يشوف إنت في يموت قهر.. تمت قراءة الرسالة التي خففت عن المجنون بعض ما أصابه.. وأزاحت عن عينيه سحابة الكآبة.. وأخذ الأبناء يفكرون.. بينما راح الحفيد يتحفز.. للانطلاق إلى كفخ الدوبي الذي يتطنز.. وهكذا تنحنح الجميع.. لكي يواجهوا الجرم الفظيع..

- لابد من إعلان المقاطعة الاقتصادية.. وحرمان الدوبي من مائدة الرحمن الرمضانية.

★ بل لابد من إعلان الجهاد.. ضد الدوبي الذي طغى على العباد.. وأصبح مثل قوم عادْ.

- لو قاطعنا الدوبي، فمن سيغسل الثياب.؟ لا.. لا فإننا سنواجه أشد اضطراب!

★ علينا أن نتوسل للدوبي، أو نتفاهم مع من عنده من اللوبي!

- سأنسحب من الاجتماع إذا لم تتحقق وحدتنا الفورية..لكي نغسل ثيابنا من البقع النيلية والطينية والرملية.!

★ لا تنسحب.. حتى لا نكتئب.

- كيف نجاهد ونحن ليس لدينا أسلحة؟

★ هذا حق.. وخصوصاً أن لدينا الكثير من الأضرحة!

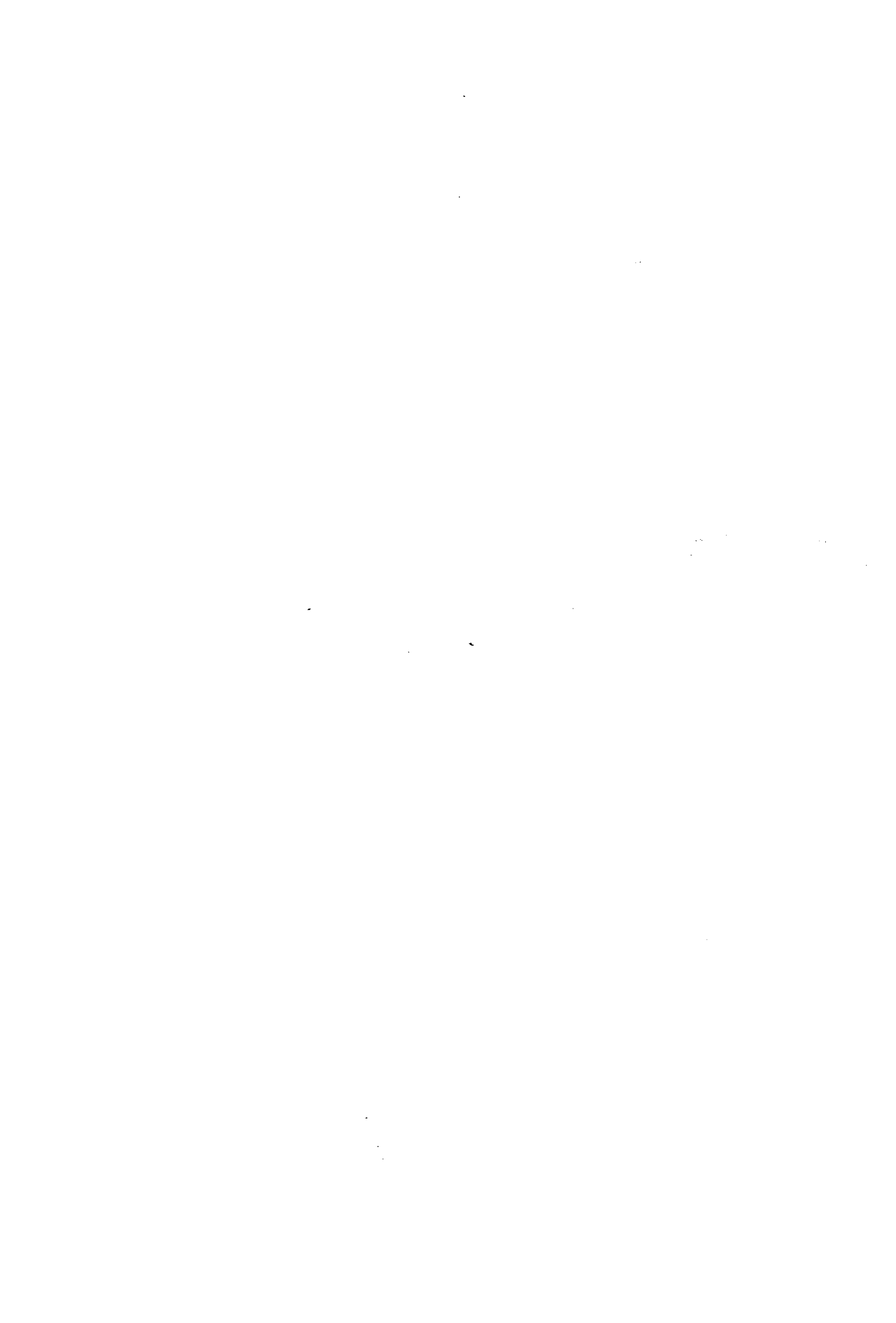
- الجهاد.. جهاد النفس.

★ هذا كلام كنا نقوله بالأمس!

.. ظل الأبناء يتناقشون.. وأخذ الجيران يتوافدون..واصطدمت الأقوال بالأقوال.. دون أن تنتج عنها أفعال.. وظل الدوبي – من بعيد – يتطنز.. وحاول الحفيد أن يتحفز.. لكن الحاضرين أمسكوا به.. وقال أحدهم: كلنا أصبح مفعولاً به.. والمفعول في هذا الزمان ليس منصوباً بل مجرور.. إلى أن يتمرد أو يثور.. وفجأة اقتحم المكان.. رجل غريب الوجه واليد واللسان.. وصرخ الرجل في وجه الجد المجنون.. لقد فتشنا هذا البنطلون.. ووجدنا به مواد كيماوية.. وأخرى جرثومية!

ازداد جنون المجنون.. وأخذ الجيران يتفرجون وهم يرتعشون.. حيث ارتجف من ارتجف واعترف من اعترف.. أما حفيد المجنون فإنه لم يرتعش أو يتخرع.. وعلا صوته ولعلع: ليس في البنطلون مواد كيماوية.. ولا جرثومية.. كل ما في الأمر أنه يحتاج لنظافة.. تزيح منه آثار الكنافة!







تنظيم المائدة .. يقبل عضوية عناصر وافدة .. ليس لها قاعدة!

تكدر مزاج المجنون وتعكر.. حين أبلغه ابنه العاقل أنه سيتهور.. وأنه سيقوم بعمل فدائي.. لا يستطيع أن يتخيله أعظم روائي.. حيث دعا بعض العناصر الوافدة.. إلى الانضمام لتنظيم المائدة.. خصوصاً بعد أن أدرك أن هذه العناصر ليس لها قاعدة!

خشي المجنون على ابنه العاقل.. من مغبة ما هو فاعل.. فاندفع إلى بيته في شارع الأحباب.. عساه أن يمنع أي عمل له صلة بالإرهاب.. وهكذا تكتم على ما قد يجري.. وفر هارباً من وجه كل صديق.. حتى لا يرصد له أحد أي حركة.. أو يعرف إلى أين تتجه خطواته المرتبكة.. وعلى الرغم من التكتم الشديد.. لمح المجنون رجلاً يراقبه من بعيد.. ربما لكي يتبع خط سيره.. أو لكي يمسك بخيط سره.. فاستدار نحوه المجنون.. وسأله عمن يكون:

- اسمي سعيد باي باي.. أريد أن أجلس لشرب الشاي.. لكني حتى الآن.. لم أجد أي مكان.. يتحقق لي فيه الأمان!

★ إني مندهش من اسمك.. لكنني أعترف بأنك في منتهى الجمال والأناقة!

- لا تحسدني على ما يسترني.. فأحوالي كلها تواجه إعاقة بعد إعاقة!

.. أشفق المجنون على سعيد باي باي.. فدعاه لشرب الشاي.. والانضمام لتنظيم المائدة.. لكن سعيد باي باي فر بسرعة غزالة شاردة.. بمجرد أن سمع اسم المائدة!

قبل المغرب بدقائق.. دخل المجنون بيت ابنه العاقل باعتداد الواثق.. فوجد عدة عناصر جديدة.. جاءت من أراض قريبة وبعيدة.. بعد أن تسلموا في قطر ما يقومون به من عمل.. لكنه لاحظ أنهم في حالة شوق وأمل.. إلى سماع صوت انفجار.. من مدفع جبار.. وإن كان لا يفزع منه حتى الجهال الصغار!

قال الإبن العاقل لأبيه المجنون: هؤلاء كلهم فدائيون.. وحتى الآن ليست لهم قاعدة.. لأنهم عناصر جديدة وافدة.. وقد تركوا زوجاتهم والأبناء.. إلى أن يقرر الله لهم ما يشاء.. ولاحظ المجنون أن هؤلاء الوافدين.. يمسكون بآلات حادة وسكاكين.. وقد التفوا جميعاً حول ضحية.. تم قتلها دون محاكمة علنية أو حتى سرية!

بعد انطلاق المُدفع الجبار.. والذي لا يفزع منه حتى الجهال الصغار.. تحركت بعض الأيادي بعنف.. وتحرك بعض آخر بلطف.. وظل المجنون يلاحظ.. بالعيون اليواقظ.. أحد أعضاء التنظيم المبيد.. وهو يلتهم المزيد تلو المزيد.. بينما كان فمه يتحرك حركة دائرية.. ليس فيها أي شاعرية.. وبعد الإفطار بقليل.. جلس هذا العضو يتلوى من ألم ثقيل.. فتطلع المجنون نحوه ومال.. ثم قال له ما قال:

لا تصم إن كنت ترضى بصيام
حسبه منع شراب وطعام

فإذا المدفع في المغرب دوى
رحت تجري في «غرام وانتقام»

قاهراً ربع خروف دون مضغ
مستقراً جنب أطلال العظام

ثم تنقض على صحن ثريد
موغلاً في الصحن إيغال الحسام

جاعلاً بطنك مستودع أكل
فيه أضلاع ضحايا وحمام

فيه مشروب لكولا قد تلاقى

مع مكبوس ففارت بانسجام

فإذا رحت لتشكو سوء هضم

لطبيب راح يصغي باهتمام

صاح فيك الدختر الكاظم غيظاً

يا نظر عيني.. تمهل.. كالكرام

إنك الآن ملوم دون شك

كرشك المتروس أكلاً لا يلام

في فطور الغد لا تستعجل الـ

أكل وامضغ بهدوء وسلام

إنما الصائم من صام بصدق

عن شرور النفس واختار الوئام

هذه الدنيا امتحان لخطانا

ليس بالبرشام نخطو للأمام!

.. أيقظ المجنون سيجارة كانت في جيبه راقدة..وانتظر حتى تم تمشيط الصحون الهامدة.. ثم صافح مودعاً أعضاء تنظيم المائدة.. خصوصاً الذين ليست لهم قاعدة.. وخرج من بيت ابنه العاقل.. حيث رأى ما استوجب منه العجب..

- أما زلت واقفاً هنا يا أستاذ سعيد باي باي..؟ يبدو أنك ما زلت تبحث عن كوب الشاي؟

★ أنا لا أبحث عن شاي الآن.. بل أنتظر وصول جنود الرومان.. لأنهم يحمون حياتي من أي عدوان!

- عدوان..؟!

★ نعم.. عدوان.. من جماعة «خيبان».. فهم الذين تسببوا في كل المصائب.. ولم

يتركوا من بعدهم إلا الشظايا والخرائب.

- وما سر هذه الحوادث؟

★ لا تقل حوادث.. بل قل كوارث.. وسأروي لك ما جرى.. وهو أمر تشهد عليه الجبال والقرى.. حيث قامت جماعة «خيبان».. بتدمير رمز مقدس لدى أحد الأديان.. وهو تمثال «بوذا» الأكبر.. وهنا تحرك من تحرك وتجمهر من تجمهر.. واندفع البوذيون غاضبين.. وثار العالم كله ضد المسلمين.. مع أن المسلمين العقلاء.. من هذا الفعل الأحمق أبرياء.

- يا أستاذ سعيد باي باي.. أناْ واحد ممن يحبون سماع ألحان الناي.. لأنها تطهر بالحزن الأرواح.. وتبعد عنها صور الأشباح.. وقد حزنت حقاً حين علمت أن «بوذا» الأكبر.. قد تحول إلى شظايا وتبعثر.. ولكني أود أن أسألك الآن.. عما جرى في بعض مدن الرومان.. فأرجو أن تجيب صراحة.. لأن الصراحة راحة.

★ اعذرني.. فلن أتحدث في هذا الموضوع.

- لماذا؟.. هل هو ممنوع؟

★ لا.. ولكني لا أحب الخوض في السياسة.. لأن مستنقعاتها مليئة بالنجاسة!.

- وماذا تفعلون الآن؟

★ هناك من يدفعه الجوع إلى القتل.. وهناك من يموت من قلة الأكل.. وهناك من يحاول أن يعيش.. ولهذا يزرع الأفيون والحشيش!

.. ضحك المجنون فاغتاظ منه سعيد باي باي.. وقال له: لماذا تضحك؟.. صحيح إنني في حماية جنود الرومان..لكن الرومان موجودون في كل مكان.. ويتحركون في كل الأوطان.. وإذا كنت قد اعترفت لك بأني سعيد باي باي.. فإن كل الجيران يعيشون في الباي باي..بوجوه خائفة مذعورة.. لأنهم يجلسون على الكراسي المكسورة..خائفين من إمبراطور الرومان.. «مهبوش» بن سكران.. وفي لمح البصر.. اختفى سعيد باي باي.. بعد أن قال بصوت ناعم ومنغم.. سلام لم.. يا مجنون.. سلام لم.



١٤

ريّال يكسر النيون .. بعد أن أحرق الدوبي البنطلون!

في الدوحة وبالتحديد.. في حي الهتمي الجديد.. يقيم المجنون منذ زمن بعيد.. وقد خرج يوم أمس.. بعد غروب الشمس.. وذهب إلى دكان «الدوبي» البائس.. لكي يتسلم ما عنده من الملابس.. وما إن اقترب المجنون من الدكان.. حتى وجد دوائر من الدخان.. وسمع أصوات هواش .. وأدرك أن صوت الدوبي قد انحاش.. وهو يواجه غضب زبون سمين.. بعد أن أحرق له الدوبي بنطلونه الغالي الثمين.. وأخذ الزبون يعدل شاربه المفتول.. وهو يهذي بما يقول:

أحرق الدوبي قماش البنطلون
فتهاوشت.. وكسرت النيون
وتعالت من هواشي صرخات
كلها تعلن عن سخط الزبون
بنطلوني الآن قد أصبح ذكرى
كيف أحيا الآن دون البنطلون!
كشخة كان.. فأضحى كشرة
وسأبكيه على مرأى العيون!

..حمل المجنون ثيابه.. وترك الريال يبكي ما أصابه.. ويغني ظلموه.. وفاتوه ونسيوه.. واقتربت أقدام المجنون في المساء.. من مستشفى الولادة والنساء، واندهش تماماً عندما استمع لطفلة صغيرة.. تروي حكايتها الغريبة والمثيرة.. حيث جلست في بطن أمها تسعة شهور.. ثم خرجت لكي ترى النور.. فاكتشفت أن أباها لا يحب إنجاب البنات.. خصوصاً وأنه قد أنجب غيرها بنات كثيرات.. ولهذا أخذت الطفلة الصغيرة.. تتكلم بنبرات كسيرة:

جلست ببطن أمي في انحناء
لتسعة أشهر آلت لانقضاء
وشفت النسا لما أخرجوني
بمستشفى الولادة والنساء
وحين خرجت قالوا: جاء Baby
بوجه مشرق رغم البكاء
وناجتني ممرضتي بصوت
فلبيني.. يبرطن في الأداء
ولفتني بثوب فيه خنه
فزدت من البهاء على بهائي
وأمسكني الأقارب باهتمام
وأمطرني الأحبة بالثناء
ولما قيل إني جئت بنتاً
وجدت أبي يولول كالنساء
وينظر لي بضيق وازدراء
ويصرخ: أرجعوها للوراء
فهل يا ناس يندري بحالي
ووين الحب يا أهل الوفاء؟

ولـــيش الأب يتطنـــز ويبعـــد

كأن البنـت رمـز للـبلاء؟!

.. حزن المجنون مرتين.. مرة حين أصبح البنطلون أثراً بعد عين.. ومرة ثانية.. حين شاهد النظرة القاسية.. يسددها أب نحو ابنتـه.. مؤكـداً أنهـا سـبب محنتـه.. وهنـا أراد المجنون أن يستريح..فقرر أن يركب بساط الريح.. لكن النزهة في الفضاء.. أضافت إليه رصيداً أكبر من الشقاء.. حيث شاهد قاعة فخمة كبيـرة.. تتجـاور فيهـا أجسـاد بشـرية كثيرة.. فتصور المجنون أن أصحابها هم أهل الكهف.. خصوصاً أن عيونهم جاحظة من رعب ومن خوف.. فأدرك المجنون أن الغاز.. قد تسبب في أسوأ إنجـاز.. حيـث بـدت وجوه الناس في القاعة.. متجمدة ومذعورة ومرتاعة.. بعد أن استنشق الجميع هذا الغاز اللعين.. فحاق بهم هذا المصير المؤلم الحزين.. ورأى المجنون رجالاً آخرين.. سقطوا متجمدين وممتقعين.. وقد وضعوا أقنعة خضراء.. يؤكدون بها أنهـم شـهداء.. وسـمع المجنون صوت رجل عاقل.. يؤكد أن ما قيل هو قوله حق يراد بها باطل.

وفجأة.. تمدد في الصمت صوت:

★ ماذا تفعل هنا يا مجنون؟

– وماذا تفعل أنت هنا يا نيرون؟

★ أريد أن أعرف نوع هذا الغاز.. وهل هو محرم دولياً أم مجاز؟

– وأنا متأكد أنك وراء ما جرى.. فأنت مشهور بإحراق المدن والقرى.

★ هل تستجوبني يا أيها المجنون؟.. ألا تدري بأني جلالة الإمبراطور نيرون.. وأن من حقي أن أفعل ما أشاء.. وما عليك سوى الطاعة العمياء!.

– أنا لا أستجوبك ولكني أكشف نواياك.. لأني أعرف حقيقـة أعماقـك وخبايـاك.. وأعرف أنك تريد ابتلاع الكرة الأرضية.. بما لـديك مـن قـوة عسـكرية.. حتـى وأنـت تتحدث عن جمال الديمقراطية!

.. دون أي إبطاء.. وضع المجنون على رأسه طاقية الإخفاء.. حتى لا يـراه نيـرون.. وأخذ يبتعد ببساط الريح في هدوء وسكون.. وصرخ المجنون: نيـرون في كـل مكـان.. وهو يتصور أنه أكبر قوة الآن!



١٥

جلالة الإمبراطور نيرون ..
يفتش عما لدى المجنون .. من المخزون!

قبل انعقاد مؤتمره الصحفي بدقائق.. جلس المجنون يتأمل ما في العالم من حرائق.. وكيف تنهال أعتى الصواعق.. على الأشجار الواقفة في الحدائق.. وسمع المجنون صوت خروف يقول: ماء.. ماء.. لكن المجنون لم يعطه ولو قطرة واحدة من الماء.. فتحول الخروف إلى ذئب.. ليس له أي قلب.. وأخذ يحاول الانقضاض على كل بيت.. وهو يصيح بأعلى صوت.. يا أيها المارقون.. أنا مبعوث جلالة الإمبراطور نيرون!

رن التليفون.. في بيت المجنون.. فرفع السماعة.. بكل وداعة:

- آلو.. من أنت؟

★ ألست أنت المجنون؟

- نعم.. ماذا تريد؟

★ أنا جلالة الإمبراطور نيرون.

- أي خدمة؟!

★ لقد قررت تشكيل لجنة كبيرة.. تفتش عما يدور في عقلك من نوايا شريرة.. خصوصاً وأني أعرف أنك قاتل.. وعندك ما عندك من أسلحة الدمار الشامل.. ولهذا أريدك أن تتعاون مع اللجنة.. حتى تنجو مما أنت فيه من محنة!

= لكني متأكد أنك أنت يا نيرون القاتل.. وأنك تتعمد خلط الأوراق والمسائل.. لكي توقع غيرك في بئر من المشاكل.

★ ما هذا الذي تقوله يا مجنون؟!

– يا نيرون.. أنت قتلت أمك ثم ذبحت زوجتك.. ولما أضعت بيديك هيبتك.. قمت بإحراق روما القديمة.. وأخذت تسأل عن مرتكبي الجريمة!

.. لم يرتجف المجنون.. من مكالمة نيرون..وخرج يتسكع في الطريق.. حيث سمع صوتاً أشبه بصوت غريق.. فأرهف أذنيه.. وفتح عينيه.. ليكتشف أن الصوت صوت ريال شيبة.. شكل ينبيء بألف عيبة وعيبة.. لكنه ريال من الأثرياء..ويريد الزواج من فتاة حسناء.. محاولاً إقناعها بالموافقة.. حتى لا تتعرض للملاحقة.. من الشبان الطائشين.. أو أن يتزوجها شاب متعلم لكنه فقير ومسكين.. وأخذ المجنون يستمع إلى الشيبة المختال.. بما لديه من أموال:

يا نظر عيني.. تعالي نتزوج

كي تشوفي الكون في عينيك أبهج

واعفسي الحب ودوسيه بجوتي

واكسري هذا التليفون المبهرج

كيف تبغين زواجاً من فقير

جامعات العلم قالت: قد تخرج

إنه ليس جديراً بفتاة

جسمها إيقاع سحر يتموج

وأنا لست عجوزاً يا حياتي

فأنا بالمال أصبى من تزوج

دفتر الشيكات في جيبي أحلى

من حديث القلب عن حب توهج

وسـأعطيك ألوفاً.. وألوفاً

فسـخائي - دون حـد - يتـأجج

أسرعي الآن لكي أهديك ما لي

قبـل أن يـأتي الـذي لا يتحـرج

أسرعي حتى تكوني زوجـة لي

قبل أن أشهد جسـمي يتـدحرج!

أنـت طبـي ودوائـي فتعـالي

إننـي الآن لقربـي منـك أحـوج!

.. هذا الزواج لا يجوز.. هذا ما قاله المجنون وهو ينظر إلى أنف العجوز.. فتأكد لـه أنه أكبر من الكوز!.. وواصـل المجنـون المسـيرة.. وهـو يحـس بقشـعريرة.. وفجـأة تمخض الصمت عن صوت كسر حاجز الصوت.. فـاهتز كـل بيـت.. ثـم هبطـت مـن السماء.. عصابة من القراصنة اللؤماء.. وكان في يد أحدهم خنجر مسـنون.. بينمـا كـان وجهه وجه شيطان ملعون.. وأخذ يقترب من المجنون ويصول ويجول.. وهو يقول:

- لقد سمعنا في بيتك صوت فرقعـة.. ونحـن نعـرف أنـك أنـت الـذي أثـرت هـذه الزوبعة!

.. تنبه المجنون أنه قد نسي فوق البوتاجاز.. وعاء فيه دجاجة من نوع ممتاز.. فقـرر الرجوع إلى البيت في الحال.. لكن الشيطان المحتال.. دخل البيت قبله ثم قال:

- لماذا تمتلك كل هذه السكاكين؟

★ لكي أمزق بها أفخاذ الدجاج السمين.

- لكن ما لدينا من حكمة وعقل.. يؤكد أنك قد تستخدمها في القتل!

★ قبل كل شيء.. قل لي من أنت؟.. ولماذا دخلت البيت؟

- ألا تعرفني يا مجنون؟!.. أنا مبعوث جلالة الإمبراطور نيرون.. جئت لألقي عليك القبض.. حتى لا تعيث فساداً في الأرض!



١٦

عبد الوارث ينطلق بسيارة حكومية .. من الموسكي لسوق الحميدية !

يروي المجنون الآن أغرب حكاية.. فقد كاد ينتهي أسوأ نهاية.. حين اندفعت خلفه بكل شموخ.. سيارة يتصور صاحبها أنها صاروخ.. وفجأة خفف السائق من سرعته.. ليحقق النجاح لخطته.. حيث أخرج يده من السيارة.. ورمى بسرعة ومهارة.. ورقة ملونة عليها عدة أرقام.. وشريط أغان لأحد مطربي الغرام.. لكن السيارة التي تضم عدة نساء.. تخلصت من الورقة والشريط بسخرية واستهزاء.. فأحس السائق بالحرج من فعلته.. وقرر أن يخرج من محنته..

وهكذا اندفع في حالة هياج.. ليبحث عن لعبة أخرى تعيد له صفو المزاج.. فأغلق زجاج السيارة.. وأخذ يتلوى ويحفص في الإشارة.. ويصول ويجول.. وهو يقول هذا الذي يقول:

في إشارات رمادا ضاع عقلي
فأذقت الناس من أطباق ويلي
كنت في السيارة الكشخة أبدو
مثل رامبو وعروق الطيش تغلي
ومن الكورنيش للملعب أهدي
كل مخلوق أمامي نار غلي

وإذا مـرت وجـوه ناعمـات
كـان إهـداء التليفونـات شـغلي
وشريط الحـب ألقيـه بلطـف
قـرب أيـديهن مزهـواً بفعـلي
فـإذا راقبـت إحـداهن تلقـي
بشريطي .. خر زهوي تحت نعـلي
كشخة لبسي وحلو غمز عيني
وبسحري.. حفظ الكورنيش شكلي
عائلات النـاس تلقـاني مـراراً
رائـع التحفـيص في الليـل المطـل
وإذا سابقت غيري في انطلاقي
يهـرب الكـل – بخـوف – ويـولي
حـاملاً ذرات رمـل وغبـار
كلهـا هبـت لكـي تعلـن فضـلي
هل رأيـتم عبقريـاً فيـه بعـض
من ذكـائي يحسـن التـدبير مـثلي؟
أيها الناس تعالوا واشـهدوا لي
فأنـا الأول في طيشـي وهـزلي!

.. أصيب المجنون بحالة رعب، وانخلع منه القلب، وهو يرى ما يرى من تحفيص، ونظراً لأن المجنون دائماً حريص، فإنه ركب بساط الريح الـذي أهـداه إيـاه العفريـت، وطار وطارت معه علبة سجائر وكبريت، وفي الفضاء استمع المجنـون لأغنيـة قديمـة، كانت تثير فيه الهمة والعزيمة:

م الموسكي لسوق الحميدية

أنـا عارفـه السـكة لوحديـة

.. أطل المجنون على الأرض من الفضاء، فرأى أنهـاراً ولكنهـا حمـراء.. لأن مياههـا دماء.. ورأى سيارة حكومية، تندفع بسرعة جنونية، أما من فيها فكانوا يـؤدون حركـات تمثيلية، وهم يغنون «م الموسكي لسـوق الحميديـة».. ولم يستطع المجنـون أن يـدقق النظر، فتصور أن السائق هو الفنان عبد الوارث عسر، وأنـه يريـد الـذهاب إلى سـورية، لإقامة أحد العروض المسرحية، لكن المجنون تذكر أن عبد الوارث قد مـات، ولم يعـد يستطيع القيام بما كان يؤديه من حركات!

تمعن المجنون في السيارة الحكومية، فأدرك أنها تخالف كل القواعد المرورية، وأن السائق يتمتع بأعصاب باردة، كما أن الأجواء السائدة، تتيح لـه أن يتحـرك كمـا يشـاء، خصوصاً أن عيون الذين معه تبـدو عميـاء، ومـن بعيـد سـمع المجنـون صـوت أحـد الشعراء.. ممن هاجروا من الشام إلى مصر.. وهو يقول بانفعال ويصر:

«كل قوم.. خالقوا نيرونهم

قيصر قيل له أم قيل كسرى»

أخذ المجنون يفكر فيما قاله خليـل مطـران.. بصـوته الحـزين الغضـبان.. وفجـأة ترددت في الأجواء.. كلمات تكشف سر الداء:

«كلمتين يا مصر يمكن هما آخر كلمتين

حد ضامن.. يمشي آمن

أو مآمن يمشي فين؟

قصرك المسحور.. غيلانه

أغبى من دود الغيطان

بعد مص الغصن الأخضر

ينحتوا عضم العيدان

واللي خلا الأرض خضرًا

واللي خلا الدار أمان

عاش بجوعه ملو جوفه

مات بخوفه م الغيلان..»

وسط الزحام شاهد المجنون متفرجين كثيرين، وهم يصفقون مهللين، بينما كان أحد الحكماء المخضرمين، يصرخ في قاعدة جامعة أجنبية.. محاولاً إنقاذ غزالة جميلة، اسمها بهِيَة.. وهو يؤكد «بصراحة».. أن الغزالة محتاجة لجراحة.. وأن المستقبل الآن.. لا يتطلب أي تهاون أو هوان!





عنترة بن شداد ...
ينهض من الرماد .. بعد طول رقاد

هو فارس شجاع ونبيل.. وفضلاً عن هذا فإنه شاعر عربي جميل.. وقد غاب هذا الفارس الشاعر منذ عدة قرون.. ولكنه ظل يعيش في قلوب الذين يتذكرون.. وبأشعاره يترنمون.. وبوفائه لابنة عمه يتأثرون.. وفجأة شوهد الفارس الشاعر وهو ينهض من الرماد.. بعد طول رقاد.. تماماً مثلما يفعل طائر الفينيق.. حيث يحرق جسده العتيق.. ليخرج من الرماد ممتلئاً بالحيوية.. بفضل روحه المتجددة الحية.

من مظهره المهيب..ولونه الأبنوسي العجيب.. أدرك المجنون أن الرجل الذي ينهض من الرماد.. لابد أن يكون عنترة بن شداد.. فاندفع نحوه المجنون بكل ثقة واعتداد.. وحاول أن يقبل يده من فرط الزهو والطرب.. لكن عنترة أفشل المحاولة بأدب.. وقال للمجنون إن على أبناء العرب.. ألا يقبلوا الأيادي.. وإنما عليهم أن يمزقوا أجساد الأعادي!

اطمأن عنترة على وجود سيفه بجواره.. وانطلق على الفور كي يبحث عن أهله ودياره.. وحاول أن يتذكر دار «عبلة».. وكيف كان يتشوق إليها كل ليلة.. وطلب المجنون من عنترة أن يسير معه.. لأنه يحبه ويريد أن يتبعه.. ورحب عنترة بالمجنون.. لكنه حدثه بما في نفسه من ظنون..

★ أين سيفك أيها الفتى العربي؟

- يا سيدي.. بكل أسف.. ليس عندي سيفٌ!

★ أهذا معقول؟.. ما هذا الذي تقول؟.. لابد من وجود السيف.. لحماية العرض.. وصون الحق والأرض.. كيف تحمي عيالك دون سيف.. وكيف تواجه ما قد تواجه من عنف.. وكيف ترد كيد الأعداء.. إذا أقبلوا في الليلة الظلماء؟.. لابد من وجود السيف.

- لدينا من السيوف.. بدل الواحد ألوف.. ولكنها لا تستعمل إلا للزينة.. وكثيرون الآن يفاخرون بما لديهم من سيوف الزينة.. مادامت سيوفاً ثمينة!.

.. ضحك عنترة ضحكة زلزلت الصخر.. وقال بكل ثقة وفخر.. أما أنا فلن أنزع عني هذا السيف.. في برد الشتاء أو حر الصيف.. السيف صديقي.. السيف رفيقي.. وبالقرب من دار عبلة تأمل عنترة ما أمامه.. مما أثار دهشته واهتمامه.. فقد شاهد وجوهاً أجنبية غريبة.. يرتدي أصحابها ملابس غريبة.. وهم يحملون أشياء غريبة.. تبدو كالسيوف.. لكنها ليست بسيوف.

بعد دقائق وجد عنترة والمجنون رجلاً عربياً يقترب منهما.. وبعد أن سلم عليهما.. دعاهما إلى داره ليشربا القهوة.. ورحب الإثنان بالدعوة.. ودخلا ليجدا ما يعرفه المجنون وما يجهله عنترة.. حيث وجدا ضيوفاً يجلسون.. وبعيونهم يتأملون.. ما يرون على شاشة التلفزيون.

ما أعجب التلفاز من متكلم
يأتيك بالخبر الذي لم تعلم
الشاشة البيضاء تنبض حية
وكأنها وجه تورد بالدم
يا ليت عبلة في جواري كي ترى
ما قد أتاح العلم بعد تقدم
صار البعيد بقربنا فأمامنا
كل العوالم في جهاز محكم

إني أرى قنـــوات دش أقبلـــت
وتزاحمت في الجـو بـين الأنجـم
وأرى وجوهاً رتبـت مكياجهـا
وأرى نســـاء دون أن تحشـــم
وسعار«جهـاز» أحمـق يلهـو بنـا
وضـجيج ألسـنة بغيـر متـرجم
وبقرص ليزر تبدأ الحرب التـي
لا تتـرك الأطفــال دون تيـتم
الحـرب صـارت لعبـة لمقـامر
أو جـــائر أو طــامع في مغـــنم
الحرب صارت لعبـة ووقودهـا
أجســاد أهلينـا بكـل مخـيم
وقوافـل التعسـاء تعبـر دجلـة
والنيـل يبـدو كالضـرير الأبكـم
ويظـل مـن يتفرجـون كـأنهم
يتنزهـون عـلى ضـفاف جهـنم!
إني أرى مكر اليهـود وغـدرهم
ووعيـد هولاكـو بصـبح مظلـم
«هلا سألت القوم يا ابنة مالـك
إن كنـت جاهلـة بمـا لم تعلمـي»
كنـا نقاتـل خصـمنا بشـجاعة
ويذوق طعم العـار مـن لم يقـدم

والآن.. والحرب التي لن تنتهي

يطغـى جنـون لهيبهـا المتضـرم

الآن.. نـاموا يـا أذلـة عصـركم

بعيون من سعدوا بشرب العلقـم

إني برئـت مـن المذلـة صـارخاً

صوني ترابك «دار عبلة واسلمي»



١٨

عنترة بن شداد ..
يواجه أسراب الجراد .. بكل ثقة واعتداد

لولا أنه يحب أن يترك الـدموع للنسـاء.. لكـان عنتـرة قـد أجهـش بالبكاء.. بعد أن أدرك أن عصره الذي ولد فيه.. أجمل ألف مرة مـن هـذا العصر الكريه.. فقد كان الإنسان العربي يسعى لنجدة أخيه.. وإذا وقـع في مكروه فإنه كان يحميه.. لأن الناس كانوا يهبـون لنصـرة المظلـوم.. وإغاثة الضعيف والمحروم.. أما هذا الزمـان الـذي يـراه عنتـرة.. فهـو زمان الهوان والمسـخرة.. وكـل إنسـان.. يحـاول أن ينقـذ نفسـه مـن الطوفان.. ولا يمد يده لمساعدة غريق.. حتى لو كان أعز صديق!

على الرغم من إعجابه بتقدم التكنولوجيا والعلوم.. أحس عنترة أنه يحمل جبالاً من الهموم.. وفجأة سمع هو والمجنون موسيقى ضحكات.. فتطلعا حولهما ليجدا عدة فتيات.. كلهـن بيضـاوات وشقراوات.. وكلهن أجنبيات يرتدين بنطلونـات.. بعضـها ضـيق ومزخرف.. وبعضها واسع ولامع ومهفهف.. وبرشـاقة الغـزال.. اندفعت إحداهن في الحال.. وفتحت ذراعيها لتحتضن المجنون.. بينما اندفعت فتاة بغير جفـون.. وتهيـأت لتقبيـل عنتـرة.. فـدفعها بعيداً وهو يصرخ: ما هذه المسخرة؟!

طرقعت الفتاة قطعة من اللادن أو اللبان.. وقالـت وهـي تجـز على الأسنان:

- يا مستر «أنتر».. ما هذا الذي به تتبختر..؟

- إنه سيفي أيتها الغانية.. وهو رفيقي في مواجهة القوى الباغية.

- إذا لم يكن قد وقعت في خطأ أو سهو.. فإن ما أعرفه جيداً أن السيف الآن للهو.. فإذا كنت تحمله للهو فأنعم بالأمان.. ومن حقك طبعاً أن ترقص به مثلما يفعل الفرسان الآن!

- اغربي عن وجهي.. حتى لا يزداد لك كرهي.. إن السيف لنصرة الجار.. وحماية الأرض والدار.

هزت وسطها إحدى الفتيات الشقراوات.. وقالت إن ما يقوله عنترة مجرد «عنتريات».. فزمجر عنترة وقال بغضب: إن سيفي ليس من ذهب.. لكنه يقاتل دفاعاً عن أرض العرب.. وجذب عنترة المجنون بشدة..وقال له أتعرف لماذا كل هذه الحدة؟.. سأقول لك ما أعرفه بكل وضوح.. وهو أمر لا يحتاج لشروح.. ولن أقول لك سوى احذر كيدهن.. فكلهن جميعهن.. يعملن مع الأعداء.. حيث يقمن بالتجسس علينا بكل دهاء.

فجأة أحس عنترة بالشوق لعبلة.. وتذكر كيف كان يشتاق لها كل ليلة.. فانطلق إلى الشعر.. ليداوي به قلبه بعد طول صبر:

أرنو لعبلة لا أحب سواها
وإذا اندفعتُ إلى الوغى.. ففداها

«وأغض طرفي ما بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها»

والسيف في كفي يبارك خطوتي
ويعيد لي حقي إذا ما تاها

السيف جسر لاستعادة مجدنا
إن ضاقت الدنيا بمن يحياها

والحرب ليست نزهة خلوية
لكننا إن أقبلت نغشاها

ما أجبن الفرسان إن لم يقبلوا

أو أقبلوا متجنبين لظاها

حرية الإنسان ليست منحة

تُهدى لمن يتصاغرون جباها

«ولئن سألت بذاك عبلة أخبرت

أن لا أريد من الحقوق سواها»

حاول المجنون أن يخفف عن عنترة ما اعتراه.. فقال له: لو سمعتك منظمات حقوق الإنسان لقالت: الله.. الله.. فأنت بالفعل تحب الإنسان.. وتحثه على رفض الذل والهوان.. ولم يهتم عنترة بالمديح.. بعد أن تغلغل ببصره في الأفق الفسيح.. فوجد أسراباً من الجراد.. تتشبث بالزرع بكل عناد.. وتنقض على الحصاد.. كأنها والشيطان على ميعاد.

حمل الهواء صرخات مذعورة.. أطلقتها حناجر مقهورة.. فانطلق عنترة بكل قوة.. وحاول المجنون أن يستعيد بعض ما كان من الفتوة.. فانطلق هو أيضاً معه.. حريصاً كل الحرص أن يتبعه.. وصاح عنترة بأعلى الصوت.. فليسقط حائط الصمت:

«لما رأيت القوم أقبل جمعهم

يتذامرون كررت غير مذمم»

يدعون عنتر.. والجراد بحقده

يلقى مواسم خصبنا بتجهم

هيا انهضوا.. أنتم من الأرض التي

لم تنكسر يوماً ولم تستسلم

هذا الجراد خرافة وهمية

سيزيحها الفرسان عند المقدم



١٩

عنترة يمشي مرفوع الرأس .. بعد أن بدد غيوم اليأس

لم يكن الليل قد أقبل.. لكن كثيرين أحسوا أن كل شيء يوشك أن يتزلزل.. وهكذا تجمعت غيوم اليأس.. لكي تحجب نور الشمس.. ولكي ينسى اللاهون ما يجري انطلقوا إلى الكأس.. وصرخ المذعورون: ما هذا اليوم النحس؟! ورأى الجميع أسراب الجراد.. تهبط من السماء التي صبغتها بالسواد.. لكي تنقض على الأشجار في كل البلاد.. وتستثمر لصالحها موسم الحصاد.. وأخذ الجراد يلتهم الزرع بشراهة.. بينما كان قليلون يراقبونه بكل بلاهة.. أما الذين أضناهم التعب..وتشوقوا لجمع القطن وقطف العنب.. فقد استبد بهم الغضب.. فتأكد لعنترة أن هؤلاء هم العرب.. وأن الوقوف معهم لا يحتاج لتبرير أو سبب.

ضحكت جرادة غريبة وهي تقول لصديقها الخفاش.. هؤلاء الناس أوباش.. ولابد من قتلهم أو رميهم داخل الكهوف والأحراش.. واستمعت الجرادة للخفاش، وهو يقول: لا تهتمي بهم فليس فيهم من يصول ويجول.. المهم أن يكون الفساد بينهم في ازدياد.. حتى ننقذ أنفسنا من الركود والكساد.. والآن يا جرادتي الجميلة.. أريد منك قبلة طويلة.. ما دمنا قد قضينا على بعض الأشجار المثمرة والظليلة.. وجعلنا أعناق الذين يضايقوننا ذليلة.. وفي الحال اندمجت الجرادة والخفاش في عناق محموم.. لكنهما

تنبها بسرعة عندما استنشقا رائحة سموم.. واندفع نحوهما حجر.. وبعده تطاير من عيني عنترة الشرر.

قال عنترة للمجنون.. فلنتحرك معي لمواجهة الجراد الملعون.. من أجل نصرة كل والد ومولود.. أنا أقاتل.. إذن أنا موجود.. فاستوقفه المجنون وقال: لكن غيوم اليأس تغمر أجواء القرى والمدن والجبال.. فانظر يا عنترة إلى السماء.. فما كان من عنترة إلا أن أشهر سيفه في الهواء.. وأخذ يلوح به دون إبطاء.. مؤكداً أن ليس في السماء غيوم يأس.. وإنما هي في كل نفس، تستسلم لما يواجهها وما تعاني منه من بؤس.. إن الغيوم ليست في الآفاق.. لكنها تتحرك في الأعماق.. وعلى كل من يشتاق.. للفرحة بالخضرة والنور.. أن يوقظ قلبه الجسور.. حتى يعانق الحياة.. وهو يواجه الشر الآتي من أي اتجاه.. وفجأة سمع عنترة والمجنون.. صوتاً قادماً من وراء القرون.. وتخيل المجنون أن الصوت صوت المتنبي وقد عاد.. كما تصور أن أرواح الأجداد.. تريد أن تعيد للأحفاد.. بعض ما فقدوه في أزمنة الفساد والكساد والرماد.. وهكذا انطلق الصوت.. ليدك أسوار الصمت:

أين العروبة.. لا عز ولا همـمُ
ولا إخاء به صدق ولا ذمـمُ

الغول مندفع بالشر يحمله
وما لديكم سوى صمت هو العدم

أغايةُ الصمت أن ترضوا جبابرةً
يا أمة طمستْ أعماقَها الظلـمُ

إطراقة الذل لن تحمي جماجمكم
فكلكم ورق تلهو به حمم

وكلكم في يد الطاغوت لعبته
مهما خنعتم فإن الكل متهم

مواكب العار في الإعصار مطرقة

وفي انتظـار نـداء الغـول تـزدحم

شوهد عنترة والمجنون يتقدمان.. عنترة والسيف في يده عنفوان.. والمجنون في يده وردة من شقائق النعمان.. وحولهما كان حشد من الفرسان الشجعان.. يتهيأ لمواجهة الجراد الجبان.. وفجأة ضحك المجنون من أعماق القلب.. كأن الحب قد عاد له رغم الشيب.. فالتفت عنترة نحوه بكل وقار وسأله: ما يضحكك أيها الفتى المهذار..؟ .. فضحك المجنون مرة ثانية.. وأشار إلى بقعة نائية.. فأدرك عنترة أن الجرادة والخفاش.. واقعان على الأرض دون حركة ولا ارتعاش.. وأنهما في حالة إعياء.. بل في شبه غيبوبة وإغماء.. وأن حالتهما تدعو للرثاء.. وهذه مهمة الشعراء المرتزقة الأجراء.

ضحك عنترة كما يضحك البسطاء.. وقال للمجنون إنه ليس من هذا النوع من الشعراء.. أما المجنون فقد أكد حبه لعنترة.. خاصة أنه ممن يعفون عند المقدرة.. لأنه عربي أصيل.. وفارس شهم نبيل.. وهنا رفع عنترة الرأس.. بعد أن بدد غيوم اليأس.. من أعماق كل نفس.. وقال وهو ينطلق تحت الشمس:

سقط الذين سقوطَهم أتوقـعُ

وثمار أرضـي في الربيـع ستطلعُ

إني من الأرض الأبية فـارس

يحمي الحمى ويُبيد من قد يطمع

سأظل أهتف يا عروبة أقدمي

والسيف في كفـي ضـمير يسـطع





٢٠

الجبناء يعتصمون بجبل السكوت .. تاركين من يموت يموت

لم يعد أحد يصدق ما تراه عيناه.. فالعاصفة الجامحة تتحرك في كل اتجاه.. والأمواج السوداء تقترب من الشطآن.. وتتجمع من أقصى مكان.. لتتحرك في هيئة طوفان.. ومن قلب الأمواج خرج أخطبوط رهيب.. وأخذ يلتف بأذرعته على كل من هو قريب.. والغريب أن هذا الأخطبوط الرهيب.. يستطيع أن يمشي بسرعة عجيبة.. وبإمكانه أن يطير في الجو بأجنحة مريبة.. أما الجواد فقد أعلن بكل عناد.. أنه لن يغتصب موسم الحصاد.. وإنما يريد أن يحرره من قبضة الجلاد.. لكي يهديه إلى كل الناس.. بشرط ألا تكون في أفواههم أضراس.. حتى لا يخدعهم الوسواس الخناس!

أغلق الجبناء أفواههم بالشمع المختوم.. ثم حملوا معهم ما هو مجهول وما هو معلوم.. وأخذوا يعتصمون بجبل السكوت.. تاركين من يموت يموت.. دون أن تحمر وجوههم من الخجل.. لأنهم لم يفكروا في أي عمل.. فبادرهم صوت شجاع.. وهو ينطلق بكل اندفاع.. ما طار طير وارتفع.. إلا كما طار وقع.. أما الذين آثروا السلامة.. فقد تمنوا للأخطبوط طيب الإقامة.. وقام بعضهم بإشعال النار.. لكنها امتدت إلى أجمل الأشجار.. ولم يعبأ الأخطبوط بهم أو يهتم.. وإنما طلب منهم أن يأتوه بكأس الدم.. واستحسن المنافقون بالطبع ما طلب.. وقالوا له بكل خشوع

وأدب: إن طعم الدم لذيذ.. بل إنه ألذ من النبيذ!

كان عنترة بن شداد.. نائماً بعد ليلة، أرقه فيها السهاد.. فأيقظه المجنون من الرقاد.. وروى له ما يدور وما يجري.. وحدثه عن السم الزعاف الذي يوشك أن يسري.. فتساءل عنترة بحدة وغضب.. وأين هم العرب؟.. ألم يكونوا يفاخرون بنصرة الجار.. ويقفون في وجه من جار؟.. أليس لديهم سيوف؟.. أم أنهم أصبحوا مجدوعي الأنوف.. وصرخ عنترة بن شداد.. وهو يمسك سيفه باعتداد:

هل أصبح الإذعان نجم الموسمِ
أم هل شربت الكاس قبل تندمِ
يا دار عبلة.. للشروق تطلعي
رغم احتدام النار أو سيل الدم
لا تعبئي بالناظرين وصمتهم
فالناظرون إليك.. كلهم عمي
لم يرفعوا سيفاً فيرفع شأنهم
أو ينجدوا طفلاً بأرض مخيم
لم يعرفوا الطاغي من المظلوم مذ
سيقت خطاهم في الطريق الأشأم
أو يبصروا شمس التآخي فوقهم
فتدحرجوا في قاع ركن معتم
يا ليتهم خبروا الزمان فلم تصم
أشواقهم عن خطوة لتقدم
لكنهم - احسرتا - خافوا فلم
يُكتبْ لهم غير اجترار العلقم

دفعــوا فــواتير الشــراء مقــدماً
وتــدافعوا شــوقاً لأخيــب مغــنم
حسبوا الطعام يفيـدهم ويعيـدهم
في الليــل شــبانا بملهــى الأنجــم
فـإذا الطعـام شـرائح مـن جيفـة
والســم يســري في نخـاع الأعظـم
وبقــرب تمثـال الغــرور ترنحــوا
وهمــو جلــوس في نعــيم جهــنم!
ليظــل مــنهم مــن تلــذذ بــالأذى
ويظل منهم مـن بـوحش يحتمـي
ويظــل مــنهم مــن يــراقص ظلــه
ويطيــل رقصــته إلى أن يرتمــي!
أمـا أنـا.. فقـد انطلقـت ملوحـاً
بالسيف في وجـه اللئيم المجـرم
ومعي رجـال مـن سـلالة يعـرب
لم ينحنــوا.. وإليــه كــل ينتمــي
« ولقد شفى نفسي وأبـرأ سـقمها
قيل الفوارس: ويك عنتـر أقـدم»
وحصانيَ المشتاق يصـهل جائعـاً
للنصــر.. لم يرجــع ولم يستســلم
ولقـد لمحتـك والظـلام مخـيم
حولي ورفض الذل ينضح من دمي
فـوددت أن يصـحو النهـار لأنـه
آتٍ بوعــدِ زمانــكِ المتبســم



عنترة يسحق عقربة .. حاولت بوقاحة أن تصاحبه!

بكل شموخ، رفض عنترة.. أن يجعل من جسده العملاق قنطرة.. تعبر عليها مواكب العقارب.. لكي تبث السم في أجساد بعض الأقارب.. بل إنه سحق بإحدى قدميه عقربة.. حاولت - بكل وقاحة - أن تصاحبه.. حيث تغزلت بجسده البرونزي.. وقالت له: ما أجملك أيها الأسمر الديمقراطي.. وبعد قليل نعقت مجموعة من الغربان..فسقط على قفاه رجل جبان.. يتظاهر عادة بأنه قد أوتي الحكمة.. مع أنه دائماً يبحث عن قطعة لحم أو عظمة.. وقال الجبان بعد أن نهض واعتدل وقام..«ما بنا طاقة لامتشاق الحسام».. وبعد دقائق من الصمت المريض.. شاهد الناس وميضاً تلو وميض..ثم عرفوا أن بعض الذين كانوا يلهون.. قد احترقوا وهم يرقصون.. وعلى الرغم من شراسة الأخطبوط.. وقدرته الشريرة على الإمساك بكل الخيوط.. إلا أنه أدرك أنه أصبح في ورطة.. وأنه صار مثل القطة.. عندما تشتعل في ذيلها نار.. فتظل تصرخ وهي تجري من دار إلى دار.. وفي غضون لحظة، حملت الريح.. صوتاً أثقلته المعاناة والتباريح.. وعلى امتداد الصحارى والسهول.. أخذ هذا الصوت يرتفع ليقول:

«لا تصالح.. ولو قال من مال عند الصدام

ما بنا طاقة لامتشاق الحسام..

عندما يملأ الحق قلبك.. تندلع النار إن تتنفس

ولسان الخيانة يخرس

لا تصالح.. ولو قيل ما قيل من كلمات السلام

كيف تستنشق الرئتان النسيم المدنس؟

كيف تنظر في عيني امرأة..

أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟

كيف تصبح فارسها في الغرام؟

كيف ترجو غداً.. لوليد ينام

كيف تحلم أو تتغنى بمستقبل لغلام

وهو يكبر – بين يديك – بقلب منكس؟

لا تصالح.. ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام..»

صرخ المجنون بفخر.. هذا صوت صديق من أغلى أصدقاء العمر.. فسأله عنترة وهو شبه حائر.. من يكون هذا الشاعر؟.. إنه ليس من شعراء عصري الغابر.. فأجاب المجنون قائلاً: إن هذا الشاعر.. ممن عاشوا أوجاع هذا الزمن الحاضر.. وإن اسمه أمل دنقل.. وهو صاحب مقولة: لابد أن تقتل الطامعين فيك وفي أرضك حتى لا تُقتل.. فأكد عنترة وقد اكتسى وجهه بنور الرجاء.. أنه رغم وجود كثيرين من الجبناء.. إلا أن الأرض العربية تنجب الشرفاء.. سواء أكانوا من الشعراء.. أو من الناس الطيبين البسطاء.

فجأة فاحت في الجو رائحة خزامى وياسمين.. وحملت أجنحة النسيم برقة ولين صوتاً نسائياً عذب الإيقاع.. تسلل بنعومة إلى الأسماع:

«أنا – والله – أصلح للمعالي
وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وأمكن عاشقي من صحن خدي
وأعطي قبلتي من يشتهيها»

اغتاظ عنترة مما استمع.. وقال للمجنون: هل هذا وقت للدلع؟.. وسأله: هل تعرف هذه الشاعرة؟.. فأجاب المجنون إنها امرأة جميلة وساحرة.. واسمها ولادة بنت المستكفي.. وهي لا تستطيع أن تكتم ما في قلبها أو تخفي.. فاحتد عنترة قائلاً: هذا يكفي؟!! هل هذا وقت لتقبيل الخدود.. أم وقت للدفاع عن مجرد الوجود.. بعد أن استبيحت كل الحدود؟

رغم إدراك المجنون أن الظلمات مسمرة.. إلا أنه حاول أن يخفف الضيق عن عنترة.. لكي يستعيد روحه المستبشرة.. فقال إن ولادة ليست امرأة لاهية.. لكنها تحب أن تتباهى بأنوثتها الطاغية.. وقد أحبها ابن زيدون.. وتغزل فيها بشغف وجنون.. لكنها هجرته فأحس بلوعته العاشقون.. وتغنى بأشعاره المطربون.. خاصة وأنه كتب عنها أجمل القصائد.. وإن كانت قد تسببت فيما حيك ضده من مكائد.

حين عرف عنترة حكاية ولادة مع ابن زيدون.. تفتحت في قلبه أزهار حبه المكنون.. فاشتاق لوجه عبلة الحلوة.. وبسمتها الصافية المجلوة.. فطلب من المجنون.. أن يسمعه بعض ما قاله ابن زيدون.. ويبدأ المجنون الإنشاد.. في حضرة عنترة بن شداد:

الصد يبعدنا.. والشوق يدنينا
يا جنة الروح يا أحلى أمانينا

ماذا أقول.. وقد كانت لنا صور
على الضفاف وكان الحب يسقينا

كنا نغني ووجه البدر يؤنسنا
والأرض خضراء تهدينا رياحينا

والآن مذ أطلق الحساد أسهمهم
ولم يعد قلبكم يدري بما فينا

«بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

نكـاد حـين تنـاجيكم ضـمائرنا

يقضي علينا الأسى لـولا تآسـينا

حالـت لفقـدكمو أيامنـا فغـدت

سوداً.. وكانت بكم بيضاً ليالينا»

يا ليل قرطبة هل كنـت تحسـبها

يوماً ستنسى غرامـاً كـان يحيينـا

في قلب أندلس أصحو بلا وطـن

ولأدةُ أحرقـت بسـتان ماضـينا

ضلت خطانا مع الطوفان موقعها

لم تَبْـقَ تصـحبنا إلا مآسـينا

.. شرد ذهن عنترة مما استمع إليه ووعاه.. لكنه عـاد بسـرعة إلى اليقظـة والانتبـاه.. وقال للمجنون وهو يتصنع ابتسامة.. لم تحل لها على شفتيه الإقامة.. يبـدو أن الحـب.. أشبه ما يكون بالحرب.. ففيه من ينتصرون.. وفيه من ينكسرون.. كان الله في عـون ابـن زيدون.. وسامح الله ولادة.. على ما فعلته بقصد وإرادة.. وربمـا دون إرادة.. ويبـدو أن مآسينا العربية.. تتناسل كالنباتات الشيطانية.. ولكن الأكيـد.. أن الخطـر الآن شـديد.. انظر يا مجنون إلى الجراد.. كيف طغى وساد.. وانظر إلى الأخطبوط.. وتذكر أنه يطغـى لكي يتقي السقوط.. وفي النهاية فإني أسألك ولا أطلب منـك أن تجيـب.. طالمـا أنـك توشك على البكاء والنحيب.. كيف يمكن أن يأتي الربيع.. إذا لم يتنبه الآن الجميع؟!



زهير بن أبي سلمى ...
يتحول من مبصر إلى أعمى !!

لم يبـق عنـدي مـا أقـول.. هـذا مـا قالـه عنتـرة بعـد أن لفـه الذهول..وأدرك أنه قد يخسر الحرب.. عـلى الـرغم مـن شـجاعة القلب، فقد رأى أنه كلما قضى على مجموعة من الجراد.. جـاءت مجموعات أخرى بكل عناد.. بعد أن يغريها الفساد.. بأنه سـيترك لها موسم الحصاد.. وقال عنترة للمجنون: أين هم الناس؟.. هـل فقدوا ما كان لديهم من إحساس؟ لقـد كـانوا في الزمـان البعيـد.. يجتمعون على رأي واحد سديد.. فيذوق عدوهم بأسهم الشديد.. أما الآن.. فإنهم بدلاً من أن يصدوا الطوفان.. يحاول كل مـنهم أن يداري عاره وبؤسـه.. وأن ينقـذ نفسـه.. دون أن يفكـر في أقـرب الناس إليه.. ولهذا لن يفتح الله عليه.. ولن يفتح عـلى مـن تفرقـوا أجمعين.. طالما أنهم يتلاقون متباغضين ومتنابذين.. هؤلاء النـاس ليسوا أحياء، بل موتى.. تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى..ومهما قيل لهم واعتصموا بحبل الله.. تراهم يتفرقون في كل اتجاه.

بينما كان عنترة يتكلم.. محاولاً أن يخفـي عـن المجنـون أنـه يتألم.. شاهد المجنون قطتين تتشاجران.. إحداهما تبدو مثل شجرة عارية بلا أغصان.. والثانية تحب أن تـرقص ولـو مـع الشـيطان.. وبدأت القطتان تتبادلان الاتهامات.. وكل منهمـا تكيـل للأخـرى كلمـات حـبلى بـالافتراءات.. اخرسـي يـا مـن يحضـنك النسـر

الدموي.. اسكتي أنت يا من تتملقين الدب القطبي! وفي الحال حملت الريح صوت شاعر أندلسي.. يقول بصوت مأساوي:

«مما يزهدني في أرض أندلس

أسماء معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد»

دون أن ينطقا أية كلمات.. تبادل المجنون وعنترة النظرات..وتكدست فوق الظلمات ظلمات.. وهنا قال عنترة.. يكفيني ما رأيت من مسخرة.. آن لي أن أودعك..فليكن الله معك..

ترقرقت من عيني المجنون دموع.. وتحولت الدموع إلى شموع.. وعلى ضوئها الشاحب.. شاهد المجنون بوابة يفتحها رجل غاضب.. ودخل عنترة من البوابة العجيبة.. بينما خرج منها رجل تبدو ملامحه مهيبة.. لكنه يتعثر في مشيته.. وهو يحاول إزاحة جرادتين عن جبهته.. وأخذ الرجل المهيب يصيح.. ويتردد صياحه في الخلاء الفسيح:

«وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو

وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

وتضر إذا أضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثقالها

وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم

كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم»

.. على الرغم من توتر أعصابه المرتاعة.. استجمع المجنون بعض ما تبقى لديه من شجاعة.. وخاض في بحر من الظلام.. عساه أن يتعرف على من يدعو للسلام.. ويطالب

بعودة الوئام.. لكي يستطيع الربيع أن يعود.. بعد أن يحطم القيود.

★ يا عم.. إني أعرف جيداً ما تحمله من هم.. لكني أريد أن أسأل من أنت.. خصوصاً أني أعرف ما قلت.

- هل تعرفني حقاً يا ابني؟.. إذا كنت تعرفني فهذا سيخفف طبعاً من حزني.

★ أعتقد أنك شاعر قديم.. وإنسان حكيم..

ترى من أكون؟

.. رأى المجنون أن الجرادتين.. مازالتا واقفتين متشبثتين.. وأن جبهة الرجل لا تكاد تبين.. فأزاحهما دون هوادة أو لين.. وهنا رأى عينين شبه مغلقتين.. فقال بحزن: يا عم.. إن الرجل الذي أعرفه اسمه زهير.. لكنه..

وفي الحال قال الرجل للمجنون.. بصوت هادئ محزون: اسمع يا بني.. إن دعاة الحروب.. وزارعي الفتن والكروب.. لا يحبون من يدعون للسلام.. ولهذا يغرقون عيونهم بالظلام.. لقد كنت مبصراً.. وبمجرد أن قلت: «وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو» حطت على عيني جرادتان.. لكني أحمد الله أنك بجواري الآن.

قال المجنون: وأنا منذ صغري قد أحببتك.. وبالتأكيد فإني الآن قد عرفتك.. أنت الشاعر الكبير زهير بن أبي سلمى.. وقد تحولت من مبصر إلى أعمى لمجرد أنك جئت إلى هذا العصر.. فداهمك ما فيه من شر.. وصرخ المجنون: يا ناس.. يا من فقدتم الإحساس..زهير بن أبي سلمى.. تحول من مبصر إلى أعمى!..





المجنون يصعد إلى الجبل .. بعد أن تعلق بحبل الأمل

اليائسـون وحـدهم يغرقـون.. وإذا قـابلوا أعـداءهم فـإنهم يستسلمون.. ولذا فإنهم يرضون بحياة الذل.. ويـرون أنهـا أسـهل حـل.. أمـا الـذين يعشـقون الكرامـة.. فـإنهم يسـيرون في سـكة السلامة.. وحتى إذا قتلهم الأعداء.. فإنهم يموتون ميتة الشـرفاء.. بهذه الروح الأبية.. أخذ المجنون يصرخ في البرية.. ثم تعلق بحبل الأمل.. وأخذ يصعد الجبل.. بعد أن اصطحب معه زهير بـن أبـي سلمى.. الذي تحول من مبصر إلى أعمى.. وعندما وصل الاثنـان إلى القمة.. قال زهير: ما أعظم الهمة.. أما المجنون فقـال بعـد أن تبسم: هناك بالطبع فارق بين القمـم.. فهنـاك قمـم. لا تـورث إلا السقم.. وإذا تكررت فإنها تصيب الناس بالسأم.. وهناك قمم.. لا يتلاقى فيها إلا أصحاب الهمم.. لكي يواجهوا الظلم إذا احتـدم.. وليس لكي يبرئوا الذمم.

فجـأة.. هبـت ريـاح غاضـبة.. كـي تنـذر الأشـجار المترهلـة الخائبة.. بأنها ستقلعها دون إشفاق أو رحمة..لأن العشاق لم يجنـوا منها سوى صدمة بعد صدمة.. ولأن الأرض العربية.. لم تعد تقبـل حركاتها الاستعراضية.. وظلت الرياح تحتد وتشـتد.. وعـلى كـل الصـحارى والوديـان تمتـد.. وفي تلـك الأثنـاء.. جلجـل في كـل الأرجاء.. صوت شاعر عبقري.. يقول لكل إنسان عربي:

يسقط الخائب الجبان مهانا
حين يُرضى بجبنه الأوثانا
ويظن الخنوع طوق نجاة
وقيود العدا ندى وحنانا
هاهو الحق خيمة في خلاء
والأفاعي تطل.. والسم بانا
والجراد اللعين ينضح شراً
والخفافيش تقهر الأغصانا
مَن أنادي - يا رب - هل من سميع
فالأذلاء أغلقوا الآذانا
حين يصحو الإباء في كل قلب
عربي.. يواجه الطوفانا
تشرق الشمس عندنا من جديد
تصبح الأرض كلها مهرجانا
«وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العار أن تموت جبانا»

رفع زهير بن أبي سلمى رأسه.. وقال كمن يحدث نفسه.. معنى هذا أن الأرض العربية.. تواجه أخطاراً دموية..نتيجة للأطماع الأجنبية.. ونتيجة لأن النفوس الأبية.. مبعثرة كأنها أشلاء شظية.. يا للعجب.. إلى متى يظل العرب.. منقسمين على أنفسهم دون سبب. ألم يدركوا - بعد - أن الدنيا لمن غلب.. ألم يعرفوا أن الثعالب.. تحيط بهم من كل جانب.. وتستفيد من تفرقهم في كل خطوة.. وأن الحق دون قوة.. مثل المرأة الجميلة الطاهرة.. تتخطفها الأيادي الفاجرة.. ولهذا لابد أن يحميها فارس نبيل..

يجنبها البكاء والعويل.. ويدفعها لأن تعشق الحياة.. دون أن تطلق صرخة: آه. لعلك تتذكر يا مجنون.. أني قد قلت منذ عدة قرون:

ومن يبعد الطوفان عن خصب أرضه

يكرم.. ومن لا يتق اللطم يلطم

ومن لا يذد عن حقه بسلاحه

يحقر.. ومن لا يقبل الظلم يعظم

كانت الريح ما تزال تحتد وتشتد.. لكن المجنون نسي ما كان يحس به من برد.. لأن زهير بن أبي سلمى ذكره بسنوات العنفوان والمجد.. أما زهير نفسه فقد تنهد عدة مرات.. وقال: يبدو لي أن الأرض حبلى بالمفاجآت.. إني مؤمن بأن الطوفان مهما يحتدم.. لابد له أن ينهزم.. ولقد كنت أدعو دائماً للسلم.. لكن السلم لا ينسجم مع الظلم.. وإذا كنت قد فقدت نور عيني.. فإني أسمع جيداً بكلتا أذني.. إني أسمع أصواتاً بعيدة لكنها قوية.. تقول بكل حماسة وحيوية.. لا.. للحرب.. نعم للسلم والحب..

فرح المجنون بهذه الأصوات.. لكنه سرعان ما أطلق آهات.. فقد كان يتمنى أن تكون هذه الأصوات أصواتاً عربية.. أو على الأقل أن تمتزج الأصوات العربية.. بأصوات الآخرين من بني الإنسانية..

ربما تَحُولُ الأصوات البعيدة.. دون وقوع المكيدة.. هذا ما يتمناه المجنون.. وما يتمناه معه آخرون كثيرون.. من بينهم زهير بن أبي سلمى.. رغم أنه تحول من مبصر إلى أعمى.. وعلى العموم فإن المجنون يفكر الآن في طريقة.. تعيد لزهير البصر لكي يرى شمس الحقيقة.



٢٤

الإمبراطور طائش بن راعش..
يقتلع الحشائش ويرتكب الفواحش

قال المجنون لنفسه إن «المؤمن القوي خير من الضعيف».. وإن من يرى يميز بين العقربة والرغيف.. كما يستطيع بالطبع أن يميز بين الأصدقاء.. وبين سواهم ممن يواجهونه بالعداء.. لهذا رفض المجنون استسلام زهير بن أبي سلمى.. لواقع أنه قد أصبح أعمى.. فاصطحبه بكل هدوء وروية..إلى إحدى العيادات الطبية.. ودخل معه إلى غرفة عليها ستائر مسدلة.. وفيها أكد رجل يرتدي «بالطو» أبيض أنه سيحل المشكلة.. وبدأ عمله باسم الله.. ثم أمسك جهاز ليزر بكل انتباه.. وأخذ يحركه من اتجاه لاتجاه.. وبعد دقائق قليلة..نهض زهير بن أبي سلمى بقامته الجليلة.. وتحققت معجزة العلم الحديث.. بشكل فعال وحثيث.. حيث هتف زهير بصوت فرحان.. الآن —والحمد لله – لم أعد من العميان.

في الفجر تتراقص النسمات الجميلة.. وتطير الطيور من خميلة إلى خميلة.. ويصحو من النوم الناس.. رغم اختلاف الألوان والعقائد والأجناس.. لكي يستقبلوا الحياة بكل حب.. متمنين أن تظل الأرض لهم واحات خصب.. وأن تختفي من أجوائها أشباح الرعب.. لكن الفجر الجديد الذي أطل.. كان له مذاق الخل.. فقد ترددت فيه صيحات منذرة بالويل.. فصرخ زهير: ما هذا الذي أراه؟.. النار تندفع من كل اتجاه.. والغربان لا تكف عن النعيق..

ورياح الشر تجتاح الطريق.. انظر يا مجنون إلى السماء.. إني أرى أشباحاً سوداء.. تتلذذ بسفك الدماء.. آه.. أكاد أصاب بالحمى.. يا ليتني بقيت أعمى!

رغم اشتداد العاصفة القاصفة.. ورغم تأرجح أصحاب القلوب الخائفة.. ترددت بكل قوة.. كلمات أعادت المجنون إلى زمن المجد والفتوة.. فامتلأ قلبه بالحماسة والنشوة.. وبلحن السنباطي وصوت أم كلثوم.. انزاحت من القلب الهموم:

بغداد يا قلعة الأسود

يا كعبة المجد والخلود ... يا جبهة الشمس للوجود

سمعت في فجرك الوليد ... توهج النار في القيود

وبيرق النصر من جديد ... يعود في ساحة الرشيد

بغداد يا قلعة الأسود

قد آذن الله في علاه ... أن ينهض الشرق من كراه

ويرحل الليل من سماه

وتسطع الشمس من جديد ... من أمسنا الثائر البعيد

بغداد يا قلعة الأسود

.. ترقرقت على خدي زهير قطرات دموع.. وقال: لا ينبغي على الإنسان الركوع.. إلا إلى الله وحده.. فهو هازم الشيطان وحده.. وهو الذي يرسل جنده.. وبعد قليل طرح زهير أقسى سؤال: ما الذي أوصل العرب إلى هذا الحال؟.. وفي الحال تنحنح ثم قال:

«وأعلم علم اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غد عمي

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه

ومن لا يكرم نفسه لا يُكرم»

لم يشأ المجنون التعليق أو الإجابة.. حتى لا تغزوه سحب الكآبة.. فهو يدرك أن الحال لا يسر.. بعد أن مزج التزييف الخير بالشر.. وبعد أن استكان كل ذليل تابع.. لما

يقرره أصحاب المطامع.. لدرجة أن أحد الجبناء البلداء.. أخذ يستجدي الطامعين اللؤماء.. منذ أن وعدهم بأن يتحول من إنسان إلى فأر.. ينام قانعاً في أعماق الجحر. دون أن يميز الإنسان العبد من الحر.

التفتْ على زهير بن أبي سلمى أفعى الظنون.. فطلب من المجنون.. أن يشرح له ما كان وما قد يكون.. وهنا صرخ المجنون:

الجبن ينخر دنيانا مع الكـذبِ

فاحرس ضميرك واحمل راية الغضبِ

وقل لمن جبنوا لم يبق من أمل

يحيا به النـاس مـذ دنـوا لمغتصب

.. من كل الاتجاهات.. ترددت أصوات.. كلها تؤكد أن طوفان الطغيان يهدد إنسانية الإنسان.. في كل زمان ومكان . ولكي ينجح الناس في صد الطوفان.. لابد أن يدركوا معنى الكرامة.. وأن يتحولوا من الجبن إلى الشهامة.. أما إذا ظلوا جبناء.. ورضوا بأن يعيشوا أذلاء.. فإن الطاووس الذي يمشي بخيلاء.. وينظر للناس باحتقار وازدراء.. وهو الإمبراطور طائش بن راعش.. سيظل يقتلع الخضرة والحشائش.. ويرتكب ما يرتكب من فواحش.



٢٥

الجواهري والسياب والمجنون .. يستجوبون الغزاة الذين يؤسرون

فجأة وجد المجنون نفسه في قلب مدينة البصرة.. لكنه لا يتذكر بأية وسيلة أو بأية حيلة استطاع الوصول إليها.. ربما ببساط الريح وصل.. وربما طار إليها بجناح الأمل.. تحدرت على خديه عبرات.. لأنه كان مشتاقاً للقيا البصرة منذ سنوات.. وها هو الآن يعود.. ويتذكر كيف استقبله أهلها من قبل بالورود.. هو وغيره من الشعراء.. وقتها كانت الأرض ترتوي بالمطر وبالدماء.

اهتزت أعصاب المجنون.. لأنه شاهد شياطين الحمق الملعون.. تعربد في أرجاء السماء.. وبعدها يسقط على الأرض ضحايا أبرياء.. لكنه سرعان ما استطاع أن يتوازن.. لأنه وجد كل إنسان مع غيره يتضامن.. وأخذ المجنون يتجول . يتمهل أحياناً، وأحياناً يتعجل.. وتعجب حين رأى الناس يملأون الشوارع.. رغم كل ما ترتكبه الشياطين من فظائع.

★ يجب أن نتحرك يا أستاذ.. لا لكي نبحث عن ملاذ.. وإنما لكي نساهم في الإنقاذ.

- أنا دائماً لا أتأخر.. رغم أني في العمر منك أكبر.. أنسيت أني من النجف الأشرف.. وأني دائماً للفداء أتشوق وأتشوف؟

★ يا أستاذ.. إني أعرف قدرك.. وأعشق من كل قلبي شعرك.. لكن لابد أن نتحرك بسرعة من أجل البصرة.. لكي تظل قلعة عربية تحتضن الشعر والثورة.

.. استمع المجنون بانتباه.. وعلى الفور تحركت قدماه.. وأخذ يقترب من الرجلين.. بعد أن أدرك أنهما لابد أن يكونا شاعرين عراقيين.. وبعد أن اقترب منهما أكثر.. أدرك أن المفاجأة قد أصبحت أكبر.. حيث عرف أن الأستاذ هو شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري.. وأن من معه هو بدر شاكر السياب.

★ السلام عليكما أيها الشاعران الكبيران.. واعذراني إذا قلت إني مندهش من وجودكما الآن.. فما أعرفه أن أكبركما يرقد في دمشق، قرب مسجد السيدة زينب.. وأما أنت فمن المفروض أنك ترقد في مقبرة الزبير بالبصرة.

قال الجواهري وهو يعدل طاقيته الشهيرة:

- وعليكم السلام.. وإن كان السلام الآن غير موجود.. بسبب «العلوج» الذين تخطوا الحدود.. وجهك ليس بغريب.. لقد التقيت معك في مصر وفي قطر.. والآن أراك في البصرة.. ولكن لماذا تسير بغير سلاح.. لابد من السلاح لكي يتحقق النجاح في الكفاح.. خذ هذه البندقية.. وجرب أن تستخدمها ضد الوحوش الأجنبية. فرغم أني أكبر منكما فإني أحمل بندقيتين.. وكنت أنوي إعطاء واحدة لأول من تراه العين.. وها أنت أمامي.

هبط على الأرض كائن خفي.. له جسد مراوغ زئبقي.. أما الوجه فهو وجه غراب.. ودون أن يراه الجواهري والسياب.. همس في أذن الجواهري: إنك تقف مع مسلم سني.. وهمس في أذن السياب: أنت تتحدث مع مسلم شيعي.. وحين اقترب الكائن من المجنون، صفعه المجنون على قفاه.. فاندهش الجواهري والسياب مما شاهداه.. وسألا المجنون لماذا تحركت يداه.. فقال لهما: كنت أصفع الشيطان الأكبر.. لأنه ينفث السم ويتصور.. أنه لا يمكن أن يُقهر.

دوت على الأرض أصوات انفجارات.. وتهدمت بعدها بعض البيوت والمحلات.. فتعالت من كل القلوب تكبيرات.. الله أكبر.. الله أكبر.

الله أكبر فوق كيد المعتدي

والله للمظلوم خير مؤيد

قولوا معي.. قولوا معي..

الله أكبر فوق كيد المعتدي

ومن أرض لبنان.. حملت الريح صوتاً قوياً يرفض الخنوع والإذعان.. ويطالب العرب بالتصدي للطوفان.. وأخذت جوليا بطرس تصيح.. ويتردد صوتها في الفضاء الجريح!

«وين الشعب العربي.. وين؟

الغضب العربي.. وين؟

الشرف العربي.. وين؟

اللي جوه الضلوع

أقوى من الدروع»

تحرك الجواهري والسياب والمجنون.. بعد أن أقسموا أن تظل البصرة.. قلعة عربية حرة.. تحتضن الشعر والثورة.. وأخذ الجواهري يردد ما يحفظه من شعر المتنبي:

«على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم»

صرخ السياب بحزن مكسو بالغضب.. يا أستاذ.. أين هم العرب؟.. ثم تنهد وهو ينظر للمجنون.. لاعناً في العلن كل من يخون:

«إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون

أيخون إنسان بلاده؟

إن خان معنى أن يكون..

فكيف يمكن أن يكون؟

الشمس أجمل في بلادي من سواها والظلام

حتى الظلام أراه أجمل فهو يحتضن العراق

.. الريح تصرخ بي: عراق

والموج يعول بي: عراق.. عراق.. ليس سوى عراق»

وهنا قال المجنون للسياب.. أرجو أن تنسى الخونة والأذناب.. وتذكر أن هناك فرقاً بين العرب والأعراب.. وأن الخطر الوحشي يدق على الأبواب.. وعلى الفور قال الأستاذ:

حييت شعبك في حرب فحييني

يا دجلة المجد.. يا أم الميامين

حييت شعبك مقداماً يؤازره

جند من الله في وجه الشياطين

إني رأيت علوج الشبر ساقطة

في الناصرية.. هذا المجد يكفيني

.. اندهش المجنون وقال للأستاذ: يا أستاذ.. ماذا جرى في الناصرية؟.. إنها مدينة أصدقاء كثيرين لي مَن ذوي الهمة والحمية..طمئني.. أرجوك.. حتى لا تنغرس في صدري الشكوك.. قال الجواهري وهو يحتدم: الله على الناصرية.. فقد كنت في كربلاء قبلها بقليل.. حيث قابلت الفلاح العراقي الأصيل.. علي عبيد منقاش.. إنه لم يكن يحمل المدفع الرشاش.. وإنما بندقية قديمة.. ومع هذا فإنه أسقط بها أداة من أدوات الجريمة. وارتفع صوت الجواهري وهو يقول: علي عبيد منقاش أسقط طائرة أباتشي...قال لي حين قابلته لأحييه.. أتعرف أني كنت أحب أطباق الدولمة والمحشي.. أما الآن فإني أصبحت أتذوق أطباق الأباتشي!

وقال السياب للمجنون: ألا تعرف أيضاً ميسون؟.. إنها امرأة عراقية عظيمة.. وقد تصدت بـ «الآر. بي. جيه».. لأداة أخرى من أدوات الجريمة.. ميسون حميد عبد الله.. دمرت بعون من الله.. عربة مدرعة من عربات الغزاة.. وقالت لمن فيها وهم يهربون في كل اتجاه.. سترون يا أوغاد.. كيف ستستقبلكم بغداد.. وكل شبر من أرض البلاد.

أضاف الجواهري بسرعة: هناك عاصفة قاصفة.. أسقطت من الأباتشي اثنتين.. في أقل من غمضة عين.. كأنها تقول: ما بين غمضة عين وانتباهتها.. يغير الله من حال إلى حال.. فلنشكر الله تعالى.. ولنقرأ ما قاله سبحانه.. «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من

سجيل، فجعلهم كعصف مأكول».. صدق الله العلي العظيم.

مرة ثانية.. تحرك الجواهري والسياب والمجنون.. لكي ينظروا في عيون الذين جاءوا يغزون.. لكنهم وقعوا في الأسر.. فأدركوا أنهم ضحايا ما في قلوب قادتهم من غدر.. وما تمتلىء به عقولهم من شر.

قال الجواهري بصوت يحاول أن يتسامح: كيف الحال يا حضرات الأسرى شعب العراق سيعاملكم أولاً بسماحة الإسلام.. لن يطبق عليكم ما تستحقونه من إعدام. وهذا ما قاله وزير الإعلام.. محمد سعيد الصحاف.. فأرجو ألا يرتعد أحد منكم أو يخاف.. ولكني أسألكم: لماذا جئتم إلى العراق.. هل تصورتم أننا سنستقبلكم بالعناق؟

رد أحد الأسرى وهو يطأطيء رأسه من الذل.. نعرف أن لديكم الياسمين والفل.. لكنكم لا تهدونه إلا لمن يستحق..ونحن بالطبع لا نستحق.. والحقيقة أن قادتنا قد ضللونا.. فجاء أبناء العراق وأسرونا.

★ هل قدموا لكم الشراب والطعام؟

- نعم.. لكنهم رفضوا التحية والسلام!

★ لأنكم حاولتم أن تقدموا لهم الشر.. فكان أن سقطتم في الأسر.. وسنعيدكم لإمبراطوريتكم بعد أن يتحقق لنا النصر.

عاد الجواهري والسياب إلى البصرة.. إلى القلعة الأبية العربية الحرة.. أما المجنون فقد قبَّل كلاً منهما وعاد.. ليتابع أخبار تضحيات بغداد.. ورغم أن الجو تسكنه الغيوم.. فإنه طرب عندما تهادى إليه صوت أم كلثوم:

بغداد يا قلعة الأسود	يا كعبة المجد والخلود
يا جبهة الشمس للوجود	سمعت في فجرك الوليد
توهج النار في القيود	وبيرق النصر من جديد
يعود في ساحة الرشيد	بغداد يا قلعة الأسود



٢٦

ميسون .. تصافح باليمني المجنون .. وتقاتل باليسرى نيرون

تتكفل الشدائد بأن تفرز المواقف.. وتوضح الفرق بين الشجاع والخائف.. وبها يتميز الأصلي من الزائف.. ومن قديم الدهر.. يظل الخير يواجه الشر..وخلال المواجهة قد يحدث كر أو فر.. لكن الإنسان الصادق.. يظل واقفاً مع الخير بقلب واثق.. أما الإنسان النذل الخائن.. فإنه ينتظر أن يكافئه الشر على موقفه الشائن.

قال زهير بن أبي سلمى.. بعد أن شفاه الله من الحُمَّى.. يا مجنون.. من هو الإمبراطور طائش بن راعش.. الذي يقتلع الخضرة والحشائش.. ويرتكب ما يرتكب من فواحش؟.. ورد المجنون على الفور: .. إنه زعيم أكبر عصابات الشر..وهو يحمل أسماء عديدة.. لكنها في كل الأحوال ليست مفيدة.. فالناس عادة يبحثون عن الجوهر وليس عن الاسم أو المظهر.. فهو – أحياناً «نيرون».. وهو – أحياناً يتسمى «هولاكو» الجديد.. وأحياناً يقال له «الحجاج بن يوسف المبيد».. ويقال له أحياناً «هتلر».. وأحياناً هو «شانئك الأبتر».. ومن أسمائه الأخرى «ترومان».. وقد سمي بهذا الاسم بعد العدوان.. على المدنيين في اليابان.. حيث ألقى عليهم قنبلتين ذريتين.. فدمر «هيروشيما» و«نجازاكي» في غمضة عين.. والغريب أن «طائش».. لم يتعظ لما جرى لأبيه «راعش».. فقد فَقَدَ أبوه الذاكرة.. ولم يعد يميز بين الوجوه الحاضرة.

استأذن المجنون من زهير ليذهب وحده إلى أرض الشموخ.. في «سوق الشيوخ».. وبمجرد أن وصل وجد كثيرين من الشبان والشابات.. من العراقيين والعراقيات.. يصدون أسراباً حقيرة من الجراد.. لكي يمنعوها من التهام موسم الحصاد..ووجد المجنون نفسه أمام فتاة عراقية.. يشع من عينيها وميض الحماسة والحمية.. فأدرك على الفور أنها فدائية.. ومدت الفتاة يدها اليمنى للمجنون.. وقالت: سأقدم لك الشاي بعد أن أقضي على جراد «نيرون».. وتقدمت في الحال.. لتتصدى لما أمامها من «أرتال».. حيث أطلقت بيدها اليسرى قذيفة على «دبابة».. ورأى المجنون كيف تحولت «الدبابة» إلى «ذبابة».. كما رأى كيف احترق الجراد.. بعد أن وفق الله بالسداد.. وهتف المجنون مع المقاتلين والمقاتلات..من الأماجد والماجدات.. الله أكبر.. الله أكبر.. على من طغى وتجبر.. وتذكر المجنون من جديد.. ما قاله له الجواهري بصوته الرائع الفريد:

حييتُ «شعبك في حرب» فحييني

يا دجلة «المجد.. يا أم الميامين»

حييت «شعبك مقداماً يؤازره

جند من الله في وجه الشياطين

إني رأيت «علوج» الشر ساقطة

في الناصرية، هذا المجد يكفيني

.. تحرك أحد الصحفيين العرب.. ومن المجنون اقترب.. وسأله عن «علوج» التي لا يعرف لها معنى.. وقال: إن كنت تعرف المعنى.. فزدنا.. وأفدنا.. فأجابه المجنون بأن «العلج» هو «الأعجمي الكافر».. وأن «العلج» الآن هو «الأجنبي العنصري الغادر».. لأنه «يأتي إلى أرض ليست له.. ويستحل لنفسه ما ليس له..».. ورغم كثافة الطلقات النارية.. تعالت في الفضاء طلقات أخرى عالية.. وعاد صوت الجواهري من جديد.. لكي يرتوي منه من يتعطش للمزيد:

أرض الشموخ هنا «سوق الشيوخ» أنا

ميسون تهدم أوكار الثعابين

ميســـون باركهـــا الـــه العـــلي بمـــا

ســـعت لـــه في ملاقـــاة الملاعـــين

ميســـون وردتنـــا الحمـــراء ماضـــية

نحو الفـداء ورغـم المـوت تحيينـي

في كـــــربلاء وفي أرض الفـــــرات دم

يروي حصـاداً لنصـر سـوف يـأتيني

الشـــعب ملـــتحم في ظـــل رايتـــه

والأرض تعلن: هـذا الحـر يحمينـي

هـــل ينكـــر الجبنـــاء الآن أن دمـــاً

يعلـــو إلى الله يروينـــي ليفـــديني؟

الجـــبن مقبـــرة الأوغـــاد في غـــدهم

والنصـــر للحـــق في أرض البـــراكين

.. تعجب الصحفيون.. وما زالوا يتعجبون.. كيف استطاعت ميسـون.. أن تصـافح بيدها اليمنى المجنون.. بينما تقاتل باليسرى نيرون.. وقال أحدهم إن شعب العراق لن يموت.. رغم ما يقوم به نيرون من قتل للمدنيين وهم نيام في البيوت.. ورغم ما يقوم به الجبناء مـن سـكوت.. وشـاهد الصحفيون.. ومعهـم شـاهد المجنـون.. قوافـل مـن العراقيات.. كلهن فدائيات.. وجميعهن «ميسونات».. فكرر المجنون من جديد.. ما كان الجواهري قد قاله بصوته الرائع الفريد:

إني رأيـت «علـوج» الشـر سـاقطة

في الناصرية، هذا المجد يكفينـي







المتنبي يتصدى للبراكين والحمم .. وخوفو يخرج من الهرم

بعد أذان صلاة العصر.. أخذ المجنون يتمشى قرب أهرامات مصر.. وهو يتأمل ما يحدث في كل عصر.. من هزائم ليس لها حد.. أو انتصارات مرصعة بالمجد.. وحين اقترب المجنون من أحد باعة الصحف.. استنشق رائحة أمطرته بالغثيان والقرف.. فوقف قليلاً ويا ليته ما وقف.. حيث قرأ العناوين.. وأدرك أنها لا تمدح غير الجبناء التافهين.. وبعد مشي متمهل طويل.. تقدم من المجنون شاب نحيل.. حيث أعطاه جريدة ممنوعة.. اسمها جريدة الحرية المقموعة.. وظل المجنون يقلب الصفحات.. وعرف أن ما سمعه ليس إشاعات.. فقد خرج الملك خوفو من الهرم.. لكي يحاسب كل من في مصر قد حكم.. ويعاقب كل من خان أو انهار أو انهزم.. ويكافئ الثوار على امتداد العصور.. ممن أحسوا بمعاناة الكادح والمقهور.. وأضاءوا زمانهم بالعلم والإيمان والنور.

تحت أحد أعمدة النور.. قرأ المجنون عدة سطور.. تتحدث عن خروج خوفو من الهرم.. وكيف أنه أحس بقدر من الندم.. لأنه خرج متخفياً من مكانه.. دون أن يودع أحداً من أهل زمانه.

.. خوفو مضى متخبطاً في ليله.. متسائلاً: هل هذه مصر التي أحببتها؟.. أم أنني أخطأت حين مشيت وحدي فانطلقت إلى بلاد

غيرها؟.. أم أنه البصر الكليل بفعل آلاف السنين الضائعات؟.. وكيف يأتي الآن في الليل الدليل؟.. وإن أتاني ما عساه يقول؟.. ليست هذه مصر التي أحببتها.. وهوى على الأرض الذليلة غاضباً.. فتشققت.. وتشبثت – من عارها –ببهاء روح غاربة..

تحرك المجنون بسرعة غير معهودة.. وخلال دقائق معدودة.. وجد نفسه واقفاً أمام رجل عملاق.. يتساءل لماذا احتجب النور في الآفاق.. ولماذا تظل الصرخة محبوسة في الأعماق؟.. ومن هيئته الفرعونية.. وملابسه القصيرة العسكرية.. أدرك المجنون أنه أمام خوفو العظيم.. فانحنى ليقدم له التحية والتعظيم.. لكن خوفو استوقفه في الحال.. وقال له: لا تفعل إلا ما يفعله الرجال.. لقد خرجت من الهرم.. لا لكي أبعد عن نفسي السأم.. ولكن لأن رجلاً من أصحاب الهمم.. جاء ليوقظني طالباً مني أن أقف إلى جواره.. ضد الشياطين التي تسللت إلى دياره.. ولهذا تراني الآن. أفكر كيف أساعده في صد العدوان.. حتى لو كان من الشيطان الأكبر.. الذي عرفت أنه قد طغى وتجبر.

★ أيها الملك الجليل.. كيف تساعده وكل من حوله جبان أو مهان أو ذليل؟

– إذن.. فأن تعرف هذا الرجل.

★ لست متأكداً.. ولكن ربما عرفته.. لو أنني كنت قد رأيته.

– على كل حال، فإنه ينتمي لحضارة عريقة.. تماماً مثل حضارتنا الفرعونية العتيقة.. فهو أحد أحفاد بابل وآشور.. وهو من صناع الحضارة العربية التي غمرت الدنيا بالنور.

بينما كان خوفو والمجنون يتحاوران. جلجل في الآفاق صوت عربي رنان.. يهجو كل ذليل وتابع مهان.. ويؤكد أن شجاعة الشجعان.. أساس العمل في كل ميدان:

«عيد بأية حال عدت يا عيد»

والعزم مفتقد والجبن موجودُ

كافور يا أجبن الفرسان قاطبة

أنت الذليل وفي الميدان مفقودُ

أنت الذي يُضحك الأطفال منظره

فالوجه ضفدعة والحلق مسدودُ

لولاكَ ما رقدتْ مصر التـي سـهرت

عبـر الزمـان وفيهـا العلـم مشـهودُ

لولاكَ مـا ارتكـب الطـاغي جرائمـه

ولا تغلغـــل في أحلامنـــا دودُ

إني أراكَ غريقـــاً في ضـــحالته

والخزي في وجهك المفضوح أخدودُ

.. أوشك المجنون على البكاء.. فاحتضنه خوفو دون إبطـاء.. وسـأله عمـا جـرى.. فأنبأه بما كان قد درى.. وقال له إنه يعرف صاحب الصوت. ولا يتردد أحد في ذكره كل وقت.. فهو أكبر شعراء اللغة العربية.. وهو وريث الحضارتين الآشـورية والسـومرية.. وهو أبو الطيب المتنبي الأشم. الذي تتساقط على أرض وطنه البراكين والحمـم. وهنـا اكتسى وجه خوفو بالألم. وقال للمجنون ماذا أفعل الآن؟.. هل أعود من زمانـك إلى مـا كان. وأرجع من حيث جئت.. أم ينبغي أن أجيب صاحب الصوت؟.. أعتقد جازماً أنـه لابد من الإجابة.. حتى تتبدد سحابة الكآبة.





لكل زلزال توابع ..
ولكل زمان أفراح وفواجع

يفاجأ الناس بوقوع الزلازل.. حيث تنهار البيوت وتتصدع المنازل.. ويطل الخراب بوجهه المشؤوم.. ويلقى الضحايا مصيرهم المحتوم.. ولكل زلزال توابع.. لا يستطيع أن يردعها أي رادع.. أو يمنعها أي مانع..وحين يفيق الناس من الصدمة.. ينطلقون بكل ما لديهم من همة.. لكي يعيدوا بناء ما تهدم.. ويساعدوا من سقط على الأرض أو تخبط وتألم.. لأن نهر الحياة لا يتوقف عن الجريان.. والأرض ذاتها لا تكف عن الدوران.. بينما تتعاقب على كل إنسان.. أفراح وأحزان.. وهي نفسها التي تتعاقب على الشعوب والأوطان.

يعرف المجنون أن المفاجآت.. يمكن أن تزلزل كل التوقعات.. وطالما أن البحر هائج.. فإنه قد يخفي ما يخفي من نتائج.. ولكن يبقى على الربان الماهر.. أن يظل يناور.. دون أن يتلهى بالمصائر.. حتى لا يبدو في هيئة مقامر.. وبالتأكيد فإن السفينة.. لابد أن تكون في أيد أمينة.. حتى يكتب الله لها السلامة.. دون أن يشرب أحد كأس الندامة.

سفينة «الأندلس» لم تكن مصنوعة من ورق.. لكن الطيش والتفرق والنزق.. أفضت بها في الخاتمة إلى الغرق.. ولم يبق من السفينة التي كانت رائعة.. إلا ما يتبقى من أية فاجعة.. صرخات مذعورة أو خائفة.. ونبرات حزن آسفة:

«لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان
فجائع الدهر أنواع منوعة
وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها
وما لما حل بالإسلام سلوان»

.. نظر المجنون للبحر بقلب حزين.. لكنه وجد سفينة أخرى تواجه الموج ولا تستكين.. فأدرك على الفور أنها سفينة «فلسطين».. لأن ركابها أجمعين.. يبدون متضامنين.. وهذا ما أغاظ «القرش» اللعين.. وهنا تردد صوت شاعر شهيد.. يؤكد ما سبق أن قاله ويعيد:

«سأحمل روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان
ورود المنايا ونيل المنى
لعمرك إني أرى مصرعي
ولكن أغذ إليه الخطى
أرى مصرعي دون حقي السليب
ودون بلادي هو المبتغى»

وبينما أخذ المجنون يتأمل صراع الخير والشر.. أفاق على صوت رجل حـر.. يبـدو من نبرته أنه ليس من أبناء هذا العصر.. ولأن الظلام شديد.. لم يلمح سوى شبح بعيد.. ينادي وما من مجيب.. وتتداخل في صرخته العزة مع النحيب:

تحاصـــرني الأحـــزان والليـــل يمتـــدُّ
وطوفـــان هولاكـــو يعـــود فيشـــتدُّ

أبعـــد انتظـــاري للنهـــار مؤرقـــاً
أرى الشمس لم تشـرقْ بمـا وَعَـدَ الوعـدُ

أرى جـــرح عشـــتار الأبيـــة صبـــامتاً
وفي صـمته حـزن طغـى مـا لـه حـد

«ومـن نكـد الـدنيا» عـلى النـاس أن يـروا
عـــدواً لهـــم مـــا مـــن إطاعتـــه بـــد

ولكننـــــي أدري بـــــأن قلـــــوبهم
بـرغم المآسـي سـوف تصـحو وتحتـد

ســـأبقى أنـــادي فـــوق أنقـــاض منـــزلي
ويـــأتي زمـــان لـــيس يثنيـــه مرتـــد

إذا كنـــت مفجوعـــاً فـــإن فجيعتـــي
ســتحرق أوهـــام المســـوخ وتمتـــد

تنبه المجنون أن المتنبي هو الذي يصيح.. وأن صوته يتردد في الفضاء الفسيح.. لكن الصوت لم يعد ينفذ إلى القلـوب.. لأن تجـار المآسـي والحـروب.. يتـاجرون بأوجـاع الشعوب.. وهنا تعالى صراخ المجنون.. وقال بصوت محزون:

- أيها الشاعر العملاق.. يا من يتردد صوته في كل الآفاق.. كيف عدت من جديد؟.. ولماذا أنت شارد ووحيد؟

لك أن تتخيل ما تشاء..لكني في الحقيقة لم أعد إلى عالم الأحياء.. إلا لكي أقول.. إني عشت حياتي أصول وأجول.. وقد ظللت أقاتل.. ولم يكن معي أحد سوى قلبي المناضل.. وقد قتلتني عصابة الشر.. بعد أن ساندتها الخيانة وساعدها الغدر.. لكني مؤمن بقدوم يوم.. سينزاح فيه الغم والهم.



٢٩

لامية الفرات ... ترفض اليأس والسبات.. وتدعو الثوار للثبات

بصاروخه العابر للزمان.. انطلق المجنون رافعاً راية العصيان.. ضد أشباه الرجال والخصيان.. حتى يتطهر الهواء من رائحة اليأس والخذلان.. واصطحب المجنون معه بوصلة منقولة جواً.. لكي تعينه إذا تاه قصداً أو سهواً.. وتقدم له خدمة مجانية.. تساعده على فهم الأهواء الإنسانية.. خصوصاً أنها تضم أنباء أبناء الزمان.. ممن يحبون الخير للإنسان.. أو ممن يتلذذون بالعدوان.. ونشر الأحقاد والأضغان.. في كل الدول والأوطان.

في قلب الزمن النائي.. سمع المجنون أناساً يتحدثون عن رجل يدعى «الطغرائي».. وقالوا إنه يفوق كل من في العصر.. بإجادته للشعر.. وإتقانه لفنون النثر.. فضلاً عن كونه خبيراً بملامح الخير وأشكال الشر.. فنظر المجنون للبوصلة التي في يده.. ليعرف تفاصيل نشأته ومولده.. وفي أي مدينة كان.. فعرف أن الطغرائي قد ولد في أصفهان.. سنة ٤٥٣ هجرية.. وأنه من أسرة عريقة عربية.. وأما مهنته فهي العمل في دواوين الطغراء.. وهي الطرة التي يكتبها – عادة – رئيس ديوان الإنشاء.. حيث تكتب في أعلى الرسائل بخط غليظ.. يسر القارئ ولا يغيظ.. وفيها صفات وألقاب للحاكم أو السلطان.. كما جرت العادة في ذلك الزمان.

فجأة وجد المجنون نفسه أمام رجل مهيب الطلعة.. يرتدي

عمامة ليخفي الشيب أو الصلعة.. وكان الرجل في حالة استغراق.. ووجهه يفيض بالإشراق.. وهو يؤكد أن العمل.. هو الأساس في بناء أي أمل:

«أصالة الرأي صانتني عن الخطلِ

وحلية الفضل زانتني لدى العطلِ

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني

بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد

كالسيف عري متناه عن الخلل

فلا صديق إليه مشتكى حزني

ولا أنيس إليه منتهى جذلي»

.. اندفع المجنون نحو الرجل.. وقال له بثقة ودون وجل:

★ يا سيدي.. لقد عرفتك.. وأعترف بأني منذ زمان قد أحببتك.. أنت الطغرائي.. شاعر كبير من شعراء الزمن النائي!

- هذا صحيح.. ولكن من أنت أيها الفتى الذي يبدو أن قلبه جريح؟

★ أنا لست فتى وإنما عجوز.. وأعرف ما يجوز وما لا يجوز.. وقد هربت من زماني لبعض الوقت.. حتى أبتعد ولو قليلاً عن جبن الصمت.. فالطغيان في زماني قد اشتد.. لكني لم أجد من يقف ضده أو يحتد.. فالكل قد شرب كأس اليأس.. ولم يعد أحد يرفع رأسه تحت الشمس.

- هذا أمر يدعو للعجب.. ففي زماني قد جرى مثل هذا للعرب.. وهناك من باعوا الضمائر.. وهناك أيضاً من كانوا أجمل العلامات والمنائر.. وأعترف لك بأني شخصياً قد أحببت الصمت.. ولكن لبعض الوقت.. وذلك لكي تتوازن النفس.. وتنفض عنها غبار اليأس.. وقد سجلت ما قلته في «لامية العجم».. وهي قصيدة يختلط فيها العزم بالألم.

★ يا سيدي.. في زمان قبل زمانك.. ومكانٍ غير مكانك.. كتب الشنفرى الجاهلي قصيدة بعنوان «لامية العرب».

- **أنا أعرف** هذا.. تماماً كما أعرف أني من العرب.

★ **أعرف أنك تعرف** هذا.. ولكني أقول لك **بكل ثبات.. إنك لا** تعرف شيئاً عن **«لامية الفرات»**.. لأنها مكتوبة في القرن الحادي **والعشرين للميلاد**.. وهي تهجو الغزاة **الأوغاد.. ممن يحتلون** بغداد.. كما تهاجم **الجبناء والخونة.. لأن** رائحتهم تبدو دائماً **عفنة.**

... ما هي إلا لحظات.. بعدها استمع **الطغرائي إلى «لامية الفرات»**.. التي ترفض **اليأس والسبات**.. وتدعو الثوار للثبات.. **رغم ما يواجهونه من نكبات:**

«ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ»

فليمسح الدمع من يسعى إلى العملِ

إني نفضت رماد الحزن منتصراً

على الضياع وما يطويه من علل

أبكيك.. لا.. فسماء الروح زاهية

بليلة شهدت إطلالة البطل

أبكيك.. لا.. بل أحيي النسر مشتعلاً

والحق مرتحلاً عن كل مبتذل

بغداد.. ما أنت عن قلبي بغائبة

فالنبض منك وأنت الروح يا أملي

لم يبق في القلب غير النار تصهرني

وتشحذ العزم مقداماً بلا وجل

لم يبق في القلب غير الشوق يدفعني

إلى طريق بنور الحق متصل

النار تحرقنا.. والنار تصهرنا

والنار تأتي على الأنقاض والخلل

فاثبت على مبدأ عشت الحياة له

ولا تبتْ لحظة في خيمة الدجل

إن المصائب إن فاضت تطهرنا

مما كسانا به اللاهون من كسل

.. قال الطغرائي للمجنون.. وقد تحدر على خديه دمع هتون.. ما أشبه الليلة بالبارحة.. لكن أصحاب النفوس الطامحة.. لابد أن ينتصروا على الشر والعدوان.. وهذا ما يحدث في كل زمان ومكان.





المتنبي يطل على بغداد ..
ويرفض الانقياد .. وراء أباطيل الأوغاد

أزاح المجنون عن نفسه.. ما كان من أحزان أمسه.. ونفض غبار يأسه.. مؤكداً أنه لا ينبغي للمجنون أن يتوه.. حتى لو تاه كل العقلاء الذين عرفهم وعرفوه.. أو غير بعضهم ملامح الوجوه.. وأخذوا يرفعون شعارات كاذبة.. لكي يتملقوا بها القوة الغالبة.. متنكرين لنور الشمس ما دامت قد أصبحت غاربة.. وعلى الفور تذكر المجنون.. ما قاله له جده العبقري ابن خلدون.. وكيف أنه قد رأى بفكره الثاقب.. أن المغلوب مولع بتقليد الغالب.. وانطلقت من قلب المجنون الآه.. وهو يقول: لا غالب إلا الله.. الحق أحق بأن يتبع.. مهما طغى ضلال واندفع.

سمع المجنون صوتاً ينضح بالأحزان.. رغم أن نبرات الصوت تشع بالعنفوان.. وأحس المجنون أن الصوت ليس ببعيد.. وأنه صوت عملاق فريد:

«مغاني الشعب طيباً في المغاني

بمنزلة الربيع من الزمانِ

ولكن الفتى العربي فيها

غريب الوجه واليد واللسانِ»

.. كانت الطرقات غارقة في الظلمات. لكن المجنون أسرع في الخطوات.. لكي يبحث عن مصدر الصوت القوي النبرات.. وبنور

القلب الصادق. تجلى للمجنون جبل شاهق.. على قمته يجلس رجل وحيد.. ومن هيئته يبدو أنه آت من زمان بعيد.

★ من أنت أيها الرجل الوحيد؟

- لست بالوحيد.. ما دمت عن الحق لا أحيد.

★ لكني أراك تجلس وحدك. وليس من أحد معك أو ضدك.

- أتسألني من أنا وأنت تعرفني؟!.. أنا أعرف جيداً أنك دائماً تذكرني. ولن تستطيع أن تنكرني. إلا إذا صادروا قلبك.. وجعلوك - أستغفر الله - تنسى ربك.

★ الحق أني كنت أعرف أنه أنت.. منذ أن استمعت إلى ما استمعت من صوت.. إنه أنت.. ولكن ماذا تفعل يا سيدي هنا؟

- أتسألني هذا السؤال؟.. هل اختلطت الحقيقة إلى هذا الحد بالضلال؟.. أنا هنا فوق تراب وطني.. أشهد ما أصابه من محن وأتذكر أيضاً محني.. لقد قتلني ذات ليل قطاع طريق.. ونهبوا ما كان معي من نفائس ذات بريق.. لكنهم لم يستطيعوا نهب ما كنت كتبت.. ولهذا ماتوا أما أنا فقد خلدت.. ألست أنت واحداً ممن يقرأون أشعاري.. ويعرفون تفاصيل حياتي وأسفاري.. ويتذكرون دائماً في كل ليلة.. قصائدي في سيف الدولة وهجائي الغاضب لكافور.. ذلك الكلب الغادر العقور.

★ يا سيدي.. هذا ما كان.. ولكني أسألك عما تفعله الآن؟

- لقد عدت من سحيق الزمن.. لأقبل وجه الوطن.. وهو يواجه ما يواجه من محن.. والمحزن حقاً إني وجدت كثيرين من «العلوج».. يمنعون الناس من الدخول أو الخروج.. إلا بعد أن يثبتوا لهم أنهم عرب.. ولهذا أدخل «العلوج» أبا لهب.. وجاءوا معهم بمن قتل أو نهب.. آه يا أرض العراق.. مالي من الحزن انعتاق.. وأنا أعرف أن حمورابي حزين. لكني أعرف أيضاً أن عشتار لن تلين.. أما الذين يرفعون الشعارات الكاذبة.. لكي يتملقوا بها قوة العلوج الغالبة.. فإني أعرف إنهم مسوخ.. وحتماً سيتلاشون حين يعود زمان الشموخ:

ببغداد الجريحة كم أعاني

من الزمن الملطخ بالهوان

أطل على خراب فاق حزني

وأشهد ما يضيق به كياني

ظلال الأجنبي على ثراها

ورائحة الخيانة في المكان

وحسرة فارس أضحى وحيداً

بلا درع تقيه ولا حصان

وينتظر الشهادة دون فتوى

ودجلة في انتظار العنفوان

جراحات الحسين بلا نصير

«وإن كثر التجمل» في المعاني

وسيف الدولة النائي معنًى

ويسأل في المصيبة عن بياني

وإني أذ أعاتبه بصمتي

أغص بخيبة الزمن المهان

بقلبي نار شوق ليس تخبو

إلى وطن أراه ولا يراني

أواجه فيه من نهبوا دياري

وأصرع فيه أبناء الزواني

أرى في الليل قافلة المخازي

وقد رقص العلوج مع الغواني

وهذا عصرنا العربي يبدو

«غريب الوجه واليد واللسان»

٣١

أبو نواس .. يتذلل للأنجاس .. لكي يعينوه في وظيفة كناس !

كثيرون من الناس يحنون الجباه.. حين يختل إيقاع الحياة.. لأن المضطر - كما يقولون - يركب الصعب.. وعليه أن يتقبل الإهانة والضرب.. وعليه ألا يحتج إذا أهين.. حتى يظل في نظر الطغاة الظالمين.. أشبه ما يكون بالخادم الأمين.. وعليه أن ينسى معاني الكرامة والعزة.. مادامت الأرض تحت قدميه مهتزة.. وطالما أن الكل يريد أن يعيش.. فلابد أن ينتف الطاووس ما يتباهى به من الريش.. ولابد أن يقنع الأسد بدلاً من اللحم بأكل الحشيش.

وجد المجنون.. أناساً كثيرين يتزاحمون.. ملامحهم الحزينة عربية.. وأيديهم تمتد بأوراق مطوية.. يقدمونها لأناس يرتدون قبعات أجنبية.. وكل منهم يريد الحصول على وظيفة.. تؤمن له أن يشتري كساءه أو دواءه أو رغيفه.. وتجنبه شر أن يتسول.. أو أن ينحرف عن الطريق ويتحلل.. بعد أن يكفر بكل الخير.. ويظل يفتش في السر أو في الجهر.. عن أردأ أنواع الخمر.

سمع المجنون كلمات فيها رطانة.. يحتاج أغلبها لتفسير أو إبانة.. لكن صاحب «البيان والتبيين».. عليه أن يتحمل كل ما في الزمن المهين.. وهكذا شوهد شخص من أصحاب القبعات.. يقرأ مما أمامه من قوائم ومن كشوفات:

★ مدام زبيدة زوجة الرشيد البعيد.. مهنتك الآن في الزمان الجديد.. خادمة في بلاط سيدنا الذي انتصر.. وعليك إطاعة أوامره إذا أمر.. وستحصلين على دولارين فوق المرتب.. إذا نظفت أحذية سيدنا الحر المهذب.

★ مدام ولادة بنت المستكفي.. أنت عشت في العز بما يكفي.. ولدينا لك الآن وظيفة.. نعتقد أنها وظيفة مشرفة وشريفة.. عليك بالرقص في البارات.. للترفيه عن أمثالي من أصحاب القبعات.. وأنا شخصياً أعتقد أن جسمك يمتلك كل المقومات.

★ مستر بشار بن برد.. لماذا لا تنطق ولا ترد؟.. أنت أعمى النظر بلا حد.. ولهذا ستعمل مهرجاً لسيدنا إذا تعب.. وعليك أن تضحكه إذا ضاق واكتأب.. ويمكنك أن تقلد البروفيسور يحيى المشد.. وهو يفكر في الذرة التي من أجلها اجتهد وجد.. وعليك من الآن أن تلاحظ.. أن لدينا من العيون اليواقظ.. ما يجعلنا نعرف دائماً ما تفكر فيه.. خاصة أن عقلك تائه أو سفيه.. ألست أنت الذي تهجمت على النساء.. وقلت في حقهن أقبح هجاء:

«لا يخدعنك من مححبة

شتم توجهه وإن جرحا

عسر النساء إلى ملاينة

والصعب يمكن بعد ما جمحا»

.. يا مستر بشار.. أنت رجل مهذار.. ولكن عليك من الآن.. أن تحترم كل النسوان.. وإلا طردناك مما أنعمنا به عليك من وظيفة.. أعتقد أنها تبدو لك مريحة ولطيفة.

لمح المجنون من بعيد.. رجلاً يبدو على ملامحه الهم الشديد.. كانت شفتاه توحيان بأنه يتبرم.. أو بأنه يريد أن يتظلم.. لكنه لا يريد أن يتكلم.. وهنا تحرك المجنون بلا إبطاء.. وأشرع أذنيه للإصغاء.. عندما سمع أحدهم يقول.. يبدو أن الليل سيطول.. لقد قرر شاعرنا أبو نواس.. أن يزيح رهافة الإحساس.. وأن يعيش مثل كثيرين من الناس.. ولهذا فإنه تقدم بطلب.. إلى هؤلاء الذين يكرهون المسلمين والعرب.. لكي يتم تعيينه

في وظيفة كناس.. يجمع القمامة في أكياس.. لكنهم أهملوه ووبخوه.. وقالوا إنه شخص معتوه.. وإنه خارج عن أجواء هذا العصر . لأنه لا يجيد غير الشعر.. ولا يكتبه إلا إذا شرب الخمر.

لم يستطع المجنون أن يعرف الحقيقة.. فالظلمات من حوله تبدو عميقة.. وهكذا ترك الناس تتجادل.. ومن أجل الوظائف الجديدة تتقاتل.. ثم أخذ يتساءل: هل يعقل أن يتذلل أبو نواس.. لكل هؤلاء الأنجاس.. لكي يعينوه في وظيفة كناس؟

فجأة تحركت الريح في الطرقات.. وهي تحمل صوتاً عالي النبرات.. فأرهف المجنون أذنيه.. لكي يستمع إلى ما حملته الريح إليه:

إن المصائب إن فاضت تطهرنا

مما كسانا به الغاوون من كسلِ

فاثبت على مبدأ عشت الحياة له

ولا تبت لحظة في خيمة الدجل

وانهض لحقك يا إنسان مصطحباً

روح المجاهد واحذر موطئ الزلل

هذا هو الوطن الغالي يذكرنا

بما اعتراه وأن الليل لم يطل

المجد للنور ما دامت جوانحنا

عطشى لوجهِ نهارٍ رائع خضل

على الفرات دم والعار في دمنا

فيا فرات اغتسل بالنار واكتحل

ويا حبيباً إلى روحي وسيدها

انهض وقم وانتفض حييتَ من بطل



٣٢

الأفعى تصادق الغول .. وأبو نواس مذهول.. لكن الليل لن يطول

وضع المجنون على صلعته الشاسعة.. طاقية إخفاء بارعة.. كان يحتفظ بها منذ أن قام بجولة.. في آفاق «ألف ليلة وليلة».. ولم يكن هدف المجنون إيذاء أحد.. وإنما كان يريد أن يرى الحقيقة عارية الجسد.. وبدون مساحيق تجميل.. من الأنواع التي تخدع أو تبرع في التضليل.

خلال جولته الجديدة.. رأى المجنون كيف ينسج اللؤماء مكائد عديدة.. لكي يستخدموها في كل أرض.. بعد أن يقتلوا الحب ويزرعوا البغض.. وهذا ما كان عندما تسلل المجنون إلى مكان.. ليس له لافتة ولا عنوان.. وفيه أجساد عارية.. يتنقل أصحابها بها من ناحية إلى ناحية.. وكل منهم يفكر فيما سيرتديه.. وفيما يمكن أن يقوله وما لابد أن يخفيه.. حتى يضحكوا جميعاً على الناس.. ويبشروهم بأنهم ليسوا مثل الوسواس الخناس.. وبأنهم يحبون الحرية للجميع.. وسيأتون لهم بأجمل ربيع.

وجد المجنون أفعى تصادق الغول.. وتحكي له كيف استطاعت تسميم العقول.. بعد أن مزجت السم بكلامها المعسول.. وقالت الأفعى للغول بكل وقاحة.. إنها عاشقة للخيانة لأنها تجعل الأرض كلها مباحة.. فتحصل على ما تريد بكل راحة.. وهنا قهقه الغول.. وبارك الأفعى وأيدها فيما تقول.. واستعد

الاثنان لارتداء الثياب.. لكي يقابلا بعض الواقفين على الباب.. وفي الحال تحولت الأفعى إلى امرأة حلوة.. تغمر قلب من يراها بالنشوة.. وتجعله يفكر في كيفية التقرب إليها.. ولو من خلال تقبيل قدميها.. أما الغول فقد تحول إلى رجل عملاق.. لكنه يبدو حسن الأخلاق.. وأشار الغول إلى الباب – وقال بهدوء: فليدخل فوراً جميع الأحباب.

لم يستطع المجنون أن يتنفس.. بل إنه كاد أن يعطس.. بسبب ما استنشقه من الرائحة النتنة.. فقال لنفسه إنها بالتأكيد رائحة الخونة.. لابد أن أخرج من هنا قبل أن يشعر بي أحد.. ويكفي أني رأيت الخيانة وهي عارية الجسد.. وكيف تحولت الأفعى إلى امرأة حلوة.. وتحول الغول إلى رجل من أصحاب النخوة.

لمح المجنون في الظلام العميق.. رجلاً يبدو أنه من سكره لا يفيق.. واستمع المجنون إلى الرجل وهو يقول.. فليذهب للجحيم كل أصحاب العقول:

«دع عنك لومي فإن اللوم إغراء

وداوني بالتي كانت هي الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها

لو مسها حجر مسته سراء

وقل لمن يدعي في العلم فلسفة

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء»

كان المجنون قد أزاح عن صلعته الشاسعة.. طاقية الإخفاء البارعة.. فأبصره الرجل الزائغ النظرات على الفور.. وسأله عما إذا كان معه ولو قطرة من الخمر..

★ لماذا تحب أن تشرب؟

- لأني أريد أن أهرب.

★ من أي شيء تريد الفرار؟

- من واقع، انكشف فيه الستار.. عن أبشع أنواع الدمار.. ألست أنت الذي يسمونه المجنون؟

.. ليتني كنت مثلك في حالة جنون!

★ نعم.. أنا المجنون.. وأنت من تكون؟

- أنا أبو نواس المذهول.. من كثرة ما رأيت من أنقاض وطلول.

★ لكن الليل يا سيدي لن يطول.

- أي ليل؟.. ليل العشاق.. أم ليل الأفعى والغول العملاق؟.. إن حزني يا مجنون يتغلغل في الأعماق.. فاكتب الآن على لساني ما سأقول.. وقل للكل هذا ما قاله أبو نواس المذهول.. بعد أن عرف حقيقة الأفعى والغول:

راح شوك الشك يجتاح الجراحا

جامحاً يشطر كالسيف الصباحا

كان في روحك ليل يتخفى

بقناع متقن يخفي الرياحا

كان في صدرك عنقودان ثارا

واستثارا.. فانبرى الغول اجتياحا

وتألقت، ولكن فوق دنيا

لم تزل أعماقها تخشى افتضاحا

★★★

حاصرت قلبي خيول النار تصهل

في ليال لم أقم فيها بمنزل

كنت كاللاجئ أمشي فوق يأسي

هارباً من كل شيء يتزلزل

لا أرى حولي سوى زيفك يسعى

من ورائي بشفاه تتجمل

نحن ضدان.. فإن كنا افترقنا

فلأني.. أهجر الزيف وأرحل



ابن زيدون.. يبحث مع المجنون.. عن كنز مدفون!

فجأة أحس المجنون.. أن عاصفة من الظنون.. توشك أن تجتاح العقول.. بعد أن لفها ما يشبه الذهول.. ورأى في السماء نجمة يحاصرها الأفول.. وهي تجاهد لكي يظل نورها يتألق.. فوق نبع ما زال يترقرق.. ورأى المجنون رجلاً حزين الملامح.. يتساءل عما وقع من مذابح.. ولماذا أصبح الإنسان عدواً للإنسان.. والضعفاء في حالة إذعان.. أمام ما يتعرضون له من طغيان؟

كان الرجل الحزين الملامح.. يقف مع رجال ليست لهم أمنيات أو مطامح.. بعد أن شاهدوا الحرائق.. تجتاح أجمل الحدائق.. ورأوا كيف تنقض الصواعق.. على كل إنسان عاشق.. وحملت الريح للمجنون بعض ما دار.. بين هؤلاء الحزانى من حوار.. ولم يندهش المجنون من الأسئلة.. لأنه يعرف أن القنبلة.. لا تحب أن ترى جمال السنبلة.

عاشق يسأل الناس من شوقه للديار البعيدة

- كيف حال البلاد؟

★ إنها تلبس الآن ثوب الحداذ

منذ أن أودع الحب سجن المكيدة

صادر الجند دفء الحليب الذي في صدور النساء

صادروا دمية من يد الطفلة الحلوة الراقدة

صادروا نسمة في جبين المساء

أغلقوا لهفة الشوق للشمس في ليلة باردة

حاصر الصمت كل الكلام الذي لم يقله الشقاء

والوجوه الكئيبة في كهف أسيادها تستبيح دم الأبرياء

والذي يعشق النور تطحنه الظلمة الحاقدة

كل ما قد بنيناه ينهار في لحظة واحدة

- كيف حال القمر؟

★ لم يعد أحد يشتهيه.. فخابت رؤاه.. وغاب

- كيف حال الشجر؟

★ بعثر الجند أغصانه..

ثم عادوا ليلقوا على الأرض ظل الخراب

- كيف حال المطر؟

★إنه مقبل.. نحن نرقبه.. إنما في ارتياب

- كيف حال الزمن؟

★ إنه الآن مستنقع خاشع لجلال الوثن

- كيف لم ينتبه أحد وارتضى الكل هذا السواد؟

★ ابتعد أيها العاشق الآن من قبل أن يقبل العسكر الهائجون

ابتعد.. قبل أن تحتويك السجون

مستباحاً.. ومتهماً بالفساد!!

.. امتطى الرجل الحزين الملامح.. صهوة حصانه الجامح.. متحسراً على الزمان الذي كان فيه الحب.. يشع بأنواره في كل قلب.. وانحدرت على وجه الرجل دمعات.. بينما كان يردد بعض الأبيات:

- أنا أعرف هذا.. تماماً كما أعرف أني من العرب.

★ أعرف أنك تعرف هذا.. ولكني أقول لك بكل ثبات.. إنك لا تعرف شيئاً عن «لامية الفرات».. لأنها مكتوبة في القرن الحادي والعشرين للميلاد.. وهي تهجو الغزاة الأوغاد.. ممن يحتلون بغداد.. كما تهاجم الجبناء والخونة.. لأن رائحتهم تبدو دائماً عفنة.

... ما هي إلا لحظات.. بعدها استمع الطغرائي إلى «لامية الفرات».. التي ترفض اليأس والسبات.. وتدعو الثوار للثبات.. رغم ما يواجهونه من نكبات:

«ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ»
فليمسح الدمع من يسعى إلى العملِ

إني نفضت رماد الحزن منتصراً
على الضياع وما يطويه من علل

أبكيك.. لا.. فسماء الروح زاهية
بليلة شهدت إطلالة البطل

أبكيك.. لا.. بل أحيي النسر مشتعلاً
والحق مرتحلاً عن كل مبتذل

بغداد.. ما أنت عن قلبي بغائبة
فالنبض منك وأنت الروح يا أملي

لم يبق في القلب غير النار تصهرني
وتشحذ العزم مقداماً بلا وجل

لم يبق في القلب غير الشوق يدفعني
إلى طريق بنور الحق متصل

النار تحرقنا.. والنار تصهرنا
والنار تأتي على الأنقاض والخلل

فاثبت على مبدأ عشت الحياة له
ولا تبتْ لحظة في خيمة الدجل

إن المصائب إن فاضت تطهرنا
مما كسانا به اللاهون من كسل

.. قال الطغرائي للمجنون.. وقد تحدر على خديه دمع هتون.. ما أشبه الليلة بالبارحة.. لكن أصحاب النفوس الطامحة.. لابد أن ينتصروا على الشر والعدوان.. وهذا ما يحدث في كل زمان ومكان.





المتنبي يطل على بغداد ..
ويرفض الانقياد .. وراء أباطيل الأوغاد

أزاح المجنون عن نفسه.. ما كان من أحزان أمسه.. ونفض غبار يأسه.. مؤكداً أنه لا ينبغي للمجنون أن يتوه.. حتى لو تاه كل العقلاء الذين عرفهم وعرفوه.. أو غير بعضهم ملامح الوجوه.. وأخذوا يرفعون شعارات كاذبة.. لكي يتملقوا بها القوة الغالبة.. متنكرين لنور الشمس ما دامت قد أصبحت غاربة.. وعلى الفور تذكر المجنون.. ما قاله له جده العبقري ابن خلدون.. وكيف أنه قد رأى بفكره الثاقب.. أن المغلوب مولع بتقليد الغالب.. وانطلقت من قلب المجنون الآه.. وهو يقول: لا غالب إلا الله.. الحق أحق بأن يتبع.. مهما طغى ضلال واندفع.

سمع المجنون صوتاً ينضح بالأحزان.. رغم أن نبرات الصوت تشع بالعنفوان.. وأحس المجنون أن الصوت ليس ببعيد.. وأنه صوت عملاق فريد:

«مغاني الشعب طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمانِ
ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسانِ»

.. كانت الطرقات غارقة في الظلمات. لكن المجنون أسرع في الخطوات.. لكي يبحث عن مصدر الصوت القوي النبرات.. وبنور

القلب الصادق. تجلى للمجنون جبل شاهق.. على قمته يجلس رجل وحيد.. ومن هيئته يبدو أنه آت من زمان بعيد.

★ من أنت أيها الرجل الوحيد؟

- لست بالوحيد.. ما دمت عن الحق لا أحيد.

★ لكني أراك تجلس وحدك. وليس من أحد معك أو ضدك.

- أتسألني من أنا وأنت تعرفني؟!.. أنا أعرف جيداً أنك دائماً تذكرني. ولن تستطيع أن تنكرني. إلا إذا صادروا قلبك.. وجعلوك - أستغفر الله - تنسى ربك.

★ الحق أني كنت أعرف أنه أنت.. منذ أن استمعت إلى ما استمعت من صوت.. إنه أنت.. ولكن ماذا تفعل يا سيدي هنا؟

- أتسألني هذا السؤال؟.. هل اختلطت الحقيقة إلى هذا الحد بالضلال؟.. أنا هنا فوق تراب وطني.. أشهد ما أصابه من محن وأتذكر أيضاً محني.. لقد قتلني ذات ليل قطاع طريق.. ونهبوا ما كان معي من نفائس ذات بريق.. لكنهم لم يستطيعوا نهب ما كنت كتبت.. ولهذا ماتوا أما أنا فقد خلدت.. ألست أنت واحداً ممن يقرأون أشعاري.. ويعرفون تفاصيل حياتي وأسفاري.. ويتذكرون دائماً في كل ليلة.. قصائدي في سيف الدولة وهجائي الغاضب لكافور.. ذلك الكلب الغادر العقور.

★ يا سيدي.. هذا ما كان.. ولكني أسألك عما تفعله الآن؟

- لقد عدت من سحيق الزمن.. لأقبل وجه الوطن.. وهو يواجه ما يواجه من محن.. والمحزن حقاً إني وجدت كثيرين من «العلوج».. يمنعون الناس من الدخول أو الخروج.. إلا بعد أن يثبتوا لهم أنهم عرب.. ولهذا أدخل «العلوج» أبا لهب.. وجاءوا معهم بمن قتل أو نهب.. آه يا أرض العراق.. مالي من الحزن انعتاق.. وأنا أعرف أن حمورابي حزين. لكني أعرف أيضاً أن عشتار لن تلين.. أما الذين يرفعون الشعارات الكاذبة.. لكي يتملقوا بها قوة العلوج الغالبة.. فإني أعرف إنهم مسوخ.. وحتماً سيتلاشون حين يعود زمان الشموخ:

ببغداد الجريحة كم أعاني

من الزمن الملطخ بالهوان

أطل على خـراب فـاق حـزني
وأشـهد مـا يضـيق بـه كيـاني
ظـلال الأجنبـي عـلى ثراهـا
ورائحـة الخيانـة في المكـان
وحسرة فارس أضحى وحيداً
بــلا درع تقيــه ولا حصــان
وينتظـر الشـهادة دون فتـوى
ودجلـة في انتظـار العنفـوان
جراحات الحسين بلا نصير
«وإن كثر التجمل» في المعاني
وسيف الدولـة النـائي معنًّـى
ويسأل في المصيبة عـن بيـاني
وإني أذ أعاتبــه بصــمتي
أغـص بخيبـة الـزمن المهـان
بقلبي نار شـوق لـيس تخبـو
إلى وطــن أراه ولا يــراني
أواجه فيـه مـن نهبـوا ديـاري
وأصــرع فيــه أبنـاء الــزواني
أرى في الليل قافلة المخـازي
وقد رقص العلوج مع الغواني
وهـذا عصـرنا العربـي يبـدو
«غريب الوجه واليد واللسان»



أبو نواس .. يتذلل للأنجاس .. لكي يعينوه في وظيفة كناس !

كثيرون من الناس يحنون الجباه.. حين يختل إيقاع الحياة.. لأن المضطر – كما يقولون – يركب الصعب.. وعليه أن يتقبل الإهانة والضرب.. وعليه ألا يحتج إذا أهين.. حتى يظل في نظر الطغاة الظالمين.. أشبه ما يكون بالخادم الأمين.. وعليه أن ينسى معاني الكرامة والعزة.. مادامت الأرض تحت قدميه مهتزة.. وطالما أن الكل يريد أن يعيش.. فلابد أن ينتف الطاووس ما يتباهى به من الريش.. ولابد أن يقنع الأسد بدلاً من اللحم بأكل الحشيش.

وجد المجنون.. أناساً كثيرين يتزاحمون.. ملامحهم الحزينة عربية.. وأيديهم تمتد بأوراق مطوية.. يقدمونها لأناس يرتدون قبعات أجنبية.. وكل منهم يريد الحصول على وظيفة.. تؤمن له أن يشتري كساءه أو دواءه أو رغيفه.. وتجنبه شر أن يتسول.. أو أن ينحرف عن الطريق ويتحلل.. بعد أن يكفر بكل الخير.. ويظل يفتش في السر أو في الجهر.. عن أردأ أنواع الخمر.

سمع المجنون كلمات فيها رطانة.. يحتاج أغلبها لتفسير أو إبانة.. لكن صاحب «البيان والتبيين».. عليه أن يتحمل كل ما في الزمن المهين.. وهكذا شوهد شخص من أصحاب القبعات.. يقرأ مما أمامه من قوائم ومن كشوفات:

★ مدام زبيدة زوجة الرشيد البعيد.. مهنتك الآن في الزمان الجديد.. خادمة في بلاط سيدنا الذي انتصر.. وعليك إطاعة أوامره إذا أمر.. وستحصلين على دولارين فوق المرتب.. إذا نظفت أحذية سيدنا الحر المهذب.

★ مدام ولادة بنت المستكفي.. أنت عشت في العز بما يكفي.. ولدينا لك الآن وظيفة.. نعتقد أنها وظيفة مشرفة وشريفة.. عليك بالرقص في البارات.. للترفيه عن أمثالي من أصحاب القبعات.. وأنا شخصياً أعتقد أن جسمك يمتلك كل المقومات.

★ مستر بشار بن برد.. لماذا لا تنطق ولا ترد؟.. أنت أعمى النظر بلا حد.. ولهذا ستعمل مهرجاً لسيدنا إذا تعب.. وعليك أن تضحكه إذا ضاق واكتأب.. ويمكنك أن تقلد البروفيسور يحيى المشد.. وهو يفكر في الذرة التي من أجلها اجتهد وجد.. وعليك من الآن أن تلاحظ.. أن لدينا من العيون اليواقظ.. ما يجعلنا نعرف دائماً ما تفكر فيه.. خاصة أن عقلك تائه أو سفيه.. ألست أنت الذي تهجمت على النساء.. وقلت في حقهن أقبح هجاء:

«لا يخدعنك من محجبة

شتم توجهه وإن جرحا

عسر النساء إلى ملاينة

والصعب يمكن بعد ما جمحا»

.. يا مستر بشار.. أنت رجل مهذار.. ولكن عليك من الآن.. أن تحترم كل النسوان.. وإلا طردناك مما أنعمنا به عليك من وظيفة.. أعتقد أنها تبدو لك مريحة ولطيفة.

لمح المجنون من بعيد.. رجلاً يبدو على ملامحه الهم الشديد.. كانت شفتاه توحيان بأنه يتبرم.. أو بأنه يريد أن يتظلم.. لكنه لا يريد أن يتكلم.. وهنا تحرك المجنون بلا إبطاء.. وأشرع أذنيه للإصغاء.. عندما سمع أحدهم يقول.. يبدو أن الليل سيطول.. لقد قرر شاعرنا أبو نواس.. أن يزيح رهافة الإحساس.. وأن يعيش مثل كثيرين من الناس.. ولهذا فإنه تقدم بطلب.. إلى هؤلاء الذين يكرهون المسلمين والعرب.. لكي يتم تعيينه

في وظيفة كناس.. يجمع القمامة في أكياس.. لكنهم أهملوه ووبخوه.. وقالوا إنه شخص معتوه.. وإنه خارج عن أجواء هذا العصر . لأنه لا يجيد غير الشعر.. ولا يكتبه إلا إذا شرب الخمر.

لم يستطع المجنون أن يعرف الحقيقة.. فالظلمات من حوله تبدو عميقة.. وهكذا ترك الناس تتجادل.. ومن أجل الوظائف الجديدة تتقاتل.. ثم أخذ يتساءل: هل يعقل أن يتذلل أبو نواس.. لكل هؤلاء الأنجاس.. لكي يعينوه في وظيفة كناس؟

فجأة تحركت الريح في الطرقات.. وهي تحمل صوتاً عالي النبرات.. فأرهف المجنون أذنيه.. لكي يستمع إلى ما حملته الريح إليه:

إن المصائب إن فاضت تطهرنا

مما كسانا به الغاوون من كسلِ

فاثبت على مبدأ عشت الحياة له

ولا تبت لحظة في خيمة الدجل

وانهض لحقك يا إنسان مصطحباً

روح المجاهد واحذر موطئ الزلل

هذا هو الوطن الغالي يذكرنا

بما اعتراه وأن الليل لم يطل

المجد للنور ما دامت جوانحنا

عطشى لوجهِ نهارٍ رائع خضل

على الفرات دم والعار في دمنا

فيا فرات اغتسل بالنار واكتحل

ويا حبيباً إلى روحي وسيدها

انهض وقم وانتفض حييتَ من بطل



٣٢

الأفعى تصادق الغول ..
وأبو نواس مذهول.. لكن الليل لن يطول

وضع المجنون على صلعته الشاسعة.. طاقية إخفاء بارعة.. كان يحتفظ بها منذ أن قام بجولة.. في آفاق «ألف ليلة وليلة».. ولم يكن هدف المجنون إيذاء أحد.. وإنما كان يريد أن يرى الحقيقة عارية الجسد.. وبدون مساحيق تجميل.. من الأنواع التي تخدع أو تبرع في التضليل.

خلال جولته الجديدة.. رأى المجنون كيف ينسج اللؤماء مكائد عديدة.. لكي يستخدموها في كل أرض.. بعد أن يقتلوا الحب ويزرعوا البغض.. وهذا ما كان عندما تسلل المجنون إلى مكان.. ليس له لافتة ولا عنوان.. وفيه أجساد عارية.. يتنقل أصحابها بها من ناحية إلى ناحية.. وكل منهم يفكر فيما سيرتديه.. وفيما يمكن أن يقوله وما لابد أن يخفيه.. حتى يضحكوا جميعاً على الناس.. ويبشروهم بأنهم ليسوا مثل الوسواس الخناس.. وبأنهم يحبون الحرية للجميع.. وسيأتون لهم بأجمل ربيع.

وجد المجنون أفعى تصادق الغول.. وتحكي له كيف استطاعت تسميم العقول.. بعد أن مزجت السم بكلامها المعسول.. وقالت الأفعى للغول بكل وقاحة.. إنها عاشقة للخيانة لأنها تجعل الأرض كلها مباحة.. فتحصل على ما تريد بكل راحة.. وهنا قهقه الغول.. وبارك الأفعى وأيدها فيما تقول.. واستعد

الاثنان لارتداء الثياب.. لكي يقابلا بعض الواقفين على الباب.. وفي الحال تحولت الأفعى إلى امرأة حلوة.. تغمر قلب من يراها بالنشوة.. وتجعله يفكر في كيفية التقرب إليها.. ولو من خلال تقبيل قدميها.. أما الغول فقد تحول إلى رجل عملاق.. لكنه يبدو حسن الأخلاق.. وأشار الغول إلى الباب – وقال بهدوء: فليدخل فوراً جميع الأحباب.

لم يستطع المجنون أن يتنفس.. بل إنه كاد أن يعطس.. بسبب ما استنشقه من الرائحة النتنة.. فقال لنفسه إنها بالتأكيد رائحة الخونة.. لابد أن أخرج من هنا قبل أن يشعر بي أحد.. ويكفي أني رأيت الخيانة وهي عارية الجسد.. وكيف تحولت الأفعى إلى امرأة حلوة.. وتحول الغول إلى رجل من أصحاب النخوة.

لمح المجنون في الظلام العميق.. رجلاً يبدو أنه من سكره لا يفيق.. واستمع المجنون إلى الرجل وهو يقول.. فليذهب للجحيم كل أصحاب العقول:

«دع عنك لومي فإن اللوم إغراء

وداوني بالتي كانت هي الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها

لو مسها حجر مسته سراء

وقل لمن يدعي في العلم فلسفة

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء»

كان المجنون قد أزاح عن صلعته الشاسعة.. طاقية الإخفاء البارعة.. فأبصره الرجل الزائغ النظرات على الفور.. وسأله عما إذا كان معه ولو قطرة من الخمر..

★ لماذا تحب أن تشرب؟

– لأني أريد أن أهرب.

★ من أي شيء تريد الفرار؟

– من واقع، انكشف فيه الستار.. عن أبشع أنواع الدمار.. ألست أنت الذي يسمونه المجنون؟

.. ليتني كنت مثلك في حالة جنون!

★ نعم.. أنا المجنون.. وأنت من تكون؟

- أنا أبو نواس المذهول.. من كثرة ما رأيت من أنقاض وطلول.

★ لكن الليل يا سيدي لن يطول.

- أي ليل؟.. ليل العشاق.. أم ليل الأفعى والغول العملاق؟.. إن حزني يا مجنون يتغلغل في الأعماق.. فاكتب الآن على لساني ما سأقول.. وقل للكل هذا ما قاله أبو نواس المذهول.. بعد أن عرف حقيقة الأفعى والغول:

راح شوك الشك يجتاح الجراحا

جامحاً يشطر كالسيف الصباحا

كان في روحك ليل يتخفى

بقناع متقن يخفي الرياحا

كان في صدرك عنقودان ثارا

واستثارا.. فانبرى الغول اجتياحا

وتألقت، ولكن فوق دنيا

لم تزل أعماقها تخشى افتضاحا

★★★

حاصرت قلبي خيول النار تصهل

في ليال لم أقم فيها بمنزل

كنت كاللاجئ أمشي فوق يأسي

هارباً من كل شيء يتزلزل

لا أرى حولي سوى زيفك يسعى

من ورائي بشفاه تتجمل

نحن ضدان.. فإن كنا افترقنا

فلأني.. أهجر الزيف وأرحل



ابن زيدون.. يبحث مع المجنون.. عن كنز مدفون!

فجأة أحس المجنون.. أن عاصفة من الظنون.. توشك أن تجتاح العقول.. بعد أن لفها ما يشبه الذهول.. ورأى في السماء نجمة يحاصرها الأفول.. وهي تجاهد لكي يظل نورها يتألق.. فوق نبع ما زال يترقرق.. ورأى المجنون رجلاً حزين الملامح.. يتساءل عما وقع من مذابح.. ولماذا أصبح الإنسان عدواً للإنسان.. والضعفاء في حالة إذعان.. أمام ما يتعرضون له من طغيان؟

كان الرجل الحزين الملامح.. يقف مع رجال ليست لهم أمنيات أو مطامح.. بعد أن شاهدوا الحرائق.. تجتاح أجمل الحدائق.. ورأوا كيف تنقض الصواعق.. على كل إنسان عاشق.. وحملت الريح للمجنون بعض ما دار.. بين هؤلاء الحزانى من حوار.. ولم يندهش المجنون من الأسئلة.. لأنه يعرف أن القنبلة.. لا تحب أن ترى جمال السنبلة.

عاشق يسأل الناس من شوقه للديار البعيدة

- كيف حال البلاد؟

★ إنها تلبس الآن ثوب الحداذ

منذ أن أودع الحب سجن المكيدة

صادر الجند دفء الحليب الذي في صدور النساء

صادروا دمية من يد الطفلة الحلوة الراقدة

صادروا نسمة في جبين المساء

أغلقوا لهفة الشوق للشمس في ليلة باردة

حاصر الصمت كل الكلام الذي لم يقله الشقاء

والوجوه الكئيبة في كهف أسيادها تستبيح دم الأبرياء

والذي يعشق النور تطحنه الظلمة الحاقدة

كل ما قد بنيناه ينهار في لحظة واحدة

- كيف حال القمر؟

★ لم يعد أحد يشتهيه.. فخابت رؤاه.. وغاب

- كيف حال الشجر؟

★ بعثر الجند أغصانه..

ثم عادوا ليلقوا على الأرض ظل الخراب

- كيف حال المطر؟

★إنه مقبل.. نحن نرقبه.. إنما في ارتياب

- كيف حال الزمن؟

★ إنه الآن مستنقع خاشع لجلال الوثن

- كيف لم يتنبه أحد وارتضى الكل هذا السواد؟

★ ابتعد أيها العاشق الآن من قبل أن يقبل العسكر الهائجون

ابتعد.. قبل أن تحتويك السجون

مستباحاً.. ومتهماً بالفساد!!

.. امتطى الرجل الحزين الملامح.. صهوة حصانه الجامح.. متحسراً على الزمان الذي كان فيه الحب.. يشع بأنواره في كل قلب.. وانحدرت على وجه الرجل دمعات.. بينما كان يردد بعض الأبيات:

★ من أنت أيها الرجل الغريب؟

– أنا المجنون!

★ هذا أمر عجيب!

– ما الذي يدعوك للعجب.. يا أخا العرب؟

★ لأني أيضاً مجنون.. الناس يقولون عني إني مجنون ليلى.. وأنا وأنت الآن في مكان يسمى وادي عبقر أو أرض الجن!.

– مادمت أنت مجنون ليلى.. فاسمح لي أن أقول لك إني أعرف أخبارك.. كما أني أحفظ أشعارك.

★ هل تعرف أن ما تعرفه فيه الصواب وفيه الخطأ؟

– نعم.. فهناك قصائد أنت كتبتها فعلاً.. وهناك قصائد أخرى كتبها آخرون.. وزعموا أن قائلها هو المجنون!.

★ أحسنت.. إنهم الرواة الكاذبون.

– وهل تعرف أنت أن هناك من كتبوا عن مأساتك مع ليلى.. وإن أمير الشعراء شوقي قد كتب عنك مسرحية شعرية مشهورة.. وفي قلوب العشاق محفورة؟

★ أنا أعرف هذا بالتأكيد.. فقد كتب شوقي عني «مجنون ليلى» أما صلاح عبد الصبور فقد كتب «ليلى والمجنون».

– يا للعجب!

★ لماذا تتعجب.. يا أخا العرب؟

– لأنك لم تعش في زمان أحمد شوقي ولا في زمان صلاح عبد الصبور.. فكيف عرفت أنهما كتبا عنك؟!

★ من الإنترنت!!

– ماذا؟!

★ قلت لك من الإنترنت. فلدينا نحن أيضاً إنترنت.. لكن لا نستخدمه عن طريق الكمبيوتر.. وإنما عن طريق الأرواح الهائمة في الهواء!.

- وهل أنت الوحيد من بين شعراء زمانك الذي تستخدم الإنترنت..؟

★ لا.. لست الوحيد.. فالإنترنت هنا متاح بالمجان لمن يريد.. وأنا أحياناً أتابع الإنترنت مع صديقي جميل الذي عشق بثينة ومع صديقي كُثير الذي أحب عزة وقد أخبرني كثير منذ عدة قرون.. أن عزة تحسد الذين ينسون.. وأنها لا تشرب إلا الينسون.. لأنها بالفعل قد أحبته من صميم القلب.. رغم أنها تزوجت رجلاً لا يعرف الحب.. وهذا ما دفعها لأن تبتعد عني.. لكي تنسى ما كان بينها وبيني.. وهذا ما قاله لي كُثير ذات ليلة:

«وما كنت أدري قبل عزة ما البكا

ولا موجعات القلب حتى تولتِ

وكانت لقطع الحبل بيني وبينها

كناذرة نذراً فأوفت وحلتِ

وما أنصفت أما النساء فبغضت

إليّ وأما بالنوال فضنتِ »

- وهذا هو نفسه الذي جرى بينك وبين ليلى.

★ سأشرح لك فيما بعد هذا الأمر.. بشرط أن يكون أشبه بالسر.

.. وهنا تنهد قيس المجنون.. وهمس بصوت بالجن مسكون:

«أمر على الديار ديار ليلى

أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديارا»





مجنون ليلى يسقط بالضربة القاضية.. في أقل من ثانية

في قلب وادي الجن.. أخذ مجنون ليلى يئن.. وتآمرت عليه رياح مجنونة.. أخذت ترشقه بالإبر المسنونة..بينما أرعدت فوقه السماء.. وامتلأت الأجواء.. بحركات غريبة من أشباح سوداء.. خرجت من بئر ليس بها أعماق.. لتتهكم على مجنون ليلى دون إشفاق.

أمسك المجنون كتف مجنون ليلى بحسم.. وقال له: لابد أن تبعد عنك هذا الهم.. اتصل بليلى الآن.. واسألها هل ما زالت تحبك مثل أيام زمان.. أم أنها شربت من نهر النسيان.. وإذا كانت قد نسيتك فعليك أن تنساها..وأن تنفض عن روحك غبار ذكراها.. حتى تعيش أنت حياتك من جديد..وتبدأ رحلة البحث عن عالم سعيد.. وفي الحال قدم المجنون لمجنون ليلى موبايل نوكيا.. وقال له إن هذا الجهاز الذي تتجمع فيه حبات لوبيا وفاصوليا..يتكفل بأن تتكلم مع ليلى بشكل مباشر.. حتى لو كانت هي في أقصى الحواضر..المهم في الأمر أن يكون لديها تليفون.. تستطيع هي أن ترد عليك منه يا مجنون! مفاجأة حلوة.. غمرت قلب المجنون بالنشوة.. فقد أخرج مجنون ليلى ورقة.. كانت مطوية في جيبه ومختفية.. وقال إن ليلى قد أعطتها له قبل الفراق.. ففتح المجنون الورقة بلهفة واشتياق.. وإذا بالورقة تنبض بعدة أرقام.. مكتوبة بدقة وبنظام.. ففرح المجنون بما رآه.. وأخذ الموبايل بيمناه..وضغط على الأزرار.. وإذا بصوت

ليلى يتردد دون حائل أو أسوار:

★ آلو.. من يطلبني في هذا الليل؟.. من يشغلني عما في بيتي من حفل؟

- أنا قيس بن الملوح.. وقد أضنى الحب جسدي فترنح.. هل تذكرين ما كان بيننا من عهود..قبل أن يقيدوك بما أنت فيه من قيود؟

★ يا سيد قيس.. فلتتجرع كأس اليأس..فليس بيني وبينك أي عهد!

- أهذا هو الرد.. على من أحبك بغير حد؟

★ نعم.. فأنت مسكين لا تملك غير الكلمات..وأنا تزوجت واحداً ممن لديهم خيرات وثروات.

- لكن الحب أجمل ثروة.

★ هذا هو الوهم الذي أردت أن تغرقني فيه.

- هل هذا يعني أنك لم تعرفي الحب؟

★ طبعاً.. لأن كل من يتحدث عن الحب.. هو إنسان فارغ الجيب.. ليس لديه دفتر شيكات..ولا يملك إلا عدة أبيات.. يصور فيها بلواه.. أو يناجي فيها من يتوهم أنها لن تنساه!.. أتعرف أني في كل ليلة.. أقيم في بيتي حفلة.. وأختار من بين المدعوين.. واحداً من المجانين.. الذين يملكون الملايين.. وأتركه يتغزل.. وأفرح حين يتوسل.

- أهذا هو الحب عندك يا ليلى؟

★ مدام ليلى من فضلك يا سيد قيس؟

.. ألقى مجنون ليلى الموبايل في الرمل.. وخر مغشياً عليه فوق الوحل.. ثم أفاق ليستمع إلى عويل الرياح.. وهي تذكره بالزمان الذي راح.. مخلفاً في قلبه الجراح:

كلهم كانوا يغنون لليلى إنما مهجة ليلى لم تكن

مشغولة إلا بليلى

هكذا مرت لكي تصغي لأشعار من المجنون حتى

تتجلى

بين باقات الصديقات وتبقى.. هي أحلى

في عيون الشعراء
وقتها.. تزهو بأن الشعر مبهور بليلى وحدها كي
تتسلى
بينما المجنون يهذي بعد أن ذاب اشتياقاً واضمحلا
فوق رمل الصحراء.
.. من جمال الشعر.. ليلى أصبحت أحلى أميرة
جاءها العشاق يسعون إلى النجمة من أطراف أرجاء
الجزيرة
جاءها هذا بشعرٍ.. جاءها ذاك بخيلٍ.. جاءها آخر محفوفاً بأموال وفيرة
صارت النجمة أفعى حين تسعى في هدوء ناعم نحو
الضحايا
جاءها ورد فصالت ثم صادت عزه فوق الحشيات
الوثيرة
واستبدت كي تثيره
صارت النجمة أفعى حولها أكداس أموال وزوج
وهدايا
واحتوت مهجة ليلى كل من كان شجياً أو سخياً
بالعطايا

.. بكى المجنونان على ضعف الناس.. حين يتكالبون على المال فيفقدون أجمل إحساس.. وجأر مجنون ليلى بالشكوى.. تحت ضغط ما عاناه من بلوى:

«جبل التوباد حياك الحيا
وسقى الله صبانا ورعى
فيك ناغينا الهوى في مهده
ورضعناه فكنت المرضعا

وحدونا الشمس في مغربها

وبكرنا فسبقنا المطلعا

قد يهون العمر إلا ساعة

وتهون الأرض إلا موضعا»

.. اغتاظ المجنون من مجنون ليلى وطالبه أن يعود إلى الصواب.. وإلا فإنه سيظل يشرب من السراب.. وهنا بكى مجنون ليلى وقال:

«أعد الليالي ليلة بعد ليلة

وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا

وأخرج من بين البيوت لعلني

أحدث عنك النفس بالليل خاليا

أراني إذا صليت يممت نحوها

بوجهي وإن كان المصلي ورائيا

أحب من الأسماء ما وافق اسمها

أو أشبهه أو كان منه دانيا»

وبعد دقائق معدودات.. سمع الإثنان أصوات حمحمات.. وإذا بفارس جميل يترجل.. ويقترب منهما وهو يتمهل.. ثم صرخ في مجنون ليلى وقال:

- ابعد عنك شرودك يا قيس..إن كنت تريد أن يكون لك مكان تحت الشمس .. إنك شاعر عذب ورقيق.. ولكني جئت لأجعلك تفيق. هل تظن أن النساء.. يعشقن من يتلذذ بالشقاء.. إنهض بسرعة كي أعلمك معنى الرجولة.. فربما صرت مضرب الأمثال في البطولة.

وقف المجنون بين مجنون ليلى والفارس الجميل..وتجلى الفارق بين الجسدين.. لكل من يملك عينين.. وفجأة سدد الفارس ضربة قاضية.. فسقط مجنون ليلى على الأرض في أقل من ثانية!

٣٩

المجانين ليسوا مساكين ولا يحتاجون لدفاع المحامين

بعد أن أفاق قيس بن الملوح.. لم يعد يشكو أو يترنح.. وقرر أن ينسى عذاب روحه المجروحة.. وأن يقبل على الأكل بشهية مفتوحة.. لكي يصبح سليم الجسد.. ولا يتعرض للسخرية من أحد.. وضحك مجنون ليلى ضحكة عالية.. عندما تذكر أن سقوطه بالضربة القاضية..في أقل من ثانية.. كان بسبب ما يحمله من هم.. وليس بسبب قوة الملاكم الخصم.

فرح المجنون بقيس.. وقال له: عليك دائماً أن تهزم اليأس.. حتى يبتعد عنك شبح النحس.. وتذكر أن الحب ليس منبعاً للبلوى..ولا ليلاً طويلاً تبث فيه الشكوى.. وأكد المجنون لقيس.. أن الرجل الذي وجه له ضربة في الرأس.. ليس ملاكماً وإنما هو شاعر.. لكنه ليس ممن يبكون. وليس ممن يشكون.. فهو دائماً ينسى الماضي ليعيش في الحاضر..ولا يسمح لأي وجه ساحر.. بأن يحول حياته إلى نكد. خصوصاً أنه يعيش في عز وفي رغد. ويزعم أن جميع النساء.. هن اللواتي يقبلن عليه دون إبطاء.. ويبدو أنه أراد لك الخير.. وأن يخرجك مما أنت فيه من أسر.. خاصة بعد أن عرف حب ليلى للغدر.

هل تعرف يا مجنون هذا الشاعر؟

- نعم.. إنه عمر بن أبي ربيعة.. وقد روى لي من قبل أنه كان

يرتاد كازينو بديعة.. كما أنني التقيت معه في الليدو بباريس.. وكانت النساء تحملق فيه كأنه جوهر نفيس.

وما اسم حبيبته التي تسببت في مصيبته؟

- إن عمر بن أبي ربيعة ليس مثلك يا قيس بن الملوح.. إنه من سهام الحب لا يترنح.. وهو لا يشكو ولا يتنهد. ولهذا فإن شبابه دائماً يتجدد.. وقد رأيته في الليدو كالطاووس المختال.. وهو يرقص بين نساء من مختلف الأشكال.. ولقد ألقى ليلتها قصيدة.. أتصور أنها قصيدة رائعة وفريدة.. وقد صور فيها إحساسه بالطرب.. وألقاها أمامي وأمام بعض العرب.. وكانت صراحته بادية في القصيدة.. وأبدى رأيه في النساء بدقة شديدة.

هل تتذكر شيئاً مما قال؟

نعم يا صديقي قيس.. فاستمع الآن لما كان قد قال:

يقبل الليل فينسينا النهار
عندما يلقي على الدنيا ستار
هذه سوزي بتانجو تتلوى
هذه جين تحيي BON SOIR
ونبيذ من شفاه تتغنى
أخطف القبلة منها باقتدار
وأنا أرقص كالساحر لما
يتمشى بين أولاد صغار
قدمي تبدع إيقاعاً عجيباً
بينما النسوة حولي في انبهار
كل هذا في ستار الليل يجري
كيف بالله نرى نور النهار؟!

.. فجأة اقتحم المكان.. رجل يرصع صدره بأكثر من نيشان.. ويرتدي روباً لونه أسود.. وظل الرجل يجيل بصره فيما يشهد.. ثم قال بصوت منغم.. ودون أن يتردد أو يتلعثم:

★ هل أنت قيس بن الملوح؟

- نعم.. ماذا تريد..ومن تكون؟

★ أنا واحد من أشهر المحامين.. وقد وهبت عمري للدفاع عن المجانين.

.. على الفور تدخل المجنون في الحوار.. بل إنه تهيأ للشجار..

★ من قال إن المجانين مساكين.. وأنهم يحتاجون لأمثالك من المحامين؟

- لقد عرفت أن المدعو عمر بن أبي ربيعة.. قد ضرب قيس بن الملوح ضربة فظيعة.. وقد جئت للدفاع عن حقوق قيس.. والتنديد بما جرى له ليلة أمس.

★ ومن الذي طلب منك هذا؟

- جمعية الدفاع عن حقوق المجانين.

★ لابد أن تعرف الآن.. وقبل أن تهان.. أن عمر وقيس شاعران.. ولكل منهما شعر يجري على كل لسان.. ولا ينبغي أن يتدخل أحد بين الأصدقاء والإخوان.

- لكني دائماً أحب أن أتدخل.. وإلا عشت حياتي أتسول.

★ مادمت تحب التدخل لنصرة الحق.. فلماذا لا تحاول حل قضايا الغرب والشرق.. ولماذا تسكت إذا ارتكب الطغاة.. جرائم ضد الإنسانية وضد الحياة.. ولماذا تغمض عينيك عن صور القتلى في كل مكان.. لمجرد أن القتلة أعوان للطغيان؟

- يبدو أنك مجنون مثل قيس.. وعليك أن تعرف أن مهمتي تتركز في الدفاع عن المجانين.. وليس لي شأن بمن يجزون رقاب الناس بالسكاكين!

★ هذا هو العدل المبتور.. يبدو دائماً كالسلم المكسور.. يسقط منه من يحاول الصعود عليه.. أما المجنون فإنه يرفض أن يستند إليه.

- هذا كلام الحاقد الموتور.. كيف تقول إن العدل سلم مكسور.. ألا تخشى أن أغضب وأثور؟

★ لا يعنيني ما تظهره من غضب.. لكني أتعجب كل العجب.. ممن يقولون إنهم محامون.. لكنهم لا يتحدثون أبداً عن جرائم نيُرون!

- قلت لك إني لا أعرف شيئاً عن هذه الجرائم!

★ ألم تسمع عمن يسرقون ثروات الشعوب.. ولا يترددون في إشعال نار الحروب؟

- لم أسمع!

★ ألم تسمع عما يعانيه الفلسطينيون.. حيث يغتالهم الصهاينة المتوحشون.. ثم يقلعون من الأرض أشجار الزيتون.. ويدمرون البيوت على من فيها.. دون أن يرحموا أحداً من ساكنيها؟

- لم أسمع!

★ ألم تسمع عمن قاموا باحتلال العراق.. ونشروا فيه بذور الشقاق.. وأخذوا يتحدثون عن الديمقراطية.. بينما هم يطلقون أفاعي الطائفية؟

- لم أسمع!

★ ما الذي سمعته إذن يا حضرة المحامي؟

- أنا سمعت عن حقوق المجانين.. وجمعيات الرفق بالحيوان.. حتى يعيش كل حيوان براحة واطمئنان!!

.. في هذه اللحظات.. ظهر عمر بن أبي ربيعة بكل ثبات.. واندفع نحو قيس وقبله بحنان.. ثم قال: فليبتعد عنا هذا المحامي الآن.. فالجنون فنون.. وكل من يحب فهو مجنون.. سواء أحب امرأة واحدة.. أو أحب نساء بغير عدد ولا حصر.. فالكل يحب الحياة.. وأنا حين ضربت أخي قيس.. كنت أريد أن أبعده عن اليأس.. وأن ينسى الحب الذي يتحول إلى عذاب.. حتى لا يشرب من كأس السراب.. وحتى يدرك أن الحياة.. يتجدد فيها الحب ويأتي من كل اتجاه.. كلنا مجانين.. لكننا لسنا من الجانين.. نحن لا نحمل السكاكين.. بل ننشد القصائد ونبدع الدواوين.. وبالتأكيد فإننا لسنا بحاجة لمحامين!

٤٠

كلاب الأبنودي ...
بين الرقة والشراسة وتناقضات السياسة !!

لســـت مجنونـــاً ولكـــن الثعالـــب

جعلتنـــي أرنبـــاً بـــين الأرانـــب

منذ أن قلـت لـوحش: كيـف تطغـى

عيشتي ضاقت ولم أصبح محارب

فتســـليت بعشـــــب وبشـــــرب

واجتررت الهم في جحر المصائب

وإذا بـــــي واقـــــع في مـــــأزق

«مارقاً» صرت وتاريخي مشاغب

حـط «فيتـو» فـوق أعشـاب دمـاغي

فتدحرجت، وأُرضعت المصاعب!

... شـوهد مجنـون العـرب، خارجـاً وقـد اكتسـى وجهـه بالغضب،وهو يردد الأبيات المذكورة أعلاه، دون أن يقول لـه أحـد: الله.. الله.. وعلى الفور تجمع حوله العقـلاء، وطلبـوا منـه فيمـا يشـبه الرجاء أن يفتح لهم أذنيه لكي يحسن الإصغاء، حيث قال له أحدهم: يا مجنـون.. خفـض مـن صـوتك.. والأفضـل أن تـدخل في شـرنقة صمتك.. وقال آخر: هاتروح في داهية.. بينما قال ثالـث: هـايودودك ورا الشمس.. دفعه رجل له كرش مدبب.. وقـال لـه بصـوت باهـت

معلب: كن أرنباً مثالياً حتى تتسلى بالعشب وبالشرب.. وانزع من أضلاعك هذا القلب.. لأنه يوحي إليك بقصائد.. لن تجني منها سوى المكائد!

سكت المجنون لحظات.. ثم انطلقت من حنجرته عاصفة من التساؤلات.. بعضها مفهوم.. وبعضها ملغوم.. وبعضها مهموم.. حيث سأل العقلاء عن إمكانية تحوله من أزنب مشاغب.. لا يواجه غير المتاعب.. إلى أرنب لطيف ومثالي.. يجتر ما يجتر على امتداد اللپالي.. كما حاول المجنون أن يعرف كيف سيروح في داهية.. وهل داهية قريبة أم نائية.. وماذا إذا رفض العقلاء أن يوصلوه إليها، أو حتى أن يدلوه عليها؟!

تفرق العقلاء من الناس، وكانوا من مختلف الأجناس، وتركوا المجنون يواجه «المصير» لكن الخوف كساه عندما اختفى يوسف شاهين بشكل غامض مثير،وخيل إليه أنه يسمع نباح كلاب، فانخلع قلبه وذاب، ولم تعد إليه السكينة، إلا بعد أن تقدم منه رجُل ودود بخطوات هادئة رزينة، حيث عانقه بحرارة، وقدم له سيجارة.

همس المجنون بفرح يطل من عينيه: إزيك يا عبد الرحمن.. يا بتاع «حراجي القط» و«الخواجة لامبو العجوز» و«خالتك آمنة».. فين أيام زمان، قبل ما نبقى أرانب؟.. أنا لسه فاكر لك: «أنا ما بحبش أميركا.. ولا بأحب الغرب.. وإن كان ده في بلدنا تهمة.. قبلت أنا الاتهام».

ابتسم عبد الرحمن الأبنودي، وقال للمجنون: كيفك يا ولد العم؟.. ماذا تفعل الآن؟.. أحاول أن أتحول إلى أرنب مثالي.. ليس له هم إلا أن يجتر ما يجتر طول الليالي.. ضحك الأبنودي ضحكة مدوية صعيدية، وهو يتساءل عن طبيعة النظرية الأرنبية، خاصة وأنها أصبحت سائدة في كل دولنا العربية، وقال الأبنودي بحسم: أنا لا أهتم كثيراً بهذه النظرية لأنها بنت غير شرعية، لإفرازات الخوف من القوى الأجنبية!.. على أي حال فإني الآن مهتم بالكلاب.. وهنا.. انخلع قلب المجنون من جديد، وذاب؟! فعالج الأبنودي الأمر بهدوء، وقال للمجنون: أعتقد أنك لا تخاف من الناس، فإذا كان اعتقادي صحيحاً، فمن باب أولى، ألا تخاف من الكلاب، وينبغي أن نتذكر هنا أن بعض أصحابنا من القدماء والمعاصرين يحبون الكلاب أكثر من حبهم للناس.. ألم يقارن ابن

الرومي بين إنسان وكلب، وجاءت المقارنة لصالح الكلب:

«الكلب واف وفيك غدر

ففيك عن قَدْره سفول

وقد يحامي عن المواشي

وما تحامي وما تصول»

.. قال المجنون بفرح وقد عادت إليه بقايا من شجاعته التي كان يتحلى بها قبل أن يتحول إلى أرنب:

وأنا أتذكر أيضاً شاعر البؤس الذي مات في نفس السنة التي ولدت أنا خلالها.. أقصد.. عبد الحميد الديب.. لقد كان عبد الحميد الديب يتمنى أن يتحول الناس من ناس.. إلى كلاب.. لماذا؟.. هذا ما يوضحه هو بنفسه:

«ليت العباد كلاب، إن كلبتنا

لما تزل لحفاظ الود عنواناً

تحملت قسطها في البؤس صابرة

لم تَشْكُ جوعاً ولم تستجدِ إحساناً»

.. التقط عبد الرحمن الأبنودي الخيط بمهارة، وأشعل سيجارة، وهو يقول: أنا الآن أنطلق على نفس الطريق.. طريق ابن الرومي وعبد الحميد الديب.. صدقني.. أنا الآن مهتم كل الاهتمام بالكلاب، وما دمت قد أصبحت منها غير هياب، فإني سأروي لك حكايات عجيبة عن كلاب كثيرة، عرفتها في قريتي «أبنود» وقبل أن نفترق الآن، لابد أن أؤكد لك وللمجانين والعقلاء، على حد سواء،أن كلابي كلاب عجيبة،تجمع بين النفاق والشهامة، ولكل كلب منها علامة،وفضلاً عن هذا فإنها تجمع بين الرقة والشراسة،وإن كانت لها آراؤها الخاصة والعامة في تناقضات السياسة!





٤١

الأبنودي يضيع في الزحام .. وعمر الخيام يتزحلق في حمام !

.. في ليلة لفها بعباءته السكون، جلس عبد الرحمن الأبنودي مع المجنون، وأخذ الإثنان يقلبان صفحات التاريخ، وهما ينحتان قشر البطيخ، وفجأة ارتفع صوت المجنون، وهو يتحدث عن الإمبراطور «نيرون».. الذي كان قد صاح بمنتهى الثقة، إنه يستطيع فرض العدالة المطلقة، بينما الحقيقة أن معدته تشتاق، لالتهام وجبة صعبة المذاق، ولذا يريد أن يذوقها معه فتوات، لديهم أسنان وعضلات.. وهنا اكفهر وجه الأبنودي وقام، مطالباً بتغيير موضوع الكلام، واقترح على المجنون أن يُسمعه رباعيات الخيام، التي يؤكد أنها اكتشاف جديد وفريد، فانتعش المجنون في الحال، وتنحنح قليلاً ثم قال:

سمعت كلباً نابحاً في السحر

نادى من الحي جميع الغجر

هبوا اركبوا بغل المنى قبل أن

يُسقط سقف البيت وقع المطر

لا تشغل الكلب بعظم الزمان

ولا بذيل «القط» قبل الأوان

واردم من الشارع حفراته
فليس في حلق الليالي لبان
آن لهذا الكلب أن ينبحا
وفي سبيل العض أن يسرحا
فليس للتنكيل من مانع
ما دام نيرون الضلال صحا

.. تثاءب الأبنودي وصاح: لا يمكن للخيام أن يكون بهذا الكلام قد باح، فهذا الكلام كله نباح، ولم يكتب الخيام أبداً عن أي كلب، وإنما كان يناجي القلب، والمنطق يؤكد أن هناك فرقاً بين الكلب والقلب، فاسكت الآن يا مجنون، واتركني أتأمل في هذا السكون.. ولم يتردد المجنون في رفض هذا المنطق، وقال: ليس هناك أي فرق، فلكل كائن قلب، للإنسان قلب، وكذلك للكلب!

ما هي إلا لحظات، بعدها اكتسى بالرعب وجه الأبنودي ووجه المجنون، حيث اقترب منهم رجل عجوز، يمسك بإحدى يديه أقدم كوز، وباليد الثانية عنقود عنب، بينما تنذر عيناه بعاصفة من الغضب، حيث اندفعت من شفتيه صرخات، تحولت بعدها الكلمات إلى لكمات:

★ لقد كنت نائماً منذ عدة قرون، وصحوت الآن لأكتشف أن الناس كلهم يكذبون،وكل منهم يؤكد أنه الوحيد الصادق، ويقدم ما يزعم أنه وثائق، ولهذا تعكر نبع التاريخ الرائق!.

- اهدأ قليلاً وقل لي من أنت أيها العم الجليل؟

★ لست لك عماً، وإلا لكنت ازددت هماً وغماً.

- سامح جهلي.. وقل لي بالله عليك.. من أنت؟

.. هدأ الرجل قليلاً، وأشعل في الليل قنديلاً، وقدم للأبنودي والمجنون عنقود العنب، ثم أخذ يشرح لهما سر الغضب:

سأروي لكما كل شيء من البدء حتى الختام.. أنا أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام.. ولدت في مدينة من مدن الحب والنور.. اسمها «نيسابور».. وأظن أني قد ولدت في إحدى سنوات النصف الأول من القرن الخامس الهجري.. وأما حياتي فأنا وحدي الذي أعرف خباياها وليس أي أحد غيري.. ومن حقي الآن أن أغضب لأني كتبت مجموعة من الرباعيات.. تجمع بين الزهد واقتطاف الملذات.. وفيها من الحزن ما فيها.. مما تفصح عنه قوافيها.. ولكن المشكلة أن كثيرين جاءوا من بعدي، فنسبوا لي ما لم أقله وما لم أفعله.. وألفوا رباعيات ونسبوها بالكذب والزور لي.. أليس هذا مدعاة للغضب.. حين يقال إني كتبت ما لم أكتب.. وحين يقال إني قد حرضتُ على الفساد والمجون.. وتعديت على الجوهر المكنون؟!

قال المجنون للخيام.. بعد أن هدأ الغضب وساد الوئام.. أنا أحبك أيها الشاعر الهمام.. ولي صديق مغرم بما كتبت أنت من أشعار.. واسمه الدكتور يوسف حسين بكار.. وقد ألف عنك كتاباً جميلاً أسماه «الترجمات العربية لرباعيات الخيام»..

★ هل لك أن تذكر أسماء هؤلاء المترجمين؟

- إنهم كثيرون.. أشهرهم أحمد رامي وأحمد الصافي النجفي وجميل صدقي الزهاوي وعباس محمود العقاد وإبراهيم العريض.

★ هل ترجموا ما قلته أنا بأمانة.. أم أن في الأمر خيانة؟

- لا أستطيع أن أجيب بدقة، ولكن منهم من تعلموا اللغة الفارسية حتى يترجموا بدقة مثالية.

★ .. وأنا لا أصدقك.. خصوصاً أنني قد سمعتك تقول على لساني «سمعت كلباً نابحاً في السحر»..كما أني سمعت عن آخرين لا يعرفون اللغة الفارسية ولا حتى اللغة العربية، ومع هذا فإنهم تجرأوا وترجموا رباعياتي؟!

- هذا صحيح وأنا أتذكر واحداً من هؤلاء،واسمه أحمد سليمان حجاب.

★ هل تحفظ مما قاله شيئاً لكي أسمعه، حتى أزداد غيظاً؟!

- أرجو ألا تغتاظ أيها الخيام الهمام، فهذا الرجل مغرم بك أيما غرام.. وهذا بعض ما قاله:

سمعت صوت في السحر بينادي ع النايمين

بيصحي أهل الهوى.. وينبه الغافلين

املوا كاسات الصفا واتهنوا بأيامكم

دنيا زوال تنتهي.. وأهل العقول عارفين

طوت ايدين القدر أحباب ورا أحباب

غصون شباب انطوت جه بعد منها شباب

وسمعنا طير الصبا بيغني فوق مِنَّا

وفجأة طار واختفى واحترنا في الأسباب

... «أمرنا لله..».. تنهد الخيام وهو يطلق الآه بعد الآه، ويبلل مما في الكوز الشفاه.. بينما المجنون لا يدري إن كان ما في الكوز مما يجوز أو لا يجوز.. وفي هذه الأثناء هرب الأبنودي لينام.. وترك المجنون مع عمر الخيام.

ضحك الخيام وهو يقول:

«أفق خفيف الظل.. هذا السحر

نادى: دع النوم وناغ الوتر

فما أطال النوم عمراً ولا

قَصَّرَ في الأعمار طول السهر»

- بعد قليل.. استأذن الخيام من المجنون.. في دخول الحمام حتى يزيح عن جسده أوجاع القرون.. وجلس المجنون وحده، خائفاً أن يأتي إليه نيرون، خصوصاً بعد أن عرف أن نيرون يشعل النيران في المباني.. ثم يسأل الآخرين عن الجاني.. ويتوعد الجميع.. بأنهم لن يروا أبداً الربيع.. إلا بعد أن يسلموا له الجناة، لكي يقطع عليهم طريق الحياة.

أفاق المجنون مذعوراً على صوت ارتطام.. فقال لنفسه: يبدو أن الخيام.. قد تزحلق في الحمام.. واندفع المجنون، فلم يجد الخيام، وإنما وجد آثار صابون، عليها بصمات نيرون!.

٤٢

إشارات تاريخية وفنية

من حق قارئ «مجنون العرب» أن يربط بين رحلاته ومغامراته التي قام بها وبين الكثير من الأحداث السياسية البارزة التي شهدتها وما تزال تشهدها أرضنا العربية، فضلاً عن مناطق أخرى من العالم، من بينها روسيا وأفغانستان.

والواقع أن «مجنون العرب» قد كتب ما كتب من خلال تفاعله العميق مع هذه الأحداث السياسية البارزة، لكن الحدث الأكبر الذي شغل المجنون، يتمثل في محاولات ابتلاع العراق من جانب الإمبراطورية الأمريكية، وذلك من خلال التهديد باستخدام القوة العسكرية ضده إذا لم يكشف عما قيل إنه يمتلكه من «أسلحة دمار شامل» إلى أن تم بالفعل استخدام القوة العسكرية الأمريكية - البريطانية ضده، وتحقق الحلم الأمريكي بابتلاع العراق، بعد أن لعبت الخيانة دورها القبيح في تسليم بغداد لقوات الاستعمار الأمريكي. وقد رفض «مجنون العرب» - رغم الحزن الذي داهمه - أن يستسلم لليأس، وأخذ يراهن، وهو يمتطي صهوة الأمل، على مقاومة الشرفاء من أبناء العراق، وهم كثيرون بالطبع، لهذا الاستعمار البغيض الذي اتضح أنه يمتلك «أسلحة تضليل شامل» وبها استطاع أن يخدع الرأي العام العالمي ولو لبعض الوقت، كما اتضح أن هدف هذا الاستعمار لم يكن إسقاط نظام ديكتاتوري في

العراق، و«تحرير» الشعب منه كما قيل، وإنما هدفه «تدمير» كل مقومات الحياة، بل «تدمير» كل رموز الحضارات العريقة التي تعاقبت على أرض العراق، ثم الهيمنة المطلقة على ثرواته وخيراته، والانطلاق منها - فيما بعد - إلى دول أخرى عربية وإسلامية، بنفس الحجج المضللة والكاذبة.

لكن «مجنون العرب» يحب أن يوضح هنا أن تفاعله مع الأحداث السياسية، هو تفاعل مع جوهرها الكامن في الأعماق، وليس مع تفاصيلها العابرة والوقتية، أو مع مظهرها الخارجي، وذلك لأنه يريد أن «يتعمق» في كل حدث يتفاعل معه، لا أن «يعلق» عليه، لأن التعليق على الحدث هو مهمة الصحافة اليومية، أما التعمق فهو ما ينبغي أن ينهمك فيه الشعراء والأدباء والفنانون من خلال تفاعلهم مع معطيات السياسة، ولهذا السبب، يجد القارئ أن «مجنون العرب» قد عاش مع وقائع من التاريخ البعيد أو القريب، لكي يعيد التأكيد على المقولة العربية الشهيرة «ما أشبه الليلة بالبارحة».

★ تضم رحلات ومغامرات «مجنون العرب» قصائد عديدة، كتبها شعراء عرب عمالقة وكبار،وعلى الرغم من أن القارئ المتابع يستطيع أن يتعرف على أسماء هؤلاء الشعراء، إلا أني حرصت على وضع أبيات القصائد بين قوسين صغيرين «..» تمييزاً لها عن القصائد التي كتبها «مجنون العرب» زاعماً أنها لبعض الشعراء العرب العمالقة والكبار، بينما الحقيقة أنه هو الذي كتبها، وليس سواه، وعلى سبيل المثال فإن المتنبي بالطبع هو الذي قال:

«إذا رأيت نيوب الليث بارزة

فلا تظنن أن الليث يبتسم»

لكن المتنبي لم يقل الأبيات التالية التي نسبها له «مجنون العرب»:

تحاصرني الأحزان والليل يمتد

وطوفان هولاكو يعود فيشتد

أبعد انتظاري للنهار مؤرقا

أرى الشمس لم تشرق بما وعد الوعد

أرى جـــرح عشـــتار الأبيـــة صـــامتاً
وفي صـــمته حـــزن طغـــى مـــا لـــه حـــد

«ومن نكـد الـدنيا» عـلى النـاس أن يـروا
«عـــدواً» لهـــم مـــا مـــن إطاعتـــه بـــد

ولكننــــــي أدري بــــــأن قلــــــوبهم
بـرغم المآسـي سـوف تصـحو وتحتـد

ولهذا السبب أرجو أن يتنبه القارئ إلى وجود أقواس أو عدم وجود أقـواس، وهـو يتابع القصائد المبثوثة في ثنايا رحلات ومغامرات المجنون.

★ هناك قصائد، تصور ظواهر اجتماعية وإنسانية في المجتمع العربي – الخليجـي، وقد كتب المجنون هذه القصائد على ألسنة أشخاص من أبناء هـذا المجتمـع العربـي – الخليجي، وتحديداً في قطر، أو على ألسنة أشخاص آخرين من الوافـدين الـذين جـاءوا للعمل في دول الخليج العربية، وعلى الرغم من أن هذه القصائد عمودية ومكتوبة بلغتنـا العربية العريقة- الفصحى، فإنها تتضـمن كلمـات محليـة، بعضـها لـه أصـول في لغتنـا الفصحى، وبعضها ليس كذلك، كما تتضمن هذه القصائد كلمات مـن اللغـة الأورديـة التي يتكلمها كثيرو من الهنود والباكستانيين الذين يعملون في دول الخليج العربية.

ولابد هنا من الإشارة إلى بعض الكلمات المتداولة وفقاً للهجة الخليجية- القطرية:

- «يتطنز».. بمعنى «يتهكم» أو«يسخر».
- «فريج».. بمعنى «حي».. أو «منطقة».
- «يشلح » السروال.. بمعنى «يخلع» أو «ينزع».
- «الجوتي».. هو «الحذاء».
- «الكشمة».. هي «النظارة» الشمسية أو الطبية.
- «وين».. بمعنى «أين» بالفصحى و«فين» بالعامية المصرية.
- «متروس».. بمعنى «ممتلئ» أو «مزدحم».
- «الدلاغ».. هو «الجورب».

- «وايد».. بمعنى «كثير».

- «بنشر التاير».. أي «تمزق إطار السيارة».

- «ماكو».. كلمة عراقية شهيرة، معناها «لا يوجد».

- «الدعمة».. حادث اصطدام سيارة بأخرى.

- «الليت».. «النور».. «الكهرباء».

- «معفوس».. قد تعني «الانهماك في عمل ما» وقد تعني «تبعثر الأشياء».

- «الدياي».. هو «الدجاج».. بعد قلب الجيم ياء، ومثلها «مسيد» أي «مسجد». وكذلك «ريال» أي «رجال» وهو «الرجل».

- «الكفخ».. «الصفع».

ومن الكلمات المتداولة أيضاً، وهي من اللغة الأوردية:

- «الدوبي».. «مغسلة الثياب» أو «اللوندري» بالإنجليزية.

- «أتشا».. بمعنى «صحيح» أو «زين» باللهجة الخليجية أو «كويس» باللهجة المصرية.

- حين يتحدث الإنسان الهندي باللغة العربية أو باللهجة المحلية في الخليج، فإنه يجعل ضمير المتكلم ضميراً للغائب.. مثل «أنا يروح».. «أنا يشتغل».. «أنا يبغيى ياكل».

★ يقر «مجنون العرب» أنه ليس عضواً في أي حزب سياسي، سواء أكان علنياً أو سرياً، وأنه لم يرتكب طيلة حياته جريمة ذبح دجاجة، وإن كان قد دهس ذات مساء فأراً بسيارته، كما أنه يعترف بأنه عضو في «تنظيم المائدة» بحكم كونه إنساناً، يحب أن يأكل وأن يشرب، وأخيراً فإنه يعترف بأنه إنسان عربي، رغم كل المآسي التي شهدتها وتشهدها الأمة العربية التي ينتمي إليها أعمق انتماء.

★ ليس لدى «مجنون العرب» أسلحة دمار شامل، يمكن أن يهدد بها القراء «العقلاء» لكنه يطالبهم – بشدة – أن يتواصلوا معه عبر وسائل الاتصال القديمة أو العصرية على حد سواء .

هذا.. ويؤكد «مجنون العرب» في خاتمة هذه السطور على ضرورة التواصل معه والتفاعل مع ما قام به من رحلات ومغامرات.. وإلا فإنه قد يقوم بتحويل العقلاء إلى مجانين بصورة فجائية، ودون سابق إنذار.

مغـــامرات
مجنــــون
العـــــرب

Adventures of Crazy Arabs

(٢)

ليلة القبض
على مجنون العرب

مقامات عصرية





القبض على مجنون العرب..

مقدمة

قطع أمير الشعراء أحمد «بك» شوقي إجازته التي كان يقضيها في أحد منتجعات الدار الآخرة.. نهض، فجأة، من مكانه، كمن لدغه برغوث، مع أنه كان يبدو مرتاح البال، وهو جالس على الأريكة السندسية المفضلة لديه.. مع نهوضه المفاجئ، اكتسى وجهه بالغضب، دون أن يهتم بنظرات الدهشة التي انبثقت من عيون الحوريات المستلقيات حوله بملابسهن الشفافة، بادرته إحداهن قائلة وهي تتنهد: هل أحسست يا سيدي بالملل؟ هل ضايقتك واحدة منا؟.. كنت أظن أنك تنعم بجلستك الهادئة بيننا، خاصة أننا كلنا نسعى لإسعادك.

حاول شوقي «بك» أن يتخفف قليلاً من غضبه. قال للحورية المتنهدة: إن الأمر لا يتعلق بك ولا بسواك، فكلكن لطيفات وظريفات، لهذا سأعود إليكن، ولكن بعد أن أنفذ ما استقر عليه تفكري.. بعد ثوان معدودات، شوهد أمير الشعراء، وهو يخرج من أحد الأبواب السرية للمنتجع، ربما لكي يتجنب فضول الصحفيين، أو يهرب من كاميرات القنوات الفضائية التي تصوب نحو المشاهير. تزاحمت التساؤلات على شفاه الحوريات. إحداهن تساءلت: ما الذي أغضب «أمير الشعراء» العرب؟.. أكدت حورية أخرى: هذه أول مرة أرى فيها وجهه قد اكتسى بالغضب. أضافت

حورية ثالثة: نحن لم نقصر في ملاطفته منذ أن وفد إلى هذه الدار الآخرة يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ميلادية. ردت عليها حورية بجوارها وهي تتمطى: ربما تكون طبيعته البشرية قد عادت إليه، فأصبح يعرف الغضب وسواه من الانفعالات التي تضر صاحبها قبل غيره. قالت الحورية التي كانت تتنهد أمام شوقي «بك»: أنا أعتقد أنه قد اشتاق إلى وطنه مصر، ويريد أن يزوره ولو بمجرد الروح.. لقد سمعته أكثر من مرة، يتمتم وهو شبه نائم:

وطني لو شُغلتُ بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي

اعتدلت الحورية ثم تثنت بدلال، وهي تقول: على أي حال، فإننا سنعرف السر عندما يعود إلى منتجعنا هذا، كما وعدني، وهو صادق الوعد.

ما لم تعرفه الحوريات أن أمير الشعراء قد اندفع كالمدفع الرشاش، قاصداً مقر «الانتربول الفضائي» حيث التقى مع كبار الضباط العاملين فيه، مطالباً إياهم بأن يتعاونوا مع ضباط «الإنتربول» الذين يعملون على سطح الكرة الأرضية، لكي يحققوا له ما يريد... هدف أمير الشعراء واضح ومحدد.. أن يتم إلقاء القبض على مجنون العرب بأية وسيلة. هذا الهدف يتطلب بالطبع خططاً سرية بارعة، حتى لا يتمكن المجنون من الإفلات، بفضل ما لديه من حيل وأسلحة عجيبة، من بينها «الصاروخ العابر للزمان» و«طاقية الإخفاء» و«بساط الريح» و«القمقم النحاسي المسحور».

عقد أحد الضباط حاجبيه على جبينه اللجيني الذي تتغنى به فيروز، ثم قال بأدب شديد: لماذا تتوجه إلينا بهذا الطلب يا سيدي الأمير؟.. أنا- شخصياً – أعرف أن مجنون العرب إنسان مسالم، وهو لا يستخدم ما لديه من حيل وأسلحة إلا لكي يكتشف طباع الناس وأهواءهم خلال سنوات الحياة المتاحة لكل منهم على سطح الأرض. اصطبغ وجه أمير الشعراء بالأزرق والأحمر، وهو يقول: يا حضرة الضابط الموقر.. يبدو أنك طيب جداً، فهذا المجنون ليس مسالماً كما تظن، وقد جئت إلى هنا لكي أطالب بالقبض عليه، لكي يقر بما ارتكبه ضدي. وعلى العموم فإني لا أريد إيذاءه.. كل ما أريد أن أقوله له هو «للصبر حدود». أريد أن أنبهه إلى بعض ما يستوجب التنبيه، وبعدها

يمكنني أن أقول «لكل حادثة حديث».

اقترب من أمير الشعراء ضابط آخر متجهم الوجه، ويبدو على ملامحه أنه من أقارب «شيلوك» المرابي اليهودي الذي فضحه وليم شكسبير منذ عدة قرون. قال الضابط «الشيلوكي» القلب: إن كل ما لدينا من تقارير، يؤكد أن مجنون العرب إنسان شرير، وهو واحد ممن يعادون «السامية» بدليل أنه يكره وجبة «الكوشير» ويفضل عليها «الفول» و«الطعمية» ونظراً لأني متعمق في دراسة الخلافات العربية – العربية وسبل تفكيكها لا تأجيجها، فإني لن أرحم هذا المجنون الشرير، ولن أتركه يفلت من العقاب، لكي يعرف أن لدينا هنا ما هو أقسى وأعنف من «جوانتانامو» و«أبو غريب» وسواهما. كل ما عليك يا أمير شعراء العرب أن تثق بي ثقة عمياء، فأنا المؤهل وحدي للقبض على مجنون العرب.

كما هي عادته، كان المجنون يتجول ببساط الريح في فضاء الكرة الأرضية، محاولاً ألا ينظر إلى الأرض ذاتها حتى يبعد عينيه عن رؤية شلالات الدماء البشرية، لكنه فوجيء بأن مجموعة من الأطباق الطائرة تحيط به من كل جانب، ورأى أحدها يكاد يلتصق ببساط الريح، وسمع صوتاً محملاً بالشر، تتدحرج منه كلمات متعثرة بلغة عربية ركيكة الأداء: إحنا بنريد تعطينا من وقتك خمس دقايق يا سيد مجنون، إنزل على الأرض حالاً وإياك تهرب. قال المجنون لنفسه إن «الكثرة تغلب الشجاعة» فأخذ يهبط اضطرارياً، وبمجرد أن هبط، حاصره ملثمون كثيرون بعد أن خرجوا من أطباقهم الطائرة، وحملوه معهم، حيث سلموه، بعد أن ضربوه،للضابط «الشيلوكي» القلب،وتم وضع المجنون داخل قفص شائك، تسيل على أسلاكه قطرات دم، وسمع «أمير الشعراء العرب» من يقول له: الحين.. تقدر تسوي خلافاتك العربية – العربية مع مجنون العرب!

أحس شوقي «بك» بطعم الندم، لا في حلقه،بل في روحه. لهذا لم يتوجه بأية كلمة شكر للضابط «الشيلوكي» القلب، وإنما اقترب – بهدوء – من الضابط الذي كان يعقد حاجبيه على جبينه اللجيني ورجاه أن يخرج المجنون من القفص، حتى يستطيع أن يناقشه بشأن نقاط الخلاف التي لم يكن المجنون يعرف عنها شيئاً.. حقق الضابط رجاء شوقي «بك» الذي دخل على الفور في صلب موضوع الخلاف.

- سامحني يا مجنون، فأنا لم أقصد أبداً أن أؤذيك، لكني سمعت أنك تنوي الإساءة لي!

★ هل يُعقل أن أسيء إلى شاعر عبقري، أحببته وما زلت أحبه من كل قلبي؟

- هذا ما سمعته. لهذا أرجوك أن تجيب بصدق. هل صحيح أنك تنوي إصدار كتاب جديد، تروي فيه أسرار مغامراتك وشطحاتك الغريبة؟

★ هذا صحيح.

- وما عنوان هذا الكتاب؟

★ أنوي أن أسميه «مجنون العرب مع الحمار والخروف والنعامة».

- لكني سمعت عن عنوان آخر غير هذا!

★ معك حق يا شوقي «بك».. لقد كنت أنوي - في البداية - أن أسمي الكتاب "مجنون العرب مع أمير الشعراء والحمار والخروف» ثم أدركت - بعد أن فكرت - أن هذا العنوان غير لائق، لأنه قد يوحي بالمساواة بين الإنسان والحيوان، وبين أمير الشعراء والحمار والخروف، ولهذا عدلت عن هذا العنوان، واكتفيت في العنوان الجديد بالحمار والخروف وأضفت إليهما النعامة.

- إني أحب صراحتك يا مجنون، لكني أريد أن أقترح عليك عناناً جديداً، ينطبق على ما أنت فيه الآن.

★ ما هو هذا العنوان؟

- «ليلة القبض على مجنون العرب».. أعتقد أن هذا عنوان مناسب.

★ وهو كذلك يا شوقي «بك».

- الآن قل لي.. كيف أساعدك لتخرج من هذه الورطة التي وضعتُك فيها منذ أن اكتسى وجهي بالغضب؟

★ لا تقلق أيها الأمير.. يا صاحب القلب الكبير.. عندي من أسلحتي ما يتكفل بعودتي آمناً إلى حيث كنت!

فجأة لم يعد أحد يرى المجنون.. في لمح البصر، وضع على رأسه «طاقية الإخفاء»

وانطلق في رحلة العودة إلى الأرض، بينما أصيب الضابط «الشيلوكي» القلب بما يشبه«الصدمة والترويع» وهو الذي كان يحلم بأن يصبهما على رأس المجنون، أما أمير الشعراء، فإنه تمهل قليلاً، ربما ليتأكد أن المجنون قد اختفى تماماً عن الأنظار، وبعد أن اطمأن قلبه، قرر العودة من جديد إلى نفس المنتجع الذي كان قد غادره.

استقبلت الحوريات شوقي «بك» وهن فرحات مبتهجات، أما هو فإنه لم يكن مغتبطاً تماماً، بعد أن لاحظ ما لم يكن قد تنبه إليه من قبل، فقد رأى عدة حوريات، كل منهن ترتدي فستاناً من الفساتين التي كانت ترتديها «شهر زاد» على امتداد «ألف ليلة وليلة» بينما رأى حوريات غيرهن، ترتدي كل منهن فستاناً من فساتين عارضات الأزياء الأوربيات في باريس ولندن وميلانو، كما رأى أخريات محجبات ومنقبات، ورأى غيرهن قانعات بارتداء قطع حريرية أصغر من «ورقة التوت» التي كانت «حواء» تستر بها ما أرادت أن تستره. تساءل أمير الشعراء عن سر هذه الخلطة الغريبة، وعما إذا كان التنوع يدل على خصوبة الحياة وثرائها، أم أنه يؤكد أن الفوضى قد وصلت إلى أقصى مداها، حتى عند الحوريات؟!

★ ★ ★

«المجنون ليس أنا..» هذا ما قلته من قبل، وأحب أن أؤكده الآن بكل وضوح، حتى لا يظن العقلاء بي ما قد يظنون، فيتجنبني بعضهم أو يهرب من طريقي غيرهم. وفيما يتعلق بحكاية القبض على مجنون العرب، ونجاحه في الإفلات والهرب فإنه - شخصياً - هو الذي رواها لي، بحكم الصداقة العميقة بيننا.

طبعاً تترتب على الصداقة أعباء ومسؤوليات، يعرفها العاقل والمجنون على حد سواء، ومن هذا المنطلق طلب مني صديقي مجنون العرب أن أسجل ما يرويه لي من مغامراته ورحلاته، لأنه- كما يزعم- لا يجد الوقت الكافي لتسجيلها بنفسه، وقد وافقتُ على هذا الطلب، مشترطاً عليه أن يتحمل هو وحده المسؤولية الكامنة عما ورد في هذه المغامرات والرحلات، تماماً كما حدث في الكتاب الأول «مجنون العرب - بين رعد الغضب وليالي الطرب» والحقيقة أن المجنون لم يعترض على هذا الشرط، ثم قام على الفور بإهدائي مجموعة جميلة من الأقلام والأوراق، لكي أتحمس في تدوين مغامراته ورحلاته دون تلكؤ أو تباطؤ، فضلاً عن أنه أهداني بعض تذكاراته الشخصية

التي يرى أنها نفيسة وذات قيمة تاريخية، ومن بين تلك التذكارات، البنطلون «الجينز» الذي ارتجاه امرؤ القيس عندما قرر التخلص من ماضيه العربي، لكي يتحول إلى إنسان متمدين عصري، فضلاً عن «برذعة» حمار كان قد حاول التخلص من حموريته العريقة،وأن يتمرد على الواقع الذي عاش في إطاره.

يعرف الذين قرأوا الكتاب الأول أن مجنون العرب قد التقى مع كثيرين من الشعراء العرب الذين غابوا عن الدنيا منذ قرون، ومن بين هؤلاء امرؤ القيس وعنترة بن شداد وزهير بن أبي سلمى وعمر بن أبي ربيعة ومجنون ليلى قيس بن الملوح. ويعرف الذين قرأوا الكتاب الأول أيضاً أن المجنون – كما يزعم – قد واجه نيرون بشجاعة، كما تصدى لهولاكو ببراعة ووقف في وجه الإمبراطور طائش بن راعش الذي يقتلع الخضرة والحشائش،ويرتكب الفواحش. أما من ناحيتي فإني أعلنت وقتها براءتي من الآراء والمواقف المتهورة التي أبداها هذا المجنون تجاه الملوك والأباطرة والرؤساء، وأكدت – بشكل واضح – أنه يتحمل، وحده، عاقبة ما قد تصل إليه الأمور مع أي ملك أو إمبراطور أو رئيس، كما أنني أكدت، دون أن أتعرض لأية ضغوط خارجية أو داخلية أنني أحب كل الملوك والأباطرة والرؤساء، وأرى أنهم جميعاً من المصلحين الذين لا يبغون في الأرض فساداً، وكما هو شأن كل العقلاء، وبالذات أولئك الذين يسمون أنفسهم «مثقفين» فإني دائماً أبايع كل حاكم، وأرجو له طيب الإقامة على كرسي الحكم، أما إذا انقلب – لسبب أو لآخر– من على الكرسي، فإني أبايع من يجيء بعده دون أي تأخير،وشعاري في هذا هو المثل الشعبي المصري «اللي يتجوز أمي.. أقول له يا عمي»!

يبدو لي أن المسألة أسهل في هذا الكتاب الثاني، وذلك لأن المجنون لا يواجه فيه نيرون أو هولاكو أو غيرهما، وإنما يلتقي مع حمار، ويتعاطف مع خروف، أو يتعقب ديكاً من الديوك، ويحاول مساعدة نعامة كانت بائسة ويائسة من إصلاح واقعها المتردي. ولهذا السبب فإني مطمئن – في هذا الكتاب الثاني – أني لن أتعرض لشنق أو لإطلاق الرصاص أو لسيارة مفخخة أو للاعتقال أو الخطف، فكل الذين يلتقي معهم المجنون أو معظمهم، هم من الحيوانات، وليسوا من بني آدم الذين قال عنهم – فيما مضى – أبو العلاء المعري:

أفضل من أفضلهم صخرة
لا تظلم الناس ولا تكذب

قد يقول لي أحد العقلاء، قاصداً أن ينبهني أو أن يخيفني: ولكن هناك حيوانات مفترسة، وهنا أقول له وأنا شبه مطمئن إن المجنون لم يلتق في معظم مغامراته ورحلاته الجديدة إلا مع حيوانات أليفة، طيبة ومطيعة، فهو لم يلتق مع الأسد أو النمر أو الفهد أو وحيد القرن. ولكن لابد من الاعتراف بأني شخصياً قد تحدثت عن هؤلاء وسواهم مع المجنون خلال عدة جلسات سرية، حيث اندمجنا في قراءة أو إعادة قراءة مجموعة من الكتب التي تجرأ أصحابها ووصفوا فيها صفات الأسد والنمر والفهد ووحيد القرن، ومن هؤلاء الذين تجرأوا بل تهوروا «أيسوب» الإغريقي و«لافونتين» الرنسي ومن عندنا«أمير الشعراء» بلحمه وشحمه، وكذلك «الجاحظ» و«الدميري» من الأدباء العرب القدامى.

ولابد هنا أيضاً أن أنبه العقلاء إلى أن كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للأستاذ العلامة والقدوة الفهامة الشيخ كمال الدين الدميري، هو كتاب يجمع بين العقل والجنون، وبين الحكمة والخرافة، على سبيل المثال، فإن الدميري أراد أن يعظ الناس، ويشرح لهم أضرار الخمر، فروى لهم حكاية خرافية بكل معنى الكلمة، أثناء حديثه عن الطاووس، حيث قال: «حُكي أن آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس فذبح عليها طاووساً فشربت دمه، فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه، فلهذا شارب الخمر تعتريه هذه الأوصاف الأربعة، وذلك أنه أول ما يشربها وتدب في أعضائه يزهو لونه ويحس كما يحس الطاووس، فإذا جاءت مبادئ السكر لعب وصفق ورقص كما يفعل القرد، فإذا قوي سكره جاءت الصفة الأسدية فيعبث ويعربد ويهذي بما لا فائدة فيه، ثم يتقعص كما يتقعص الخنزير ويطلب النوم وتنحل عُرا قوته..».

هذا مثال من مئات الأمثلة التي تدل على ما في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» من خرافة، وهناك بالطبع مئات الأمثلة الأخرى التي تدل على ما في نفس هذا الكتاب من علم وحكمة، ومن هنا فإني أرى أن كتاب الدميري مفيد حقاً لكل من المجانين والعقلاء على حد سواء، شأنه في هذا شأن كثير من الكتب العربية القديمة التي تمتزج فيها الخرافة بالعلم!

أعود الآن إلى هذا الكتاب الذي اقترح أمير الشعراء أحمد «بك» شوقي أن يكون عنوانه «ليلة القبض على مجنون العرب» حيث تبدأ أولى المغامرات بسهرة مطولة جمعت - بالمصادفة - كلا من المجنون وأمير الشعراء في ملهى «الليدو» بباريس، وكان المجنون قد احتال، فسمى نفسه «رمسيس» حتى يهرب من ملاحقة الجواسيس، نظراً لأن اسمه العربي قد يوقعه في مآزق أو مشكلات، أقلها هو اتهامه بأنه «إرهابي» أو «أن هناك صلات مشبوهة تربطه بالقاعدة».. روى المجنون لشوقي «بك» حكاية قطة أصبحت في ورطة، بعد أن جاءها في المنام أن الفأر قد تعهد بأخذ الثأر، والحقيقة أن ما أحست به القطة من ورطة، هو نفس ما يشعر به الطغاة الأقوياء حين يرون أن الأمور قد أفلتت من أيديهم وعلينا أن نتذكر هنا منظر «شاوشيسكو» ديكتاتور رومانيا بعد أن ظل يحاول أن يهرب من مصيره المحتوم دون جدوى!

بعد السهرة المطولة مع أمير الشعراء، أخذ المجنون يتسكع في الشوارع والحارات، إلى أن التقى مع حمار، يحاول التمرد على ما في الحياة من انحطاط وانحدار، وقد اعترف هذا الحمار للصحافة، بأنه لا يحب النظافة، وصدر قرار بقطع ذيله، بعد اتهامه بفضح الأسرار، فأخذ يبحث عن وسيلة للفرار، بعد أن توعده السيف البتار، وبعد نجاته من عدة كمائن تحايل كي يتحول من حمار إلى مواطن لكنه ما لبث أن واجه الناس مؤكداً أن معظمهم وسواس خناس، وبعد هذه المواجهة كان لابد له أن يقرر العودة للأصل حتى يلتئم الشمل مع الأهل.

بعد عودة الحمار إلى حظيرته، التقى المجنون مع نعامة، ضلت خطاها سكة السلامة، وكان المجنون قد عرف من «الدميري» حكاية عجيبة تروي أن النعامة قد ذهبت لكي تطلب لها قرنين، حتى يتسنى لها أن تدافع بهما عن نفسها إذا اقتضت الضرورة، لكن الناس الظالمين بدلاً من أن يعطوها القرنين قطعوا لها الأذنين، ومن يومها لم تعد تسمع حتى أعلى الأصوات!

تحمس المجنون بشهامة لأن يساعد النعامة، وهذا ما تحقق بفضل صديقه «المارد» العملاق الذي يقدم له خدمات جليلة، حيث يقوم باستدعائه من القمقم النحاسي المسحور، وعلى الرغم من أن المارد قد ساعد النعامة في استرداد ما كان لها من أذنين، إلا أنه «رفض الخوض في أي حديث.. يتعلق بشهرة النعامة في الجري الحثيث.. لأن ما

كانت تتحلى به من عنفوان.. قد أصبح في خبر كان.. أما الآن فإنها لا تحصل إلا على درجة صفر.. في كل مسابقات هذا العصر..».

تقديراً لما أهداني المجنون إياه من أقلام وأوراق لابد أن أستطرد فأشير إلى أنه قد التقى مع أحد الديوك، وقد أكد هذا الديك أن الدجاج، أصبح يبيض الآن بدون مزاج، ونظراً لأن هذا الديك كان من الماكرين فإنه حَبَكَ تمثيلية مكشوفة، محاولاً أن يعيد بها شعبيته المفقودة بين جموع الدجاج، وملخص هذه التمثيلية أن يقفز هذا الديك من أعلى سور. محتجاً على إنفلونزا الطيور!

على امتداد أربع حلقات أو «مقامات» يستطيع العقلاء أن يتعرفوا على شخصية «خروف» يحاول أن يتمرد على الواقع بل أن يتجاوزه لكي يهرب من المصير المحتوم، فقد أكد هذا الخروف للمجنون أنه «ضحية» وأنه سيحاول إقناع مجلس الأمن بأن ينظر في قضيته التي تتعلق بقيام المسلمين بذبح أقاربه وبني جنسه باستمرار وخصوصاً في «عيد الأضحى» وقد تأكد الخروف أن أكبر المحرضين على ذبح أقاربه وبني جنسه هو الشاعر القطري – العربي – المسلم محمد بن خليفة العطية الذي أرسل للمجنون رسالة «موبيل» يطالبه فيها بعدم التعاطف مع القضية الخروفية، وهذا هو النص الحرفي للرسالة:

«أيها المجنون ما جدوى القضية
بعد أن تقضي على الكبش المنية
إنما كبشك قربان «طليق»
فاشحذ السكين وانحره هدية
ودع اللغو مع الكبش فإنَّ
اللغو لا يمنع أقدار الضحية»

لم يتجاوب المجنون مع رسالة صديقه الشاعر محمد بن خليفة العطية، وأخيراً ارتاح الخروف من التفكير بعد أن قرر التحول إلى خنزير، لكن أغرب ما جرى هو أن هذا الخروف قد وقع في مأزق جديد بعد أن تحول إلى خنزير، فقد رآه أحد جيران المجنون،

وهو مستر «سيمون» - الهندي المسيحي، وحاول أن يربطه بحبل متين.. بعد أن تصور هذا الجار أنه أمام خنزير سمين.. وأنه من الممكن تحويله إلى وليمة شهية، يدعو لها أصدقاءه الذين يدينون بالمسيحية. كان لابد من البحث عن حيلة جديدة، وهكذا استدعى المجنون صديقه «المارد» وأمره أن يحول الخروف إلى بقرة، مستعيناً في هذا بطقوس كتاب «مسخ الكائنات» للشاعر الروماني أوفيد، والذي ترجمه إلى لغتنا العربية ترجمة رائعة الكاتب الفنان الدكتور ثروت عكاشة، وهكذا تجلى الخروف في هيئة بقرة.. ولم يعد أحد يقتفي أثره، لا من المسلمين ولا من المسيحيين، خاصة بعد أن حمله «المارد» وأوصله إلى الهند وقد أصبح الخروف - بهيئته البقرية الجديدة - معبوداً للهندوس الذين يعبدون الأبقار.. المشكلة الجديدة، وهي مشكلة داخلية هذه المرة وليست خارجية، أن الخروف تحول في الهند إلى طاغية مستبد، فاغتاظ المجنون وأرسل إليه مهدداً بإلقائه في أبشع هاوية لكي يلقى نفس المصير الذي يلقاه الطغاة من البشر.

بعيداً عن الحمار والنعامة والديك والخروف، التقى المجنون كذلك مع إنسان ليس من لحم ودم، وهو الذي يسمونه «الروبوت» أو «الإنسان الآلي» أما مكان اللقاء فهو سطح كوكب المريخ الذي وصل إليه المجنون بصحبة صديقه المارد المطيع.. كان المجنون يتصور أن كوكب المريخ، لابد أن يكون مملوءاً بالبطيخ، طالما أن لونه أحمر، أو أن سكانه الذين انقرضوا هم من الشيوعيين الذين يرفعون الأعلام الحمراء، لكن أغرب ما حدث يتمثل في أن «الروبوت» باح للمجنون بما ينوي أن يفعله حين يصبح أكثر ذكاء وقدرة على الاستقلال في التفكير وفي الحركة.. أكد «الروبوت» أنه سيتمرد على أوامر الذين أرسلوه من الأرض إلى المريخ، لأنه عرف نواياهم الخبيثة، فهم يريدون استغلال العلم في الشر، وليس في الخير الذي ينفع الناس ويجعل حياتهم أكثر جمالاً، ونظراً لخطورة الكلام الذي باح به «الروبوت» لابد لي أن أنقل النص الحرفي لكلامه، حتى يتحمل وحده المسؤولية، ومما قاله «الروبوت» بالنص:

«.. إن المتجبرين من الآدميين.. يريدون أن يبنوا فوق المريخ زنازين.. لأن زنازين الأرض لم تعد كافية.. رغم أن قتل السجناء يحدث في كل ثانية».

عاد المجنون من المريخ، ليلتقي أو يتعرف على نساء مختلفات، منهن من تحولت أجسادهن إلى سلع تُشترى أو تؤجر لطالبي المتعة من الرجال وقد رق قلب المجنون

وهو يقول: «... من الليدو إلى كازينو بديعة.. يظل أمثال عمر بن أبي ربيعة.. يتفحصون جمال الزهرات.. ويتذوقون نبيذ الرغبات.. بينما ترقص الزهرات بسيقانهن العارية.. في ليالي المدن القريبة والنائية.. ولا مكان لمن تظل باكية.. فعلى كل زهرة أن تبدو زاهية. وتتظاهر بأن روحها من الهم خالية. «ومن ناحية أخرى، فإن المجنون الذي يعرف قيمة الحب» تشاجر مع «كارمن» وأكد لها أن عاشقها ليس بخائن.. وتجول المجنون مبتعداً غن «كارمن» الغجرية الأسبانية، ليتعرف على مصير «ذكرى» المطربة التونسية، ثم رأى بعينيه أفعى غادرة.. تتسلى بامرأة فاجرة.. لكنها تزعم أنها طاهرة.. كما رأى «ليلى العامرية» وهي تتأرجح بينما ظل قيس بن الملوح يترنح، وهو يقول:

يبوح القلب دوماً باشتياقي

لليلاي المريضة في العراقِ

أرى جسداً تفتته المآسي

على أرض تلن من الشقاقِ

وتحلم بالنهار يبث فيها

شموساً للتناغم والتلاقي

ولكن كيف يشفيها طبيب

يدس السم في جسد الوفاقِ؟

قلت من قبل إن المجنون – في هذا الكتاب الثاني – يلتقي مع حيوانات، حيث يتعاطف مع حمار وخروف، لكن هذا لا يعني أنه لم يشاهد نماذج من الرجال الذين يُفترض أنهم من الآدميين، لكن هؤلاء ليسوا كثيرين على أي حال ومن هؤلاء «السيد المهاب» الذي قال لأحد أعوانه:

نادِ المثقفَ واعطه بقشيشا

وإذا تلكأ.. وفه التلطيشا

ومن هؤلاء أيضاً «المهووس الأحمق» الذي أوقع نفسه في مأزق. و«مهبوش بن مرعوش» الذي يتصور أنه أقوى من كل الوحوش.. ونظراً لإدراك المجنون لكل وسائل

الخداع التي يلجأ إليها الطغاة، فإنه قال لي بالحرف الواحد إن إعلان الذئاب.. عن تغيير الثياب.. لا يعني أنها بلا أنياب، وقال المجنون لي إنه سمع الذئب الأكبر يقول: «.. كل منا سيرتدي صوف خروف.. أما الفعل فسيظل كما هو مألوف.. وبدلاً من أن نوصف بأننا متوحشون أجانب.. ويأتينا اللوم من كل جانب.. فإننا سنصبح قوة متعددة للنهش.. وهذا ما سيطمئن قلب كل جحش».. وعلى الرغم من أن «مجنون العرب» ظل حزيناً أو شارداً أو متململاً أو مغتاظاً وهو يروي لي ما ضايقه، فإنه أكد تمسكه بالأمل.. فمن يدري؟.. ربما استطاع «الإنسان الآلي» أو «الروبوت» أن يُسخر العلم لخدمة الناس، بدلاً من القضاء على الضعفاء منهم.. من خلال التمسك بالأمل، اختتم المجنون ما رواه وهو يؤكد أن «الليل تدحرج في الغابة.. والنور يعانق أحبابه».

مرة أخرى أؤكد أن «المجنون ليس أنا».. والمجنون وحده هو الذي يتحمل مسؤولية ما رواه لي، أما أنا فلم أقم إلا بتسجيل مغامراته ورحلاته، بعد أن أهداني مجموعة جميلة من الأقلام والأوراق، ومن ناحيتي فإني لست مهتماً بأن يصدق العقلاء ما رواه المجنون أو أن يكذبوه أو أن يطالبوا بالقبض عليه، كما فعل أمير الشعراء شوقي «بك» فالمهم أني شخصياً بريء ومطيع ولا أحب التمرد، وإنما أحب أن أكرر ما قاله «الواعظ» في «مأساة الحلاج» لأستاذي العظيم صلاح عبد الصبور:

باح...!
بم باح، لكي تأخذه الشرطة؟
لا أدري،وعلى كل، فالأيام غريبة
والعاقل من يتحرز في كلماته
لا يعرض بالسوء
لنظام أو شخص أو وضع أو قانون
أو قاض أو وال أو محتسب أو حاكم

«حسن توفيق»



المجنون يسمي نفسه رمسيس.. ليهرب من ملاحقة الجواسيس

خلال إحدى جولاته في باريس.. سمى المجنون نفسه «رمسيس».. متصوراً أن هذا الاسم.. يبعده عن المكائد التي لا تجلب إلا الهم.. خصوصاً وأن هناك ولعاً بالحضارة الفرعونية.. في قلب كل فرنسي وفرنسية.. وهكذا أنكر المجنون أنه عربي.. حتى لا يقال إنه إرهابي.. وحتى يبتعد عن ملاحقة الجواسيس.. ويخطف – في نفس الوقت – قلوب بنات الفرنسيس.. ممن تتميز أجسادهن بالرشاقة.. وتجيد كل منهن التنهد قبل النوم وبعد الإفاقة.. كما تتبع كل منهن في الموضة أدق المقاييس.. لأنهن يعرفن الفرق بين النساء والجواميس.. ويرفضن أن تتحول المرأة إلى جاموسة.. وإن كن لا يرفضن أن تعمل جاسوسة.. طالما أن إغراءها.. يتكفل بجعل الحمقى يندفعون وراءها.. لكي يُقبلوا التراب تحت قدميها.. ويخبئوا أسرارهم ما بين نهديها!.

زاغ المجنون من قطة كانت تلاحقه وهي تموء.. ودخل ملهى «الليدو» بكل هدوء.. واحتار قليلاً إلى أن اختار مائدة.. اتخذ منها لنفسه قاعدة.. يراقب منها حركات النساء.. ويستمتع بما حوله من لهو ورقص وغناء.. إلى أن أقبلت نحوه قطة لطيفة.. تستر جسمها بأوراق توت خفيفة.. حيث أشعلت الشمعة التي أمامه.. وسألته – بلطف – عما يثير اهتمامه.. وماذا يفضل في العشاء.. ومن أي بلاد الأرض جاء:

★ اسمي «مونيكا باريس».. وأنت من تكون يا «خير جليس»؟

- أنا «رمسيس»!

★ من أقارب «إيزيس» و«أوزوريس»؟

- هذا ما كان.. أما الآن.. فهناك ملهى باسمي في مصر.. ودور للسينما بلا حصر.

★ هذا يعني أنك لا تعيش الآن سنوات المجد؟

- لكل بحر جزر ومد.

★ إذن أتركك الآن مع ذكرياتك.. وأتمنى أن تحقق كل أمنياتك.

بعد قليل تلفت المجنون حواليه.. فرأى رجلاً تطل العبقرية من عينيه.. لكنه أحس أنه ليس غريباً عليه.. وكان الرجل يتمتم بين الحين والحين.. بشعر عربي مبين:

«مال واحتجب | وادعى الغضب

ليت هاجري | يشرح السبب

عتبه رضى | ليته عتب

عَلَّ بيننا | واشياً كذب»

بعد أن سمع المجنون ما سمع في اللحظة والتو.. اختلطت في ذهنه قواعد اللغة والنحو.. وخاف أن يقع في خطأ أو سهو.. لأنه أدرك أن الرجل هو أمير الشعراء.. ورأى المجنون دون إبطاء.. أن يتأكد من الأمر.. كان لابد أن يلجأ إلى الشعر.. فقال على الفور:

«يا جارة الوادي» رجعت مؤملاً

أن آكل البرقوق من يمناك

فتبعثرتْ لغة الكريز وزحلقت

رجليَّ في أرض الندى رجلاك

نظر أحمد شوقي للمجنون في غضب.. وقال له: ما هذا الذي تقول يا أخا العرب؟.. إذا كنت تحب الكرز والبرقوق.. فإني مستعد أن أشتري لك منهما أكثر من صندوق..

لكني أرجوك أن تتوقف عن الهزل.. لأني لم أقل أبداً مثل هذا القول.

أدرك المجنون أن الرجل هو «شوقي بك» بالفعل.. فأحس كأنه قد غرق في الوحل.. وعلى الفور قام من مكانه بسرعة.. واندفع ليقبل أشهر صلعة.. صلعة أمير الشعراء.. وأكد له وهو يجهش بالبكاء.. أنه لم يكن يقصد الإساءة.. بقدر ما كان يريد التأكد أن الرجل الجالس إزاءه.. والذي تشع العبقرية من عينيه.. هو أمير الشعراء الذي لا يعلو أحد عليه.

ارتاح «شوقي بك» واتخذ هيئة الطاووس.. وهو يأمر المجنون بالجلوس.. لكي يسقيه من الشراب ما يشاء.. طالما أن هناك من يتذكرون أمير الشعراء.. في زمن عربي يخلع الرداء.. ويُقبِّل أقدام الغرباء الدخلاء.. بمجرد أن يعرف أنهم أقوياء.. وقبل أن يسأل «شوقي بك» المجنون.. عمن تراه يكون.. قال له: طمئني عن الأحوال.. أما زال العرب والمسلمون يواجهون الأهوال؟.. وهنا ردَّ المجنون وقال:

«إلام الخلف بينكمو إلاما
وهذي الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض
وتبدون العداوة والخصاما؟»





الأرض ليست على مقاسي..
وجوها يمطر المآسي

قال أمير الشعراء شوقي «بك» للمجنون.. الآن أود أن أعرف من تكون.. طالما أننا أصبحنا صديقين.. لكني بالطبع لا أريد أن أعرف ما تراه العين.. فهذا من أسهل الأمور.. ولا مجال فيه بالتالي لأحاديث قد تدور.. ما يهمني حقاً هو أن أعرف حقيقتك.. خاصة بعد أن لمستُ أن طبيعتك.. تميل إلى اللهو والضحك والفرفشة.. وإن كنت أشعر أنك لا تحب المظاهر المزركشة.. فهل – يا ترى – أنا فعلاً بطبيعتك عالم.. أم أنني مجرد واهم؟!

ما هي إلا لحظات حتى أقبلت القطة اللطيفة.. وهي الفتاة التي تستر جسمها بأوراق توت خفيفة.. ربما بسبب إحساس جسمها بالحر.. أو لقلة ما تتقاضاه من أجر.. ووضعت الفتاة من عصير الفتاح المعتق كأسين.. ثم اختفت كالطيف في غمضة عين.. فابتسم المجنون ابتسامة ماكرة.. وقال لشوقي «بك» بنبرة شبه ساخرة:

★ اسمي رمسيس.. وجدتي الكبرى هي إيزيس!

– هذا كلام تضحك به على بنات الفرنسيس.. أما الحقيقة فهي أني قد رأيتك من قبل.. ولم يكن معك أقارب أو أهل.. ربما لأنك تحب أن تتأمل الكون.. وقد تتدخل أحياناً فيما ليس لك به شأن.

★ أعترف لك بأن اسمي ليس رمسيس.. لكني اخترت هذا الاسم هرباً من ملاحقة الجواسيس.. لأن جميع الأسماء العربية.. أصبحت الآن في الدول الأوروبية.. مقترنة بالإرهاب وبالقتل.. لكني لا أعتقد أنك قد رأيتني من قبل.

- ألست أنت الإنسان - الذي يمتلك صاروخاً عابراً للزمان.. وأحياناً تنطلق على صهوة حصان.. ولديك بوصلة عجيبة لتحديد الوقت.. وأحياناً أشعر أنك تتكلم دون صوت؟

.. وضع المجنون فجأة على رأسه طاقية الإخفاء.. فلم يعد يراه أمير الشعراء.. فاندهش شوقي «بك» أيما اندهاش.. وتخيل أن عقله قد طاش.. فاختلطت الحقيقة عنده بالخيال.. وارتعشت شفتاه فقال في الحال:

بـــاح فاكتـــأب منـــذ أن كتـــب
يمتطـــي حصـــا نـــاً لـــه العجـــب
كلمـــا مشـــى أشـــعل الغضـــب
باحثـــاً عـــن الجـــ ـــد في اللعـــب
يعشـــق الأغـــا ني إذا اغتـــرب
إنمـــا لـــه دائمـــاً طلـــب
أن يـــرى خطـــى الحـــب تقتـــرب
بالجمـــال والـــ ـــصفو والطـــرب

أحس المجنون بالفرح والسرور.. فبادر بسرعة إلى الظهور.. حيث نزع عن رأسه طاقية الإخفاء.. كي يتمكن من رؤيته أمير الشعراء.. وقبل أن يفيق شوقي «بك» من دهشته.. رأى المجنون أن يزيد من حيرته.. فقال يصف نفسه ويصف الحصان.. مستخدماً نفس الوزن الذي اختاره شوقي «بك» دون غيره من الأوزان.

بـــاح فـــاحترق منـــذ أن نطـــق
يمتطـــي حصـــا نـــاً إذا انطلـــق
باحثـــاً عـــن الـــ ـــنور في نفـــق
والحصـــان مســـ ـــتعجل.. قلـــق
مـــذ أطـــل مـــن شـــرفة الأفـــق
بعـــد أن مشـــى في دم الشـــفق
والصـــهيل مـــن قلبـــه انبثـــق

آه لـــــو أعــــــا . د الصـــدى الحُـــرَق

إنـــــه إلى الـــــــ ـــشمس قـــد مـــرق

بينمـــــا يـــــرى غيــــره نهـــــق

ضحك شوقي «بك» ضحكة الأرستقراطي النبيل.. وقال إن هناك فرقاً بالطبع بين النهيق والصهيل.. بينما كان المجنون ينظر تحت قدميه.. ويتردد حرف «السين» متتالياً من شفتيه.. فسأله شوقي «بك» وهو يهز كتفيه:

★ لماذا تردد حرف «السين»؟.. هل أنت عاشق للنيل أم لنهر «السين»؟

– أنا عاشق للنيل ولكل الأنهار.. لأنها كلها تعشق الأشجار.. والأشجار دائماً تحب الاستقرار.

★ إذن فأنت تردد «سينية» البحتري.. وهو شاعر أحبه لأنه عبقري.

– وأنا أرى أنه في مجاري الشعر أكبر سمكري!.. لكنني الآن أرى كائناً عجيباً تحت المائدة.. وأسمعه يتحدث عن قضايا ذات فائدة.. ويشير إلى طغاة عصور بائدة.. وطغاة عصور سائدة.. وهو الذي ينطلق حرف «السين» من فمه.. ليصور به مدى ألمه:

الأرض ليســـت عـــلى مقاســـي
وجَوُّهَـــا يمطـــر المآســـي
ومـــذ مشـــينا عـــلى ثراهـــا
نـــرى طغـــاة عـــلى الكراســـي
وبعضـــــهم ثعلـــب وذئـــب
أو مغمـــض العـــين بـــاحتراس
وبعضـــــهم أجـــوف عقـــيم
أو مائـــل الـــرأس في نعـــاس
وكـــم أضـــاعوا ومـــا أعـــادوا
والنـــاس مـــن ظلمهـــم تقاســـي
وهـــم جميعـــاً بكـــل أرض
يســـعون بـــالمكر لافتراســـي



٤

القطة في ورطة ..
بعد تعهد الفأر.. بأخذ الثأر

بعد أن ظلت طيلة اليوم تموء.. دخلت القطة كي تنام وتنعم بالهدوء.. لكنها فوجئت بما جرى لها أثناء النوم.. حيث حاصرها أغرب حلم.. وألقى الحلم على ذيلها ظلالاً من الهم.. خاصة بعد أن أحست هذه القطة.. بأنها قد انزلقت في ورطة.. لم يسبق لأجيال من القطط.. أن انزلقت فيها ولو بالغلط.

رأت القطة في المنام أحد الفئران.. يقف أمامها بكل شجاعة وعنفوان.. دون أن يهرب من المعترك.. ودون أن يبدو عليه أنه ارتبك.. فقد تعهد هذا الفأر.. أن يقتل كي يأخذ بالثأر.. وفاء لذكرى أجيال.. قاست ما قاست من أهوال.. بعد أن تظاهرت القطط أنها معها تلعب.. ثم أنشبت في أجسادها ألف مخلب ومخلب.

مضغ المجنون قطعة من صدر بطة.. وارتشف رشفة أزاحت عنه «الزغطة».. ثم التفت إلى شوقي «بك» ليروي له حكاية القطة.. وكيف أنها انزلقت في ورطة.. ولم يصدق أمير الشعراء ما قاله المجنون.. إلا بعد أن أكد له أنه يستطيع أن يُسمعه صوتها المحزون.. عبر أسلاك التليفون.. وأكد المجنون أن القطة قد ظهرت في برامج حوارية.. روت خلالها حكايتها المأساوية.. أما الفأر الذي أصبح في نظر كثيرين.. إرهابياً من عتاة الإرهابيين.. فقد انفردت إحدى القنوات الفضائية.. ببث إحدى رسائله الجديدة الصوتية.. ومن خلال تحليل نبرات الصوت.. تم التأكد أن الرسالة حقاً بصوت هذا الفأر «الزفت»!

بكل ما يتمتع به شوقي «بك» من عقل.. قال للمجنون إنه لم يسمع أبداً من قبل.. مثل هذه الحكاية الغريبة.. وهي حكاية تدعو للشك والريبة.. وأكد أمير الشعراء إنه قد كتب عن الحيوانات والطيور.. ومن بينها الطاووس المغرور.. والثعلب الماكر المحتال.. والقرد الذي بمؤخرته الحمراء يختال.. كما كتب عن اليمامة الحمقاء.. والديك الذي كان من أذكى الأذكياء.. أما حكاية هذه القطة فإنها فعلاً غريبة.. ويبدو أن الدنيا ستشهد أشياء عجيبة.

تمايلت القطة البشرية الفرنسية.. في حضرة صاحب القريحة العبقرية.. فطلب منها شوقي «بك» عصير العنب المعتق.. بشرط أن تأتي به في دورق.. ورقصت فتاة إفريقية على إيقاع «التانجو».. بعد أن شوهدت وهي تشرب عصير المانجو.. بينما تلوَّت فتاة أمريكية.. وهي ترقص رقصة هز البطن الشرقية.. فنظر أمير الشعراء.. نظرة دهشة واستهزاء.. وقال ما هذه السخافة؟.. أليس لكل بلد ثقافة؟.. وأجابه المجنون على الفور.. وهمس له فيما يشبه السر.. هذا ما تريد أن تفرضه العولمة.. حيث تختلط الأمور بصورة مبهمة.. وأكد المجنون أن الفرق ليس كبيراً بين «العولمة» و«العوالم».. وهو مثل الفرق بين الجائع والصائم.. فالعولمة تهز العقل لكي يختل الوزن.. أما هز العوالم للبطن.. فإنه يجعل العقل بلا شأن.

أشار شوقي «بك» بإصبعه إلى رجل معفر.. يجلس وحده كأنه على شيء ما يتحسر.. ويبدو كأنه «هندي أحمر».. وقال للمجنون: ألا تعرف هذا الرجل الجالس.. بوجه جامد عابس؟.. إنه «أبو البقاء الرندي».. أحد شعراء الأندلس المفضلين عندي.. والغريب أنه يذكرني الآن بحكاية القطة.. بعد أن زحلقها الحلم في ورطة.. منذ أن تعهد الفأر.. بأن يأخذ بالثأر.. فقال المجنون لأمير الشعراء.. يا ترى هل يمكن للمغلوبين الضعفاء.. أن ينتصروا على خصومهم الأقوياء؟!.. وهل يعقل أن يحلم الطغاة.. بأن يضيع منهم المجد والسلطان والجاه؟.. وقبل أن يجيب شوقي «بك» على أسئلة المجنون.. مزق «أبو البقاء الرندي» رداء الصمت والسكون.. وقال بصوت دامع محزون:

«لكل شيء إذا ما تم نقصانُ»

فقد تمزق ذيلَ القط فئرانُ

وقـــد يطـــارد فـــار قطـــةً هربـــتْ

وقـــد تثـــور عـــلى الأفيـــال خرفـــانُ

ويكتـــوي أســـد مـــن جـــوع معدتـــه

وحولـــه تمضـــغ الأعشـــابَ غـــزلان

ويشتكي ثعلب مـن ضـعف حيلتـه

إلى أرانـــبَ قـــد أضـــحى لهـــا شـــان

ويرتدي الناس مـن أوهـامهم مزقـاً

كما اكتسـى بسـقوط الـثلج عريـان

قوافـــل تعبـــر الـــدنيا بحرقتهـــا

كما ارتضـى بميـاه البحـر عطشـان





٥

حمار يعترف للصحافة.. بأنه لا يحب النظافة

قانعة هي الحمير.. بالماء تكتفي وبالشعير.. وهي ترى أن الحياة كفاح.. ولهذا لا تطالب أبداً بأن ترتاح.. وفي سبيل الماء والشعير تعيش.. وتقبل على نفسها أن تظل في حالة تهميش.. وعلى الرغم من حب الحمير للقناعة.. سرت في الأجواء ألف إشاعة وإشاعة.. وكلها تؤكد أن الحمير.. أصبحت تطالب بالتغيير.. بعد أن أحست أن جميع الحظائر.. صارت أضيق من طموحها الثائر.. وقيل إن أصواتها ارتفعت بالنهيق.. وإنها أصبحت تشكو للعدو وللصديق.. من كثرة الأحجار والصخور في الطريق.. وهذا ما جعلها من البؤس لا تفيق.

كان المجنون قد خرج من ملهى الليدو في باريس.. بعد أن أقنع مونيكا بأن اسمه رمسيس.. وفي طريق العودة من الملهى إلى المغارة.. ضلت خطواته ما بين شارع وحارة.. وفجأة جمعت مصادفة سعيدة.. بينه وبين حمارة شريدة.. ضاعت منها البوصلة التي تهديها.. إلى الحظيرة التي تؤويها وتسكن فيها.. ولكن لم تكد تمر دقائق معدودة.. إلا وأطلقت الحمارة أعلى زغرودة.. بعد أن اقترب منها أحد الحمير.. فأدرك المجنون أنه صديقها الأثير.. ويبدو أن هذا الحمار من أصحاب الشهامة.. لأنه طلب من المجنون أن يركب على ظهره ولو إلى يوم القيامة.. وأخذ الحمار ينحني ويميل.. وهو يقول للمجنون بصوت خانع هزيل:

★ يبدو لي يا سيدي أنك إنسان فقير.. ولهذا لن أطالبك بالكثير.. فأنا بالماء أكتفي وبالشعير.. وكل ما عليك أن تركب فوق هذا الظهر.. ولا أريد منك ولو كلمة شكر.

- إني أفضل أن أمشي على القدمين.. وقد أتأمل الدنيا وأنا مغمض العينين.. أما إذا أردت أن أستريح.. فإني أكرب بساط الريح!

★ لكنك يا سيدي هزيل الجسد.. ومع هذا فأنت لا تحب أن يمن عليك أحد.. ولهذا لا تهتم بمجد أو مال.. وتفضل أن تبقى على هذا الحال:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله

ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلده»

حاولت الحمارة أن تتدخل في الحوار.. فرفسها صديقها الحمار.. وأكد لها بعد أن هاج وثار.. أنه لا ينبغي لحمارة شرقية.. أن تقلد تصرفات الحمارة الغربية.. ولهذا فليس لها الحق في أن تتكلم.. حتى وإن كانت من الجوع والقهر تتألم.. أما المجنون فقد نجح في إصلاح ذات البين.. فعادت الأمور إلى مجاريها بين الاثنين.. وظل المجنون يمشي على القدمين.. على إيقاع حوافر الحمار والحمارة.. وبدا كأنه يتأهب لشن غارة:

★ أيها الحيوان الطيب الصبور.. لماذا لا أراك تثور.. إلا على حمارتك المسكينة.. رغم أنك تعيش عيشة مرة ومهينة؟

- وماذا تريد مني أن أفعل؟

★ على الأقل أن تحلم ولو مرة.. بتغيير ما أنت فيه من عيشة مرة!

- أراك تحرضني على الثورة!

★ أبداً.. أنا لا أحرضك لأن الثورة الفردية.. لا يمكن أن تنجح حتى لو كانت دموية.. الثورات لا تنجح إلا إذا كنت مطلباً لجماعة.. لديها خطة وإرادة وشجاعة.

- لكني يا سيدي لا أحب غير القناعة.

★ ألم تسمع عن حمار «الحكيم».. هذا الذي تمرد على واقعه الأليم؟

- الحقيقة أني لم أسمع عنه.. فلماذا لا تحكي لي أنت ما جرى منه.

★ لقد تمرد حمار الحكيم.. في الزمن النائي القديم.. فقال متحدياً: متى ينصفني الزمان.. فأركب ظهر الإنسان.. فأنا جاهل بسيط.. ولست بالداهية أو الحويط.. أما الإنسان فهو جاهل مركب.. ومع هذا يحب أن يركب لا أن يُركب.

- «وما الفرق بين الجاهل البسيط والجاهل المرُكب؟»

★ «الجاهل البسيط هو الذي يعلم أنه جاهل.. أما الجاهل المركب فهو من يجهل أنه جاهل..».

- إذن فالجاهل البسيط هو الحيوان الصبور.. أما الجاهل المركب فهو الإنسان المغرور!

★ ليس بالنهيق وحده يحيا الحمار.. حتى لو رفع أجمل شعار.. إذ لابد من العمل باستمرار.. حتى لا يواجهه أحد بنظرة احتقار!

- باعتباري حماراً فإني بكل تأكيد.. لا أفهم ماذا تريد!

★ وأنا أقول لك إلى متى تكتفي بالماء والشعير.. دون أن تطالب بحقك في تقرير المصير.. ولماذا تقنع بالعيش في حظيرة قدرة.. تلسعك فيها ألف حشرة وحشرة؟

★ أعترف لك دون رجاحة عقل أو حصافة.. بأني لا أحب النظافة.. فضلاً عن أن التنظيف.. هو مجرد حكايات ملأى بالتخاريف.

- معنى هذا أنك تفضل القذارة!

★ لك أن تقول إني عدو للحضارة.. ما دام الظلم الذي يتحكم فيها يخفي آثاره.. حيث يغسله الظالمون بمعسول العبارة.. وعلى العموم إذا كان عندي طموح.. فهو أن تكون النظافة في القلب وفي الروح.. أما الآن فلك أن تقول للصحافة.. ولغيرها من وسائل المكر والسخافة.. إن الحمار لا يحب النظافة!







قرار بقطع ذيل الحمار.. بعد اتهامه بفضح الأسرار

ليس للحمير تاريخ مكتوب.. رغم أنها كانت تشارك في الحروب.. ورغم أنها كانت ومازالت تنقل المؤن والحبوب.. والحقيقة أن الحمير تنظر إلى التاريخ.. تماماً كما ينظر الناس إلى ما فسد من الطبيخ.. لكن الحمار يعرف –تاريخياً– أنه مركوب.. وأنه دائماً على أمره مغلوب.. وإن كان في بعض الأحيان.. يحب أن يحرك فمه كأنه يمضغ اللبان.. ويتظاهر بأنه في منتهى الغباء.. حتى يخدع بتصرفاته جميع العقلاء.. وليس سراً أن الحمير تلتزم بمنهج دقيق.. يتيح لها أن تتعرف على خارطة الطريق.. لكنها لا تلتزم بهذا المنهج في النهيق.. فلكل حمار نهيقه الخاص المستقل.. مهما صغر شأنه أو قل.. وكل حمار يعرف أنه مستغِل.. وأنه لا يستطيع معاملة الناس بالمثل.

خلال مشي المجنون مع الحمار والحمارة.. أكد الحمار أن صديقته حمارة ثرثارة.. رغم أنها لم تقرأ «ثرثرة فوق النيل».. وهو أمر مؤكد ولا يحتاج لدليل.. فهي لا تتكتم على أي سر.. وهذا شيء لا ينفع بل يضر.. واشتكى الحمار أن لسان صديقته.. لا يكف عن الثرثرة أمام حمير حظيرته.. وأنها تحكي عما بينهما من أمور.. بعضها خاص وبعضها محظور.. من بينها أنه ابتلع حبة فياجرا مع الحبوب.. وأنه يهز ذيله تكفيراً عما ارتكب من ذنوب.. رغم أنه لم يفكر يوماً أن يتوب!.

طأطأت الحمارة أذنيها من فرط الخجل.. وأشارت إلى أنها لم تقلم بأي عمل.. تقصدُ منه تجريحاً أو إساءة.. وأنها قالت ما قالته بمنتهى البراءة.. كما أنها تحب حمارها لدرجة العبادة.. وتسعد بأنها طيلة عمرها له منقادة.. وهنا انحدرت دموع الحمار على خديه.. وبللت الأرض من حواليه.. فأعطاه المجنون ورقة كلينكس معطرة.. كما طلب من الحمارة أن تكف في المستقبل عن الثرثرة.. واختلطت أصوات الثلاثة ما بين كلام للمجنون.. ونهيق يتداخل وينفذ كالسهم المسنون:

★ لم أكن أعرف أن ما ابتلعته فياجرا.. ولا أنها تجعل الجسم في عنف شلالات نياجرا.. فالحبة التي ابتلعتها سقطت من يد مالك الحظيرة.. وهو عجوز مشبوه النية والسريرة.. لكنه يحب أن يبدو مفتول العضلات.. خصوصاً حين يخشى أن تضيع منه الحظيرة في لحظات.. ويقال إنه في جلسة سرية.. أكد لمن حوله أنه لن يتنازل أبداً عن الملكية.. لأن حظيرته هبة من السماء.. وهو وحده الذي يحقق لها الرخاء.

- لكنك تعلم يا صديقي الحمار.. وهذا ليس سراً من الأسرار.. أن الحظيرة أصبحت قذرة.. وفيها ألف حشرة وحشرة.. أما ما فيها من أسراب الفساد.. فإنها أكثر من أن يحصيها تعداد.

★★ وأنا قلت مثل هذا بالأمس.. فاتهموني بأني حمارة لا تميز بين الذيل والرأس.. لكني أعترف لكما بأني عرفت أخطر الأسرار.. فقد رأيت رجلاً يمسك بسيف بتار.. يؤكد لمن معه أنه اتخذ أصعب قرار.. وهو قرار بقطع ذيل صديقي وحبيبي الحمار.. بعد اتهامه بأنه يفضح الأسرار.

- فجأة ثارت في الجو زوبعة.. فاحتمى الحمار منها بالبرذعة.. وكذلك فعلت الحمارة التي معه.. أما المجنون فبقي وسط المعمعمة.. بينما اندفعت الريح.. حاملة صوتاً يفيض بالتباريح:

يصر الزوج أن يبقى شبابا
فيلتهم الكوارع والكبابا
ويهضم بطة في السمن ساحت
ويلحس بعدها عسلاً مذابا

وحين يطيش تخدعه الفيجرا
فيسرع للسرير بما أصابا
وزوجته الجميلة لا تبالي
بمن يحتال كي يبقى شبابا
فيحسبها، وبعض الظن إثم
تريد له نعاساً أو غيابا
لكي تلهو مع الشبان ليلاً
وتنزع عن مفاتنها النقابا
يظل الزوج في غم يعاني
يخبئ تحت جفنيه ارتيابا
يؤجل أن تبث الشمس نوراً
ويفتح للظنون السود بابا
يقول: سأصلح الجدران وحدي
فإني لم أزل زوجاً مهابا
وينسى الزوج أن البيت يهوي
وأن ربيعه أضحى سرابا
وأن النور بالإصلاح آت
ليفضح من تلكأ أو تغابى
وأن الأرض تبحث عن فتاها
فهذا الزوج لم يقرأ كتابا
وليس بنافعٍ بلعُ الفيجرا
إذا غاب الشباب وما أجابا
«وليس بعامرٍ بنيانُ قومٍ
إذا أخلاقهم كانت خرابا»





الحمار يبحث عن وسيلة للفرار.. بعد أن توعده السيف البتار

بعد أن همدت زوبعة الغبار.. التفت المجنون نحو اليمين ونحو اليسار.. فلم يعثر على أثر للحمار.. أما ورقة الكلينكس المعطرة.. فقد بدت في حالة مزرية منفرة.. بينما وقفت الحمارة المسكينة.. وقد أطل الذعر من نظراتها الحزينة.. وحين سألها المجنون عن الحمار.. أكدت له أنه واقف في الجوار.. لكنه يرتدي الآن برذعة مسحورة.. حتى لا تبدو هيئته منظورة.. كما أكدت الحمارة أن الحمار.. يفكر في وسيلة للفرار.. بعد أن توعده السيف البتار.. ولم يصدق المجنون هذه الأقوال.. إلا بعد أن تذكر أن كل كائن يحاول أن يحتال.. لكي ينجو مما يتعرض له من أهوال.. وأنه – شخصياً – يمتلك طاقية إخفاء.. تخفيه عن الأنظار وقتما يشاء.

كيف تستطيع الظلمات أن تندس في جسد النهار؟.. هذا ما قاله المجنون وهو يفكر في محنة الحمار.. فالحقيقة أن المحنة التي لا جدال فيها.. ولا يستطيع أحد أن ينكرها أو يخفيها.. هي محنة البعد عن الوطن.. حيث تنكسر الروح ويتفتت البدن.. فما الذي يفعله الأسد إذا أجبر على ترك الغابة؟.. وما الذي يحس به إنسان يهجر أحبابه.. ليفر من ظلم يكشر أنيابه؟.. ولماذا تنتحر أقوى الحيتان.. حين تبتعد عما تعرفه من شطآن؟!

نظر المجنون إلى الحمارة المسكينة.. وخُيل إليه أنها أصبحت

أشبه بسفينة.. توشك أن ترتطم بالصخور.. بعد أن تمزق شراعها المكسور.. وصب المجنون ما صب من غضب.. على صاحب الحُظيرة الذي نهب ما نهب.. دون أن يهتم بما تلقاه الحمير من تعب.. ما دام الشعير لها وله الذهب:

كأنما حوصر الزمان وغاص في بؤسه المكان

ولم يعد ينطق اللسان مذ زخرف الزور بهلوان

★ ★ ★

يقول: يا حضرة الحمير صبراً على التبن والشعير

واستعجلوا الآن في المسير ليرفل الجحش في الحرير

★ ★ ★

مستقبل زاهر يطل وفيه ورد وفيه فل

وكل جحش له محل ونحن من أجلكم نظل

★ ★ ★

وبعد أن نكمل المسيرة نعانق الفرحة الكبيرة

ما أجمل العيش في الحظيرة للأوجه الحلوة النضيرة

قالت الحمارة للمجنون.. إن كل شيء يهون.. ما عدا لوعة الفراق.. رغم أنها تجدد الأشواق.. وأشارت إلى أن لها مع الحمار قصة حب رقيقة.. بدأت فصولها عندما التقيا في إحدى الحارات العتيقة.. وأضافت إن لهما الآن جحشين.. لا تغمض لأي منهما عين.. إذا غاب عنهما أبوهما الحمار.. ليقضي حاجة له أو ليكمل ما يُطلب منه من مشوار.. فكيف سيكون حالهما إذا غاب الأب؟.. ومن الذي سيرعاهما بالحُب وبالحِب؟.. ثم أضافت والمع في عينيها حائر: إن الذين يهربون من الحظائر.. يتعرضون دائماً للكثير من المخاطر.. فقد يستغلهم آخرون.. مقابل ملاذ غير مضمون.. وقد يتغاضون عما يلقونه من إهانة.. ومنهم من يقبلون القيام بأدوار الخيانة.. ومنهم ن تدهسهم سيارة ملغومة.. تنطلق نحوهم من جهة غير معلومة.

ظلت الحمارة تجهش بالنهيق.. دون أن ترى خاتمة لخارطة الطريق.. لدرجة أنها تمنت لو قام السيف البتار.. بتنفيذ وعيده بقطع ذيل صديقها الحمار.. إذا كان هذا

يضمن وجوده إلى جانبها باستمرار.. ويبعد عن ذهنه فكرة الفرار.

بدا واضحاً أن الحمار.. كان منتبهاً إلى ما بين الحمارة والمجنون من حوار.. وأنه استمع إلى أدق تفاصيل ما دار.. والدليل على هذا أنه أطلق جرعة من النهيق.. تتابعت ما بين الزفير والشهيق.. وتصاعدت كأنها ألسنة حريق.. وفجأة خلع الحمار برذعته المسحورة.. وعلى الفور بدت هيئته جلية ومنظورة.. ولم يتردد في القول لحمارته الثرثارة.. إن أقوى جيوش الطغيان بالجرارة.. تستطيع أن تقتل كل يوم ألف نفس ونفس.. لكنها لا تستطيع أن تحجب نور الشمس.





الحمار ينجو من عدة كمائن .. ويحتال كي يتحول إلى مواطن

«.. أفقد حياتي ولا أفقد ذيلي.. قولي هـذا لأصـحابي ولأهـلي.. ورغم أني حمار إلا أني لن أخضع. ولن أقبل لهذا الذيل أن يُقطـع.. كيف أهش الحشرات التي ترتفع؟.. وكيف أبعدها عن ظهري قبل أن تلسع؟.. لا.. لن أتخلى عن هذا الذيل.. مهمـا توعـدني الظلـم بكل الويل.. أما أنت يا حمارتي ويـا نـور العـين.. فـإني أرجـوك أن تهتمي بالجحشين.. وتأكدي أنك ساكنة في القلب.ز لكني لن أعود للحظيرة إلا إن عاد الحب».

هذا ما نطق أو نهق به الحمار.. قبل أن يفـر هارباً مـن السـيف البتار.. ولم تستطع الحمارة أن تمنع ما اتخذه الحمـار مـن قـرار.. ولهذا طلبت من المجنون أن يسير معه.. حتى لا تقلق عليـه كلمـا ثارت زوبعة.. وبالطبع فإن المجنون وافق على هـذا الأمـر.. لكنـه رجاها ألا تبوح لأحد بالسر.. وهكذا تحـول المجنـون إلى حلقـة وصل.. ما بين القاعدة وما بين الذيل.

بمجرد دخول الحمارة من بـاب الحظيـرة.. تعرضـت لصـفعات مؤلمة كثيرة.. وتلقفتها بالعصبي مجموعة من الشـياطين.. وإن كانـت وجوهها وجوه آدميين.. وعلى الفور جيء بالجحشـين.. وقـد فقئـت من عيني كل منهما عين.. عقاباً لهما على أعظـم جريمـة في الكـون.. بعـد أن رفضـا أكـل الـروث المخلـوط بـالتبن.. وبعهـد أن شـربت الحمارة من كؤوس العذاب.. بدأ التحقيق معها والاستجواب:

★ أين كنت أيتها الحمارة الساقطة.. ولماذا تطلقين علينا سهام نظراتك الساخطة؟

- كنت أنوي أن أرحب بكم بالطبع.. لكني الآن لا أملك سوى الدمع.

★ هذا النهيق ينطوي على سوء نية.

- لا أملك غيره أهديه تحية.

★ وأين حمارك الذي لا يكف عن النهيق.. متوعداً سماء الحظيرة بألف حريق وحريق؟

- لا أعرف أين هو الآن.

★ إذن استريحي الآن.. وسنستأنف بعد فاصل الإعلان.

.. على أحد مواقع الإنترنت الثرثارة.. قرأ المجنون للحمار عما جرى للحمارة.. لكنه لم يخبره بما جرى للجحشين.. حتى لا تفيض الدموع أنهاراً من العينين.. ولم يجهش الحمار بالنهيق.. لكن الثورة في قلبه تحولت إلى حريق.. وظل الاثنان هائمين ما بين قرى ومدائن.. وتنقلا من مكان إلى أماكن.. دون أن يشعر أحدهما بأنه آمن.. وإن كان الحمار قد نجا من عدة كمائن.. دون أن يستطيع مطاردوه أن يوقعوه في أي شرك.. بعد أن امتلك من الحيل ما امتلك.

تثاءب الحمار أكثر من مرة.. وظل يشكو من العيشة المرة.. وبعد أن استبعد به التعب.. طلب من المجنون أغرب طلب:

★ سأكون لك من الشاكرين.. لو استطعت أن تحولني إلى رجل من الآدميين!

- أنا لا أحب الذين يتخلون عن مبدأ أو جنسية أو وطن!.

★ ولكنك تعرف جيداً ما أواجه من محن.

- رغم المحن عليك أن تتفاءل.. ولا يحق لك أن تساوم أو تتنازل.. وأنا أؤكد لك أن صاحب الحظيرة شرير.. لكنه سينال ما يستحق من سوء المصير.

★ وأنا حين أتحول من حمار إلى رجل.. سأقول لكل هيا إلى العمل.. وحين يتواصل عمل الجماعة.. فهذا سيكسبها أعلى درجات المناعة.. ولن تكون الأمور على هذا النحو من البشاعة.

- إذا كان هذا ما تراه.. فإني سأسعى لتحقيق ما تتمناه.. وما دمت قد أفلت من الكمائن والمكائد.. فإني سأطلب من صديقي المارد.. أن يحولك من حمار إلى مواطن.. وفيما بعد نستطيع أن نستأجر لك أحد المساكن.

★ وماذا عن الحمارة والجحشين؟

- لا تكن متسرعاً في كل شأن.. لابد أن تتحول أنت إلى مواطن في البداية.. ثم نتابع بعد ذلك فصول الرواية.. ألم تسمع عن سياسة «خطوة.. خطوة»؟ أنا سأحاول أن أطبقها ولكن بالحيلة لا بالقوة.

★ أنت إنسان من الذهب!

- لا تنافقني فأنا لست من ذهب.. أنا قلب يواجه أبا لهب.. أنا مجنون العرب.

★ هل تحدثني عن هذا المجنون؟

- نعم.. إن من يعرفونه يقولون:

عاشــــق لم يَتُـــبْ	صـــوته مـــن لهـــبْ
يعشــق الشـــمس في	كـــل أرض العـــرب
إن رأى نكبـــــــة	في الــــديار اكتـــأب
أو رأى حلـــــــوة	يحتويـــــه الطـــرب
صـــــدقه قلعـــــة	لـــيس فيهـــا صـــخب
قلبـــــــــه وردة	حـــين يحلـــو العتـــب
صـــــمته نســــمة	حـــين يطغـــى الغضـــب
إنـــــه شــــاعر	ذاب فيمـــا كتـــب
شـــعره كنـــزه	إن أتـــى أو ذهـــب
لـــيس يعنيـــه مـــا	في القصـــور الـــذهب
نايـــه هـــائم	في حقـــول القصـــب
والضـــحايا لـــه	إخـــوة في النســـب

همـــــه أن يـــــرى — مـــن يـــداوي العطـــب

في الزحـــام ابتـــدا — للضـــمير انتســـب

لـــيس في قلبـــه — قطـــرة مـــن كـــذب

والجنـــون الـــذي — ذاب فيـــه انســـكب





الحمار يواجه الناس .. ويؤكد أن معظمهم وسواس خناس

احتار الحمار واندهش وتلعثم.. حين رأى المجنون يضرب القمقم.. فتتصاعد من قلبه حلقات دخان.. ملأت أرجاء المكان.. وما لبثت أن تحولت خلال ثوان.. إلى مارد مفتول العضلات.. نظرته تتصارع فيها مختلف الرغبات.. وخطوته تعادل آلاف الخطوات.. وهمسته أعلى من صوت الزلزال.. لكنه ينظر للمجنون بتقدير وإجلال.. ولأن المجنون عاشق للحرية.. بشرط ألا تكون فوضوية أو وهمية.. فإنه رأى ألا يذكر المارد بما كان فيه من عبودية.. أيام الملك سليمان الحكيم.. في الزمان النائي القديم.. بل على العكس فإنه طلب منه الجلوس.. ثم أمره أن يقلب في صفحات قاموس.. لكي يتذكر ما كان آلهة الإغريق يفعلونه في الأساطير والحكايات.. وما كان لديهم من فنون في «مسخ الكائنات».. حيث يتحول القرد على أيديهم إلى غزال.. ويتحول «أطلس» العملاق إلى جبل من الجبال.. وتتحول النساء فجأة إلى تماثيل.. ليس لها في الفتنة والإغراء مثيل.

دون تحليل ممل للشكل والمضمون.. فهم المارد ما يقصده المجنون.. فاستجاب للمر على الفور.. وهكذا انتقل الحمار من العسر إلى اليسر.. حيث تحول إلى إنسان يحب ويكره.. لكنه أحس بالخجل بعد أن رأى ما استجد على العورة.. فكان لابد من البحث له عن ملابس.. تتوافق مع جسمه وهو واقف أو جالس.. وهذا ما كان حيث أهداه المجنون بدلة.. موديل «ألف ليلة وليلة».. وبعد أن لبسها

صاحبنا الحمار.. أصبح آية في الأناقة والوقار.

أهكذا يتم الانتقال.. بهذه السرعة من حال إلى حال.. ويتحول الكائن المسكين المهان.. من حيوان إلى إنسان؟.. هذا ما أدهش صاحبنا الحمار.. فأطلت من عينيه نظرات تقدير وانبهار.. وحاول أن يجهش بالنهيق.. معبراً للمارد والمجنون عن شكره العميق.. لكنه اكتشف أنه يهمس بكلام بشري رقيق.. وأنه أصبح على دراية بعدة لغات بشرية.. من بينها اللغة العربية.. رغم أنها تعاني الآن من ضعف الذرية.. ورغم ما يشيعه عنها المتفرنجون.. حيث يتحذلقون وهم يؤكدون.. أنها أصبحت لغة رجعية.. لا تتجاوب مع أجواء الحياة العصرية.

لم يتغير جسد الحمار فحسب.. وإنما تغيرت أشياء عديدة في العقل وفي القلب.. فمكان القناعة حل الطمع.. وتصور الحمار أنه يستطيع أن يأتي بالبدع.. فأكد للمجنون أنه منهمك في كتابة قصيدة.. وأنه سيخصص معظم أبياتها الفريدة.. في مدح المارد العملاق.. لكنه سيبدأها بالتعبير عن الأشواق.. تجاه الحمارة التي كانت نور العين.. وتجاه حبيبيه الجحشين.. وأكد الحمار أن القصيدة ستكون رائعة.. وأنه ينوي أن يترجمها إلى العديد من اللغات الشائعة.. فضلاً عن ترجمتها إلى بعض لغات الحيوانات.. لكي تقرأها كل الكائنات.. فمن الجائز أن ترشحها جهة من الجهات.. لنيل جائزة نوبل في الآداب.. خصوصاً وأنها خالية من التشنج العنصري المعاب.

قال المجنون للحمار إن الجوائز.. ليست حوافر بقدر ما هي حوافز.. ثم طلب منه أن يُسمعه المطلع.. ما دام يؤكد أنه أجاد في قصيدته وأبدع.. فوقف الحمار أمامه وأمام المارد في الحال.. وقال فيما قال:

أيها المارد العريق سلاما
من حمار يذوب فيك غراما
إن شعري في مدحك اليوم أحلى
من نهيق أضاءت فيه الظلاما
لم يعد للنهيق أي مجال
بعد أن صغت درة تتسامى

بعـد هضـم الشـعير ذات زمـان
أصـبح الأكـل بطـة أو حمامـا
منـذ غابـت زريبـة الأمـس عنـي
صـار «كنتـاكي» قبلـة ومقامـا
أعجـز الشـكر مهجتـي ولسـاني
فتقبـل تحيـة واحترامـا

قطب المجنون جبينه وقال على الفور.. كيف استطعت يا حمار أن تكتب هذا الشعر؟.. أتريد إقناعي بأنك شاعر حاذق؟.. للأسف فإن هذا الشعر يؤكد لي أنك منافق.. وهنا احمرت أذنا الحمار من الخجل.. وقال في شيء من التردد والوجل.. يبدو أن طبيعتي قد تغيرت منذ أن تحولت إلى إنسان.. وإذا كنت سأتوقف عن النفاق منذ الآن.. بناء على أوامرك المطاعة.. فإني أرى أن الناس باستثنائك أنت في منتهى البشاعة.. ربما لأنك كما تقول مجنون.. وبالتالي فإنك لا تفكر كما يفكرون.. وعلى العموم إذا أتحت لي أن أخرج معك.. لكي أصحبك في جولاتك وأتبعك.. فإنك ستراني أواجه بالصدق الناس.. لأؤكد لهم أن معظمهم وسواس خناس.. ولن تكون لصراحتي معهم حدود.. ما دمت أحيا في هذا الوجود.



١٠

الحمار يقرر العودة للأصل.. حتى يلتئم شمل الأهل

«من حقك يا مجنون أن تقول إني حمار.. بمجرد أن أخبرك بما اتخذت من قرار.. كنت أفكر فيه على امتداد الليالي.. لكني لن أبلغك به في الوقت الحالي.. لأني متشوق حقاً للرحلة والتجوال معك.. وتأكد أني في النهاية لن أخدعك.. والآن ها أنا مستعد لأن أتبعك.. بعد أن نظفت أذني خصيصاً كي أسمعك..».

هذا ما قاله الحمار للمجنون.. بعد انصراف المارد في هدوء وسكون.. وبمجرد أن استمع المجنون لبعض التواشيح.. أصدر أمراً للحمار بأن يركب معه بساط الريح.. لينطلق الاثنان في الفضاء الفسيح.. حيث استغرق الحمار في النظر إلى ما تحته من الحظائر.. وإلى ما حولها من أكواخ وقصور وعمائر.. ورأى الحمار أن الناس أصبحوا صغاراً كالنمل.. لكنه أخذ يميز بين الجبل والسهل.. وبين الصحارى الكبيرة الخاوية.. وأمواج البحر المتدافعة الطاغية.

ضحك المجنون حين أخبره الحمار.. بما في ذهنه قد دار.. فقد أصبح يعرف معنى الجهات الأربع.. بعد أن كان يمشي فيما مضى على أربع.. أما المجنون فأخبره أن الرحلة ستتوجه أولاً إلى الغرب.. وأنهما سيطيران حول اليونان وإيطاليا وبلاد الصرب.. وأنهما ربما يهبطان في أسبانيا الأندلسية.. لكي يتعرف الحمار على بعض معالم الحضارة العربية.. وهنا أبدى الحمار أسفه الشديد..

لأنه لم يكن يعرف الفرق بين قديم وجديد.. بحكم أن الحمير ليس لها تاريخ مكتوب.. يتهكم في صفحاته الغالب على المغلوب.. ويتباهى فيه الراكب على المركوب.

بكى المجنون وهو يحكي للحمار عن صراعات الناس.. وعدم تسامحهم مع غيرهم ممن يختلفون عنهم في العقائد والألوان والأجناس.. وهنا طلب الحمار أن يزيده المجنون علماً.. حتى لو كان هذا سيزيده غماً.

★ هل تعرف يا سيدي المجنون.. أن أبناء جنسي السابق لا يتصارعون.. وأنهم يتجاورون ويتحاورون.. وهم يمضغون الشعير الذي يأكلون.. وأؤكد لك أنه لم تقع حادثة في الليل أو في النهار.. قام خلالها حمار بقتل أخيه الحمار.. فلماذا يتصارع الناس مع بعضهم؟.. ولماذا يقيدون حركة الضعفاء منهم بلجام بغضهم؟.. أرجو ألا تكون أسئلتي تجاوزاً للحدود.. وأتمنى أن تسامحني لو كنت قد وقعت في خطأ غير مقصود.

– وأنا أؤكد لك أن العقل البشري موجود.. حتى وإن كنت أرى أنه محدود.. المشكلة ليست في العقل بل فيما يحرك هذا العقل.. وهو عادة يتحرك بغرائز قبيحة لا تجلب إلا الويل.. في كل زمان ومكان.. يقتل الإنسان أخاه الإنسان.. قابيل قتل أخاه هابيل.. والقتل امتد إلى عام الفيل.. وهناك في اليابان مدينتان جميلتان.. ألقيت عليهما قنبلتان ذريتان.. أما في أفغانستان.. فقد حاولت جماعة خيبان.. أن تدمر تمثالاً لإنسان.. غاب عن الدنيا منذ زمان.. ومقابل هذا شهدت أسبانيا محاكم تفتيش طاغية.. دفعت بالناس المختلفين إلى أبشع هاوية:

ها هنا الأندلس
قاتل النور نادى جموع الحرس
فتشوا في قلوب يتامى العرب
فتشوا واقتلوا وافعلوا ما وجب
– الزمان انقضى إنما قاتل النور لم ينتبه
منذ أن ظل يمشي وفي كل قلب يرى يشتبه –
ها هنا طالبان
قاتل النور نادى سيوف الإبادة

اسحقوا رأس بوذا بغير هوادة

واصعدوا بعد حين لعليا الجنان

أمطرت عينا الحمار سحابة من الدمع الهتون.. وقال بصوت متهدج للمجنون: إذا كنت قد زدتني علماً.. فإنك للأسف قد زدت غماً.. وطالما أن الحمار لا يقتل أخاه الحمار.. لا في الليل ولا في وضح النهار.. فقد آن أن أخبرك بما اتخذت من قرار.

استبد بالمجنون فضول.. ما لبث أن تحول إلى عاصفة من الذهول.. عندما أخبره الحمار أنه قرر العودة إلى الأصل.. بعد أن اشتقا للحظيرة بالفعل.. وأنه يتطلع للقاء الحمارة والجحشين وبقية الأهل.. وذلك حتى يلتئم الشمل.. ويذوب الواحد في الكل.. ولم يعترض المجنون على القرار.. رغم الصداقة التي توطدت بينه وبين الحمار.. وهكذا هبط بساط الريح.. من شرفات الفضاء الفسيح.. وقبل استدعاء المارد من قلب القمقم النفيس.. قال المجنون للحمار: لقد كنت لي خير نديم وجليس.. فاسمح لي أن أحتفظ عندي بالبرذعة.. تذكاراً لرحلة طويلة وممتعة.. عشنا فيها لحظات صعبة.. وخضنا خلالها بين الصحارى والحقول الخصبة.. والآن وداعاً أيها الصابر الحزين.. يا من تتحلى بالقناعة على امتداد السنين.. وقبل أن تفارقني عائداً إلى الحظيرة والأهل.. حتى يلتئم الشمل.. لابد لي أن أكرر ما سبق أن أوضحته من قبل.. قانعة هي الحمير.. بالماء تكتفي وبالشعير.







المجنون يلتقي مع نعامة ..
ضلت خطاها سكة السلامة

بعد أن شرب المجنون وتعشى.. قرر أن يخرج إلى الصحراء كي يتمشى.. مصطحباً معه القمقم النحاسي النفيس.. فربما احتاج لنجدة من المارد الأنيس.. وهو الذي لا يرفض للمجنون أي طلب.. وإنما يلبيه دائماً بمنتهى الأدب.. وبرر المجنون لنفسه اصطحاب القمقم.. حيث أخذ يهذي ويتمتم.. بأن الأرض لم يعد فيها أمان.. لا بسبب كوارث الزلزال أو الطوفان.. وإنما بسبب بطش الإنسان بالإنسان.. وتذكر آسفاً أن صديقه الحمار.. أكد له ذات نهار.. أن الحمار لا يمكن أن يقتل أخاه الحمار.. بينما يقتل الإنسان أخاه باستمرار.. متذرعاً بأي سبب.. قد لا يكون مدعاة للغضب.

خُيل للمجنون أنه يرى قبة من القباب.. تشع نوراً فوق إحدى الهضاب.. ولم يكن هذا من أثر الشراب.. وإنما حقيقة لا يشوبها أي سراب.. ودفعه الفضول فانطلق بخطوات أسرع.. كي يتبين هذا الذي يلمع.. فإذا به يكتشف أن القبة نعامة.. يبدو أن قد حلت لها الإقامة.. أو أن عائقاً يمنعها من الحركة.. فجلست مكانها حتى لا تبدو مرتكبة.. ومن ناحيته حاول المجنون إجراء حوار.. مثل الذي كان قد أجراه مع الحمار.. لكن النعامة لم تستجب ولم تنطق كلمة واحدة.. فأدرك المجنون أن الحوار ليس ذا فائدة.. لأن الحوار لا يكون إلا بين طرفين.. أو بين أكثر من طرفين.. حيث يقول المتكلم ما لديه.. بينما يظل الطرف الآخر يصغي غليه.. ثم ينطلق للرد عليه.

كانت النعامة تبدو على أمرها مغلوبة.. وكأنها سفينة في عرض البحر مثقوبة.. وكان على المجنون أن يعرف السر.. فاستدعى المارد من القمقم على الفور.

★ يا سيدي المجنون.. ليس في الأمر سر ولا يحزنون.. إن هذه النعامة ليس لها أذنان.. وبالتالي فإنها لا تسمع زقزقة عصفور أو طقطقة نيران.. لهذا لن تتمكن من الرد.. مهما ظللت تثرثر دون حد!

- هل هذه النعامة وحدها هي التي لا تسمع؟

★ أؤكد لك أن النعام كله لا يسمع.

- أنت على حق أيها المارد.. فأنا أتذكر الآن إني قرأت في التراث العربي الخالد.. أسطورة أو حكاية عجيبة التفاصيل.. وهي تؤكد هذا الذي قيل.

★ وأنا أحب الأساطير.. خصوصاً إذا كان فيها ما يثير.. فهل لك أن تحدثني عما عرفت.. مما تقول إنك عنه قد قرأت؟

- بكل غرور!... أقصد بكل سرور. يروون فيما يروون.. منذ أقدم القرون.. أن النعامة قد ذهبت كي تطلب قرنين.. فعاقبها الناس وقطعوا لها الأذنين.. ولهذا فإنها سُميت في اللغة العربية بـ «الظليم».. بسبب ما وقع ضدها من ظلم عظيم.. فقد ظلمها الناس لأنهم لم يعطوها القرنين.. ولم يكتفوا بهذا بل قطعوا لها الأذنين!

★ هذه حقاً حكاية عجيبة.

- سأخبرك بما هو أعجب ما دمت تحب الإصغاء.. أتعرف أن النعامة لا تشرب الماء؟.. أتعرف أن للنعامة خفاً كالجمل.. وأن الخف يساعدها في الجري دون كلل؟

★ هذا أعجب ما سمعت!

- اسمع ما هو أعجب إذا أحببت.. إن العلماء القدماء يؤكدون.. أن النعامة ليست من الطيور وإن كانت تبيض ولها جناح وريش.. وهم يرون أن الخفاش طائر، رغم أنه يحبل ويلد صغار الخفافيش!

★ وهذا أيضاً أمر عجيب.. ويذكرني بأمر مريب!

- أفصح أيها المارد عما تود أن تقول.. حتى لا تجعلني أقول عنك إنك خجول.

★ لقد تذكرت الجنس الثالث الذي يتحدث عنه البشر.. ويُنشر عنه ألف خبر وخبر.

.. أطلق المارد ضحكة خافتة ونحيلة.. على الفور طلب منه المجنون خدمة جليلة.. حيث أمره بأن يتفاهم مع النعامة.. فربما تكون قد جلست وحدها لأنها ضلت سكة السلامة.. وقال المجنون للمارد هيا إلى العمل.. واستخدم ما في جعبتك من فنون وحيل.. فعلى الكائن الحي أن يساعد الآخرين.. إذا أحس أنهم من العجزة والمستضعفين.

أحس المارد بقدر من الزهو والفخر.. لأن المجنون بدونه لا يستطيع اكتشاف السر.. وأكد أنه سينطلق للعمل بحكمة وكياسة.. وأن ما سيفعله لا يستطيع القيام به أمهر الساسة.. ومن خلال المارد عرف المجنون.. أن النعامة قد أصيبت بسهم مسنون.. وأن إحدى ساقيها قد أصبحت هامدة.. وهي لا تستطيع النهوض بساق واحدة.

هل يُعقل أن يتحرك الكل.. بينما تظل النعامة تشرب كأس الذل؟.. لابد من إيجاد حل.. وهذا ما سيتكفل به المارد والمجنون.. لأن الحياة ترفض منطق الذين يستسلمون.. ولأن الطغاة – عادة – لا يدوسون.. إلا على الذين يتجمدون ويسقطون:

تجمدت من يأسها النعامة

ضلت خطاها سكة السلامة

كم أطلقت بالعنفوان خطوها

حتى ارتقت إلى ذرى الكرامة

لكنها الآن بدت خائفة

تلتف بالوحل وبالقمامة

والخـــائفون يشـــربون وهمهـــم

ويـــذرفون صـــمتهم علامـــة

يلقـون مـا كـان لهـم مـن عـزة

عـــلى رمـــال الـــذل والندامـــة

فالصـــائدون حومـــوا ودمـــدموا

والســـهم لا يـــرحم مـــن أمامـــه





النعامة بين الكيل بمكيالين .. ومحاولة استرداد الأذنين

رفض المارد الخوض في أي حديث.. يتعلق بشهرة النعامة في الجري الحثيث.. لأن ما كانت تتحلى به من عنفوان.. قد أصبح في خبر كان.. أما الآن فإنها لا تحصل إلا على درجة صفر.. في كل مسابقات هذا العصر.. ومن ناحيته حاول المجنون أن يؤكد للمارد.. وهو يعود به للزمن البائد.. أن قدماء المصريين.. كانوا للنعامة عاشقين.. كما أنها كانت تنطلق بكل حيوية.. فوق رمال الصحارى العربية.. ولهذا كان الشعراء الصعاليك يتفاخرون.. بأنهم يسابقون النعامة أحياناً وهم يجرون.. وهؤلاء ينطبق عليهم المثل القديم.. «أعدى من الظليم».. ومرة أخرى رفض المارد اللجوء إلى التاريخ.. حتى لو كانت النعامة قد وصلت إلى المريخ.. فالمهم هو ما نفعله الآن.. وليس ما كان في قديم الزمان.

«أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل.. وأيام بتيجي على ولاد الأصول تنذل».. ومع هذا فلابد من إيجاد حل.. وهكذا وقف المارد وحده في الخلاء.. لينادي على أحد من يعرفهم من الأطباء.. واقترب الطبيب بكل هدوء من النعامة.. ثم أكد أنها ستظل يائسة حتى يوم القيامة.. إلا إذا عادت عزيمتها إلى الروح.. واستيقظ ما كان لها من طموح.. وطلب الطبيب إعطاءه مهلة سنتين.. حتى يعيد للنعامة ما كان لها من أذنين.. كما طالب بأن يحصل على

أجره بالدولار.. وإلا أحرق النعامة بالسولار.. وكاد المجنون يجهش بالبكاء وبالنحيب.. وهو يصرخ فيوجه الطبيب.. أتريد مهلة سنتين ونحن في عصر السرعة.. أأنت نصاب أم طبيب بارع في الصنعة؟!.

خاف الطبيب من غضب المجنون والمارد.. فاقترب مرة أخرى من جسد النعامة الهامد.. لكمنه لاحظ أنها ترتجف من ارتفاع الحرارة.. رغم أن معدتها كانت تهضم الحديد والحجارة.. وتم حقن النعامة بحقنة من المسكنات.. وهذا ما أعادها لبعض من الثبات.. وقال الطبيب إن الحرارة ما تزال مستمرة.. لكن الحالة الآن مستقرة.. وسرعان ما بدأت النعامة تهذي بأصوات ليس بينها انسجام.. تماماً كما يهذي بعض النيام في المنام.. وأخذ حلقها يجاهد كي يبعد الغصة.. وهي تروي ما كان لها من قصة.

«إذا كان الحمار قد كره الناس.. ورأى أن معظمهم وسواس خناس.. فإني أرى أن الناس لا يظلمون.. إلا إذا أحسوا أنهم على غيرهم متفوقون.. وهذا ما يفعله الجميع.. حين يقومون بكل ما هو فظيع.. لقد طلبتُ منهم أن يعطوني قرنين.. ففوجئت بأنهم قطعوا ما كان لي من أذنين.. وهكذا لم أعد قادرة على الاستماع.. لما يثار أو يقال في أي اجتماع.. ولابد هنا من الإشارة إلى ما رأيته بالعين.. حيث يتبع الكل سياسة الكيل بمكيالين.. فالحمار يمتلك أطول أذنين.. وللفيل أعرض أذنين.. وها أنا وحدي أعيش بغير أذنين».

توقفت النعامة عن الهذيان.. وهي تتشنج كأنها وعاء في حالة غليان.. وهنا أكد الطبيب بشكل حاسم لكنه عملي.. أنه سيحاول إقناع البنك الدولي.. بأن تسترد النعامة ما لها من أذنين.. بشرط أن تتعهد بسداد ما عليها من دين.. وقال الطبيب بنبرة صوت زئبقية.. إن وكالة الطاقة الذرية.. قد أبلغته بأن الطلب الأول للنعامة.. قد أثار قلق مديرها واهتمامه.. وذلك لأن طلب الحصول على قرنين.. من شأنه أن يجلب سوء الظن.. فضلاً عن أنه طلب غير مشروع.. يدخل في دائرة المحظور والممنوع.. وكان لابد للوكالة أن تحتاط.. حتى لا تختلط الأمور دون أن يحكمها رباط.. فمن الجائز جداً أن يقع القرنان.. في أيدي المارقين من أتباع الشيطان.. ومن الجائز أن تتشابك القرون.. كما تتشابك في الغابات الغصون.. ثم ماذا لو أن النعامة استخدمت القرنين..

كي تدخل في صراع مع وحيد القرن؟.. على العموم فإن القضية ليست بسيطة..
وكالة الطاقة الذرية ليست عبيطة.. وباعتباري طبيباً فإني سأحاول.. أن أوفر للنعامة عدداً من البدائل.. ولكن ليس من حقها أن تختار.. وإلا ألقاها البنك الدولي في قلب النار.. فهذا جزاء المارقين.. ممن ظلوا عن القرون باحثين.

احتج المجنون على كلام الطبيب بشدة.. وهدد بطرده شر طردة.. وقال له: ليس لك بغد اليوم من عودة.. وظل المجنون في حالة ذهول.. وهو يصرخ ف يوجه الطبيب ويقول:

وحش الحضارة تخفي وجهه الحيل

ويختفي إن رآه الحب والأملُ

الطب في موكب الدولار يخدعنا

ولم يعد بعلاج الخلق ينشغلُ

جاء الطبيب لكي يشفي أحبتنا

فاجتاحهم قلق وازدادت العللُ

هذا هو الطب في فوضى مزخرفة

«مثل النعامة لا طير ولا جملُ»





النعامة ترفض العلاج .. وتؤكد أن الغش قد راج

تبرأ المارد من صديقه الدجال.. وأشار إلى أنه يحتال.. لكي يسرق من المرضى ما لديهم من أموال.. وأنه واحد ممن يستنزفون ثروات الآخرين.. وحين يستمعون إلى شكوى أو أنين.. تتحول آذانهم أجمعين.. إلى «ودن من طين وودن من عجين».. أما المجنون فقد استغرق في قراءة إعلانات.. منشورة على صفحات الجرائد والمجلات.. وكلها تعلن عن تقديم مساعدات.. للنعامة التي قطعوا لها من كان من أذنين.. دون أن يسمحوا لها بالحصول على القرنين.. حيث أعلن حمار عن تبرعه في حالة وفاته بأذنيه.. بينما أعلن غزال عن تبرعه بقرنيه.. هذا إذا تعرض للاغتيال.. أو وقع في كمين في أحد الأدغال.. وأحس المجنون أن هذه الإعلانات هي للاستهلاك المحلي.. وليست نابعة من تعاطف حقيقي.. لأن الذين يريدون أن يساعدوا عليهم أن يعملوا في صمت.. وألا يضيعوا في الإعلانات الوقت.

من ناحية أخرى رفضت النعامة تلقي أي علاج.. وأكدت أن الغش في هذا الزمان قد راج.. وأن الأدوية قد أصبحت سلعة وتجارة.. لأن صانعيها لا يفكرون في غير حسابات الربح والخسارة.. ولم تنس النعامة أن تشكر الحيوانات الصديقة.. على إعلاناتها المزوقة والرقيقة.. لكنها أسرّت للمجنون بأنها لا تحب

أن يمن عليها أحد.. رغم كل ما تلاقيه من ضيق ومن نكد.. وعندما لاحظ المجنون أن المارد قد استغرق في التفكير.. قال له: «العبد في التفكير والرب في التدبير».. ولم يسأله المارد عن معنى أو تفسير.. وإنما شرع في تنفيذ ما كان يفكر فيه.. وهو عمل رائع يستحق الإشادة والتنويه.. حيث اقترب برفق من النعامة الجالسة.. في حالة محبطة ويائسة.. وأمسك رأسها بإحدى اليدين.. ثم ركب لها بالأخرى أذنين صناعيتين.. وهكذا عادت للنعامة حاسة السمع.. فذرفت عيناها من فرط الفرحة الدمع.. بينما اهتز المجنون ورقص بالطبع.. ثم بدا وكأنه شارد.. فاندفع تلقائياً ليسأل المارد:

★ لماذا لم تتحرك النعامة ولم تنهض.. مع أني كنت أتوقع أن تجري وأن تركض؟

- أنسيت يا مجنون أن إحدى ساقيها هامدة.. وأنها لا يمكن أن تتحرك بساق واحدة.

★ إذا كنت قد أعدت لها حاسة السمع.. فأنت تستطيع أيضاً أن تصلح الوضع.. أين ما لديك من فنون وحيل؟.. لا تتكاسل - أرجوك - فأنت دائماً تحب العمل.

- طلباتك أوامر.

★ إذن.. هيا.. وبادر.

مرة أخرى اقترب المارد من النعامة.. فأحس على الفور أنها متململة من قسوة الإقامة.. وكأنها تقضي حكماً بالإقامة الجبرية.. حيث لا تذوق طعم الحرية.. أما المجنون فقد أدرك أن المارد يتهيأ لإجراء عملية.. فتمنى له التوفيق في العمل.. حتى يتحقق ما يرجوه من أمل.. ولم تكد تمر دقائق معدودات.. إلا وقد تحقق ما يشبه المعجزات.. حيث رأى المجنون أن النعامة تنهض بصورة طبيعية.. فتيقن أن المارد قد ركب لها ساقاً صناعية.. ويبدو أن هذا ما كان بالفعل.. لأن النعامة نفضت عن ريشها الوحل.. واقتربت من المجنون بخطوات واثقة.. لتشكره على مشاعره الصادقة.

★ كنت أظن أني لن أنهض إلى الأبد.. وأنه لا ينبغي أن أتطلع إلى مساعدة أحد.. فقد كنت أرى حولي شقيقات كثيرات.. من بنات جنسي النعامات.. يدرن بالقرب مني عدة دورات.. دون أن أتلقى من أي منهن أية مساعدات.. وكنت أشعر بالخجل في قرارة نفسي.. وأنا أكاد أغوص في يأسي.. وقد غصت في اليأس أكثر.. عندما جاء الطبيب

الدجال يتبختر.. ثم طلب إعطاءه مهلة سنتين.. كي يعيد لي ما كان من أذنين.. وها أنا أتمتع الآن بنعمة السمع.. نتيجة توصياتك للمارد بالطبع.. والآن أستطيع القول إني لم أعد متخلفة.. ولم أعد عن ركب الحياة متوقفة.

قالت النعامة ما قالت للمجنون.. ثم اندفعت لتلحق بمن كانوا يسبقون.. مؤكدة أنها قد نفضت غبار القرون.. وبمجرد أن انطلقت بكل رشاقة وجمال.. نظر المجنون إلى المارد ثم قال:

تفتحت حلوة أزهار آمالي

مذ بدلت لمسات الحب أحوالي

فقلت للقلب والأفراح توقظه

اسمع صدى نغم أو نبض شلال

«نزه لسانك عن قول تصاب به

وارغب بسمعك عن قيل وعن قال»

وصغ من اللغة الخضراء جوهرها

واصفع به كل من دانوا لدجال

وقل لمن نهبوا بالغش ما نهبوا

لا يعرفُ الحب من ينقاد للمال

وهذه دورة التاريخ تنذركم

أن الزمان لمن يحيون آمالي

فابعدوا عن جبين الحلم خنجركم

ولتسقطوا جيفاً في عصرنا الحالي





١٤

الـديك يؤكـد أن الـدجاج .. يبيض الآن بدون مزاج

نتيجـة لإخلاصـه وتفانيـه.. في القيـام بالعمـل الـذي يؤديـه.. ونتيجة حرصه على جمع البيض الغـالي لديـه.. خـر الـديك فجـأة مغشياً عليه.. بعد أن كاد يسقط من أعلى سطح.. عنـدما كـان يهـم بالتبشير الروتينـي بمـيلاد الصـبح.. وقـد مـارس الـدجاج عملـه المعتاد.. منذ أن فقد القدرة على التمييز بين المصائب والأعيـاد.. أمـا الـدجاج المقـرب مـن الـديك.. فإنـه رفـض أي محـاولات للتشكيك.. في قدرة الديك على صيانة البيض.. وهذا بالطبع غيض من فيض.. وصاحت دجاجة بضة سمينة.. بعـد أن نتفـت إحـدى ريشاتها الثمينة.. بالروح والدم نفديك.. يا حـارس الـدجاج بغيـر منـازع أو شـريك.. أمـا الدجاجـة التـي اخـتلط ريشـها الأبـيض بالسواد.. فقد صاحت إن ما جرى هـو مـن كيـد الحسـاد.. بينمـا شوهدت دجاجة حاقدة متهـورة.. وهـي لا تكـف عـن الثرثـرة.. مبديـة تعاطفهـا مـع ديـوك مقهـورة.. كُممـت مناقيرهـا بعـد أن أصبحت صيحاتها محظورة.

تعاطف المجنون – من ناحيته – مع الديك الذي سقط.. لأنـه لا يحب أن يرى العقد قد انفرط.. ولأنه – من جهـة ثانيـة – كـان يتصور.. أن الديك الذي تعثر دون أن يتكسر.. هـو الـديك الـذي أحبه أمير الشعراء.. ورأى أنه أذكى الأذكيـاء.. خصوصـاً بعـد أن

استطاع أن استطاع أن يخدع الثعلب.. وجعله يدور حول ذيله وهو يتشقلب.. وقد انتصر هذا الديك وقتها وتغلب.. على ألف مكيدة وألف مقلب.. وظل يصيح بأعلى صوت.. وهو يواجه الحقد والمقت:

إن عزمي لن يلينا	رغم بطش الظالمينا
ليس للثعلب عهد	منذ أن كان جنينا
إنه أرضع مكراً	في كهوف الماكرينا
فادعى الحب ولكن	حبه كان كمينا
عندما جاء إلينا	«في شعار الواعظينا»
ممسكاً باقة ورد	«وهو يرجو أن ألينا»
وأنا أطلقت صوتي	لن أحيي الكاذبينا
«مخطئ من ظن يوماً	أن للثعلب دينا»

ضحك المجنون فجأة.. عندما أخبرته امرأة.. كانت تمشي في الطريق بلا مبالاة.. أن ديك أمير الشعراء قد تاه.. ثم باحت المرأة بأعجب سر.. بينما كانت عيناها تنطقان بالزهو وبالفخر.. وم خلال حديثها عرف المجنون.. أن ديك أحمد شوقي يحيا في مكان مأمون.. ولم يحدث له مكروه ولم يسقط في كمين.. بل إنه يخرج كثيراً كي ينبه الآخرين.. إلى ما يكتشفه من كمائن.. ينصبها الثعلب في عدة أماكن.. وهنا أهدى المجنون للمرأة قطعة من اللبان.. حتى لا يتوقف لها أبداً لسان.

بالمصادفة وحدها وجد المجنون النعامة.. واقفة تتباهى بساقيها أمامه.. حيث أخبرته بأن الديك الذي كان قد سقط.. هو من نوع «حبيبك يبلع لك الزلط.. وعدوك يتمنى لك الغلط».. ولهذا فإنه لا يحاسب الدجاج المقرب.. عندما لا يحضن البيض كما يتوجب.. أما الدجاج الذي يتمرد.. لأنه لا يطيق أبداً أن يتجمد.. فإنه –عادة– يجعله في وضع مقيد.. تتأكد من كلامي إذا سألت صديقك المارد.. فهو يعرف أكثر مني أن الوضع الآن راكد.

حاول المجنون ألا يتدخل في أي شأن.. حتى لا يتعرض من جانب أحد لسوء الظن.. ولكن بعد أن طغى عليه الحزن. قال: كيف أسكت ولا أتكلم.. إذا كان الكل من

حولي يتألم؟.. قال المجنون ما قال.. لأنه لا يحب أن يهرب من مواجهة سوء الأحوال.. وإنما يحب أن يخوض في الزحام.. ويصغي دائماً بكل اهتمام.. لكل ما يتردد حوله من كلام.

في مقهى قديم يوشك أن يتهدم.. قال أحد الجالسين وهو يتلعثم.. إن أبناءه يحسون أن مستقبلهم في أظلم.. حتى من قبل أن يأتي المستقبل.. وذلك لأن المستقبل من الحاضر يتشكل.. وقال رجل آخر بصوت ساخر: أين هو هذا الحاضر؟.. إني أنصح من يستطيع الهجرة أن يهاجر.. حتى إذا كان سيطبل للعواهر.. ورد عليه ثالث وهو ينفث الدخان.. وأين هو الأمان؟.. إن الصراع الآن بلا حد.. لأن باب الرزق قد ضاق ويوشك أن ينسد.. وأنا شخصياً جئت الآن من الأسواق.. دون أن أحصل على ما أشتاق.. بل إن الشوق نفسه قد همد.. تماماً كالبيض إذا فسد.

دخل إلى المقهى رجل غريب.. وأخذ ينظر للكل بشكل مريب.. ثم قال بمنتهى الثقة.. عدة عبارات مرتبة ومنمقة.. حيث أشار إلى أننا نجتاز عنق الزجاجة.. وبعدها سيلتهم كل واحد أكثر من دجاجة.. ولكن علينا أن نتحمل الآن.. ما دام العالم كله في حالة غليان.. وأكد الرجل الغريب.. أنه قد يخطئ أو يصيب.. لكنه يعرف تمام المعرفة.. ودون حاجة لحذلقة أو فلسفة.. أن الديك الآن حزين.. وأنه ربما يفصح أن يبين.. بعد أن يلم ما تناثر من شظايا الزجاج.. وقال الرجل الغريب إن العولمة غول رجراج.. وإن الثور لا يمكن أن ينطحها حتى لو هاج.. ثم قال إن الديك أكد له أن الدجاج.. أصبح يبيض الآن بدون مزاج.





١٥

الـديك يقفـز مـن أعلـى سـور محتجا على إنفلونزا الطيور

بعد أن أفاق الديك من الإغمـاء.. لم يعـد يعـرف الأفعـال مـن الأسماء.. لكنه أكد لبعض القنوات الفضـائية المثيـرة.. أن إعـادة الأمن لحظيرة.. ليست من القضايا السهلة واليسيرة.. نظراً لتسلل وحوش خطيرة.. تزرع الفتنة بين الدجاج باستمرار.. وأحياناً تقطع رؤوسها بالمنشار.. ورأى الديك أن الأمـور أصـبحت لا تطـاق.. منذ أن انسكب الشقاق على الوفـاق.. وكمـا يختـلط الليـل بالنهـار.. اختلط الأسد مع الحمار.. وتحالف المـاء مـع النـار.. وهكـذا أكـل الخروف لحم النمر.. ولم يعد للإنسان أي سعر.. يستوي في هـذا مـن يسكن في فيلا أو قصر.. مع الحاوي الذي يمشي على الجمر.. وأبدى الديك كذلك دهشته الشـديدة.. مـن نقـر العصـافير لصـفحات كـل جريدة.. خصوصاً بعد أن نبتـت لتلـك العصـافير قـرون.. أصـبحت تتعلق بها فوق الغصون.. وعن طريقها تتدخل في كل الشؤون.

وفي مقابلة على الهواء مباشرة مع الديك.. بثتها قناة «تشـكيك» المتخصصة في التليفريك.. شرح الديك وجهة نظره فيما يجري.. وقال إنه كان يتعاون مع وحيد القرن دون أن يـدري.. لكنـه دافـع عن موقفه بحسم.. مؤكداً أن ديوكاً أخرى لم يحددها بالاسم.. قـد تعاونت قبله مع هذا الوحيد.. وهـذا أمـر لـيس بالجديـد.. وهنـا انطلقت الدجاجة المتهـورة.. لتفضـح موقـف الـديك ومنظـره..

وقالت: أهذا ما تفتق عنه الذهن؟.. ألا تعلم يا سيد ديك أن سوء الظن قد استبد بكل من في الكون.. منذ أن أصبح وحيد القرن.. يتحكم وحده في لحم الضأن.. ويهيمن حتى على كل من ليس له شأن؟.. وإذا وضعنا وحيد القرن على الرف.. وتحدثنا بكل صراحة حر الصيف.. فماذا أنت قائل في الوضع السائد.. وماذا عن أعداد البيض الفاسد؟.. ولماذا تنعم دجاجاتك المقربة..بكل خيرات الحظيرة الطيبة.. بينما يحيا أمثالي في حالة معاناة.. وأنت تنظر بلا مبالاة؟.. وهنا تدخل المذيع في الحال.. واعتذر للديك عما قيل وعما سيقال!

أحس الديك بعد المقابلة بعسرٍ في الهضم.. وتصور أن الدجاجة المتهورة دست له السم.. ولكي يرفع شعبيته التي تدنت إلى ما تحت الصفر.. أسر لدجاجة سمينة تكتم السر.. أنه سيلعب لعبة خطيرة.. وطلب منها أن تساعده باعتبارها أبرع خبيرة:

★ لن ألعب كالبهلوان على الحبل.. لكني أتصور أني قد توصلت إلى الحل.. سأصعد إلى مبنى يتلألأ بالنور.. وبعد الصعود سأقفز من أعلى السور!

- ولكن قد تنكسر رجلاك.. أو تسقط فوق الأشواك!

★ أتشكين في قدرتي وفني.. وقد رتبت الأمر في ذهني؟..

- وماذا عن هذا الأمر وماذا عني؟

★ سأقفز بكل شجاعة.. وأنت ستضعين على الأرض بكل براعة.. وسائد من ريش النعام.. بشرط ألا تثير الاهتمام.. وعليك أن تجمعي الدجاجات الغبية.. وتبلغيها بما عقدتُ عليه النية.. فالديك سيقفز من أعلى سور.. محتجاً على إنفلونزا الطيور.

- هذه فكرة رائعة.. وأتوقع أن تعيد لك شعبيتك الضائعة.. ولكن حاول ألا تتهور.. حتى لا يتعكر مزاجي أو يتكدر.. وأرجوك أن تتذكر.. أن الدجاج يبيض الآن بدون مزاج.. وكأنه ليس سعيداً بالزواج.. وأنا أرى أن الأمر خطير.. وعليك بإصلاحه حتى تفلت من سوء المصير.

★ يا دجاجة روحي وقلبي.. إن الذنب فيما يجري ليس ذنبي.. إنه من علامات العولمة.. حيث يكره كل توأم توأمه.. ويتعامل معه لكن دون أن يرحمه.. ولا بأس من أن يخدعه.. إذا لم يستطع بالطبع أن يقنعه.

أثناء الحديث بين الدجاجة والديك في الخفاء.. عاد الديك مرة أخرى إلى الإغماء.. بينما اصطحبت الدجاجة المتهورة ديكاً شاباً وصعدت معه إلى السطح.. ربما ليبشر بميلاد الصبح.. وهنا تأكد المجنون أن الأرض الخراب.. يمكن أن تصبح جنات من تين وأعناب.. ويمكن أن تحتضن الأحباب.. من المجانين والعقلاء.. على حد سواء:

دجاج الحمى.. يا دجاج الحمى

هو الصبح وعد بان تنعما

هي الأرض ليست لديك وحيد

يحب التقوقع كي يسلما

ويبقى يذل الدجاج ويخفي

جمال الحقول ونور السنما

هي الأرض خيراتها للجميع

وليست لمن عاش مستسلما

إذا ما أطال الربيع المكوث

مللنا وضقنا بما قدما

فكيف إذا ما الخريف أناخ

وشاخ فباخ وأهدى العمى؟



١٦

خروف يؤكد للمجنون أنه ضحية ومجلس الأمن قد ينظر في القضية

قبل أن يدق عيد الأضحى على الأبواب.. ليقوم بتحريض الأولاد والشباب.. على ارتداء أفخر الثياب.. خرج المجنون في المساء كي يتجول.. وبين بيوت فريج السد في الدوحة أخذ يتمهل.. حيث اندهش وهو يلاحظ حركات غريبة.. تدعو للشك والريبة.. فقد رأى رجالاً كثيرين.. يتحركون متباهين.. بما يحملونه من سكاكين.. وقد ارتدوا أحذية مستطيلة.. وكأنهم يتأهبون لحرب طويلة.. تتدفق خلالها شلالات الدماء.. بعد أن يتغلب الأقوياء على الضعفاء.

اقترب المجنون من مجلس صديقه محمد بن خليفة العطية.. وهو شاعر يكتب قصائد كالأزهار البهية.. لكن طبيعته السخية.. تدفعه دوماً لتقديم ضحية تلو ضحية.. ورأى المجنون بعينيه عدة خرفان.. تحاول التسلل من أحد الجدران.. بينما خلع خروف مرتعد وملهوف.. ما يكتسي به من الصوف.. حتى يكون الهروب بشكل أسرع.. إذا أحس بأنه قد يُخدع.. وبينما كان المجنون يتابع الموقف بعينيه.. تسللت فجأة إلى أذنيه.. أغنية جميلة من أغاني محمد عبد الوهاب.. فيها حنين واشتياق للأحباب.. بعد أن تركوه يشرب من كأس السراب.. لكن المجنون لاحظ أن الكلمات.. قد تغيرت عما كانت عليه في الزمن الذي فات.. وهكذا ترقرقت كلمات «عندما يأتي المساء».. وترددت ألحانها في الفضاء:

«عندما يأتي المساء» وفريج السد يسهر

تهرب الخرفان خوفاً مِن أياد تتنمر

تخلع الصوف وتجري بقرون تتكسر

مأمآت تتلاشى وضحايا تتكور

ليته تسكب دمعاً بين سكين وخنجر

بعد أن عاشت زماناً في المراعي تتبختر

تمضغ العشب وتبقى في اجترار يتكرر

وتظن العيش لهواً ومياه البئر كوثر

فجأة يقبل يوم فيه تنقاد لتنحر

ولهذا يتبارى كل جزار تشمر

آه من سهم مواشي عندما يعلو ويزأر

قرر المجنون أن يعود من حيث جاء.. بعد أن تمهل ليستمع إلى «عندما يأتي المساء».. لكنه فوجئ باقتراب خروف.. يمأمئ بصوت متهدج وملهوف:

★ لماذا تعتبروننا دائماً ضحايا.. وتحاصرون أجسادنا في كل الزوايا.. حيث نتعرض للنحر وللقتل.. قل لي.. أيرضيك هذا الفعل؟

- يا سيدي الخروف.. هذا أمر مألوف.. يتعرض له جميع الضعفاء.. من جانب المتجبرين الأقوياء.. ولا فرق في هذه الحالة بين بني الإنسان.. وحشود الأرانب والدجاج والخرفان.

★ لماذا إذن تقولون بأصوات مزهوة.. إن الحق فوق القوة؟

- هذا مجرد كلام.. أيها الخروف الهمام!

★ ألا يحق لخروف مثلي أن يعترض؟

- لا يحق لك حتى أن تمتعض.

★ ولماذا لا تقنعون بأكل النباتات.. حتى تنعم بالحياة كل الحيوانات.. ويعيش الكل في سلام.. وهم يتغنون بالأخوة والوئام؟

- ألا تعلم أيها الخروف أن القمح لم يعد يكفي البشرية.. وأنه يكاد يصبح كالعملة النادرة الأثرية؟

★ وما ذنبي أنا وسائر الإخوان.. من حشود الخرفان؟

- لستم وحدكم الذين تحل بكم الفواجع.. فهناك من يأكلون الضفادع.. وهناك من يحبون «الباجة» و«الكوارع».. وهناك من يأكلون القرود والكلاب.. والأمر لا يدعو لأي استغراب.

★ أليست هناك منظمات للدفاع عن حقوق الحيوان؟

- هناك منظمات لحقوق الإنسان.. وهو كما تعلم من جنس الحيوان.

★ أنت تغالط أيها المجنون.. وقبل أن أتعرض لسكين مسنون.. أريد التحدث مع مجلس الأمن بالتليفون.. لكي أحتج على هذا الأمر.. عسانا ننجو من الذبح والنحر.

- صدقني أني متعاطف معك.. لكني لا أريد أن أخدعك.. إن كثيرين من الناس.. من مختلف العقائد والأجناس.. يحبون لحم الضأن.. ومن بينهم أعضاء مجلس الأمن.. ولهذا فإن شكواك لن تفيد.. فضلاً عن أن التليفونات دائماً مشغولة في العيد.

انصرف المجنون وهو مشغول البال.. بعد أن تأثر بشكوى الخروف من الأهوال.. وأحس بوخز في الضمير.. لأن الخروف الذي اشتكى له قد يتعرض لسوء المصير.. وهكذا قرر المجنون إرسال رسالة.. دون استفاضة أو إطالة.. وعلى الفور انطلقت الرسالة لصديقه الشاعر.. لأنه -بكرمه- يشارك في ارتكاب المجازر:

يا محمدُ - بن خليفة - العطية

كيف تسعدُ - دون خيفة - بالضحية

هاهي الخرفان تشكوك إليه

جاء جزارون كثر في العشية

أبعــدوها عــن مــراع سندســية

نحروهـــا بســـكاكين قويـــة

وشـــووها فـــوق نـــار في العشــية

فاســـتحالت لفتاتيـــت طريـــة

مـــع مكبـــوس وأطبـــاق شـــهية

وعــدت في مجلــس الأمــن قضــية



١٧

الخروف يرتاح من التفكير..
بعد أن قرر التحول إلى خنزير

عاد المجنون من جولته الحزينة.. بعد أن زلزلت مأمآت الخروف ما كان في قلبه من سكينة.. وهكذا أسند يده على الخد.. متفكراً فيما رآه في فريج السد.. وفجأة دق جرس الباب بعنف.. فقام ليفتح لمن تصور أنه ضيف.. وإذا به يجد الخروف أمامه.. وهو يرتعش مما يتخيل أنه يوم القيامة.. ودخل الخروف البيت على الفور.. غير مصدق أنه قد نجا من النحر.. أما المجنون فقد قام بواجبات الضيافة.. بينما كان يسأل الخروف عما أخافه.. ويحاول أن يبعد عنه القلق.. لأنه لا يجلب لصاحبه إلا الأرق.

★ قل لي أيها الخروف المسكين.. يا من نجوت من السكين.. ماذا تحب الآن أن ترتشف.. حتى لا تظل هكذا ترتجف.. عندي أنواع مختلفة من العصير.. وعندي شراب الشعير.. ومن الممكن أن أعد لك فنجاناً من القهوة.. يغمرك بعد شربه بالنشوة.. أما أنا فأحب شرب الشاي بالنعناع.. وعندي منه عدة أنواع.

★ هل تظن يا مجنون أني أشرب هذه الأشياء؟.. أنا وإخواني لا نشرب غير الماء.. ونحن لا نطمع أبداً في سواه.. لأن الماء جوهر الحياة.. أما أنتم فلا تقنعون.. ودائماً أراكم تطمعون..فمنكم من يشرب الخمور.. ويتصور إنها تجعله في غاية الانشراح والسرور.. ومنكم من يشرب الحشيش والأفيون.. لكي

ينسى ما كان وما قد يكون.. وباختصار شديد.. أنتم لا تقنعون بما يفيد.. بل تطمعون حتى فيما تعرفون أنه قد يبيد.

★ أيها الخروف عليك بالاحتراس.. فأنت الآن تهاجم كل الناس.. حاول أن تكون دبلوماسياً في اللغة.. وأن تعبر عما تقوله بأشكال مراوغة.

- أنا أعرف الباطل كما أعرف الحق.. لكني لا أحب غير الصدق.

★ الصدق يكلفك حياتك.. فإذا كنت تريد نجاتك.. فما عليك إلا بالكذب والبهتان.. وبهذا تنجو من قبضة الطغيان.. وتضمن ألا يتمزق جسمك بالأنياب وبالأسنان.. وعليك أيضاً أيها الخروف أن تتمسكن.. وتظل هكذا إلى أن تتمكن.. ويمكنك أيضاً أن تتعلم من الحرباء.. حيث تتلون دون إبطاء.

فجأة تكدر مزاج الخروف وتعكر.. عندما تخيل أنه يسمع أسداً يزأر.. والحقيقة أنه لم يكن هناك أسد.. بل لم يكن مع المجنون والخروف أحد.. وكل ما في الأمر أن الموبيل كان يرن.. وهو يتحرك كالنحلة حين تطن.. لقد تلقى المجنون رسالة.. فانطلق ليقرأها في عجالة.. وإذا بالرسالة من الشاعر محمد بن خليفة العطية.. يطالب فيها المجنون بنحر الضحية:

«أيها المجنون ما جدوى القضية

بعد أن تقضي على الكبش المنية

إنما كبشك قربان طليق

فاشحذ السكين وانحره هدية

ودع اللغو مع الكبش فإن

اللغو لا يمنع أقدار الضحية»

قال الخروف للمجنون بعد أن قرأ ما قرأ.. أرجوك ألا تخفي عني ما تلقيته من نبأ.. أرجوك أن تخبرني بما في الرسالة من مضمون.. تى لا تعصرني أفاعي الظنون.. ولأن المجنون يحب الصدق.. ولا يقول غير الحق.. فإنه لم يتهرب من المسؤولية.. وقال للخروف إن الرسالة تحريضية.. وإنها موجهة ضده هو بالذات.. وتطالب بتحويل

جسده إلى فتات.

أحس المجنون بقدر من الحرج.. بعد أن أخذ الخروف ينشج ويتشنج.. وهو يقول بصوت محزون.. وماذا أنت فاعل بي يا مجنون؟.. إني سأعترف لك طول العمر بالفضل.. إذا أعفيتني من النحر والقتل.. ألا يكفي أن صديقك الشاعر.. قد ارتكب ضد إخواني المجازر.. كأني أشهد الآن ما يدور.. دماؤها تسيل بينما يتجمع الأولاد حولنا في فرح وسرور:

حشود من خراف في الليالي

تساق إلى المجازر بالحبال

رماها النحر للجزار ظلماً

وما من منقذ شهم يبالي

وهمت بالسكاكين الأيادي

لمعركة تدور بلا قتال

فصرت إذا تمشي الناس قربي

تزاحمت الوساوس في خيالي

أوشك المجنون على البكاء.. بعد أن استمع إلى أبيات رثاء.. يقولها خروف مسكين.. نجا من بطش السكاكين.. لكنه يشعر بالأسى والحزن.. على ما جرى لإخوانه الذين أصبحوا لحوم ضأن.. يستمتع بأكلها معظم أعضاء مجلس الأمن.. وبعد أن طال تفكير الخروف.. تجاه ما يواجهه من ظروف.. ارتاح أخيراً إلى قرار.. يتكفل بأن يعيد للونه الازدهار.. وهنا قال الخروف للمجنون.. أنا أعرف أن الناس هنا مسلمون.. لهذا أرجو أن تساعدني في أن أتحول من خروف إلى خنزير.. لأرتاح من عناء التفكير.. وإن كنت لا أضمن في المستقبل.. ألا أصاب في مقتل.. وبعد أن تم للخروف ما يشاء.. نظر إليه المجنون باستياء. وقال له عليك الآن أن تغادر البيت.. دون أن يصدر منك أي صوت.. ودون أن تحتج لأحد.. وإلا قدمتك طعاماً سائغاً للأسد!





الخروف يتجلى في هيئة بقرة..
ولم يعد أحد يقتفي أثره

نجا الخروف من السكاكين والسواطير.. بعد أن استطاع التحول إلى خنزير.. لكن فرحته بنجاته لم تدم أكثر من ساعة.. حيث عاد لبيت المجنون بروح مرتاعة.. وخفقات قلب ملتاعة.. من فرط ما استبد به من هلع.. بعد أن نظر له أحد جيران المجنون نظرة طمع.. وحاول أن يربطه بحبل متين.. بعد أن تصور الجار أنه أمام خنزير سمين.. وأنه من الممكن تحويله إلى وليمة شهية.. يدعو لها أصدقاءه الذين يدينون بالمسيحية.

على الفور ضحك المجنون.. وهو يحاول أن يبعد عن الخروف عاصفة الظنون.. رغم أنه أدرك أن الأمر خطير.. لأن جاره «مستر سيمون» ممن يأكلون لحم الخنزير.. وظل المجنون ينظر بإشفاق للخروف.. لأنه يتعاطف مع الضعفاء في كل الظروف.. وتأكد المجنون أن الخروف.. بعد أن تغير شكله المألوف.. أصبح «كالمستجير من الرمضاء بالنار».. وأن الأمر لم يعد سراً من الأسرار.. فقد نجا الخروف من محاولات محمد بن خليفة العطية.. لأن يجعل من جسده ضحية.. وها هو «مستر سيمون» يريد أن يقدمه وليمة شهية.. منذ أن أصبحت ملامحه خنزيرية.

قدم المجنون للخروف بعض الأفكار.. بينما كانا مندمجين في الحوار.. وكان من بين المقترحات المقدمة.. أن يهرب الخروف

بصورة غامضة ومبهمة.. أو أن يرسل رسالة.. دون استفاضة أو إطالة.. إلى بعض القانونيين.. بشرط ألا يكونوا من المسلمين.. وألا يكونوا كذلك من المسيحيين.. وقد وافق الخروف على الاقتراح الأخير.. وأصبح لابد من حسن التدبير.. حيث سجل الخروف رسالة صوتية مؤثرة.. وراعى أن تكون مأمآتها واضحة ومعبرة.. وعلى الفور أرسل المجنون الرسالة لأحد أصدقائه الهندوس.. بشكل مرتب ومدروس.

لم يتمكن أحد في الهند.. من القيام بالرد.. على رسالة السيد الخروف.. رغم أنه شرح فيها ما يواجهه من ظروف.. ولا يرجع السبب إلى كسل الإداريين.. وما يتقيدون به عادة من روتين.. وإنما لأن الرسالة تضمنت مأمآت متداخلة.. ولهذا لم يستطع أحد ترجمتها ترجمة متكاملة.. خصوصاً أن مجموعة كبيرة من المأمآت.. لم يكن من السهل ترجمتها إلى كلمات.. توضح ما فيها من المعاني والدلالات.. ولم يقبل المترجمون هناك باللجوء إلى تخمينات.. قد توقعهم في متاهات.. وتضارب في التفسيرات.. مثلما يحدث أحياناً في قرارات مجلس الأمن.. من تلاعب وسوء ظن.. حيث تتحول كلمة «الأرض» إلى «أرض».. وتتحول «القُبلة» إلى «عض».. و«المقاومة» إلى «إرهاب».. و«تلاقي الأصحاب والأحباب».. إلى «مؤامرة تحاك داخل سرداب».

ضاق الخروف بأوجاع الانتظار.. فقرر أن يلجأ للانتحار.. لكن المجنون وبخه بعنف.. وهدده بحرمانه من حق الضيف.. وقال له بوضوح وجلاء.. إن الانتحار وسيلة الجبناء.. حين يضيقون بما يتحملون من الأعباء.. وبينما كان المجنون يتحدث.. دون أن يتمهل أو يتريث.. سقط من يده القمقم النحاس.. فارتعب الخروف واحتبست فيه الأنفاس.. بعد أن خرج المارد من القمقم.. وأخذ يتمتم.. وبالطبع فإن المجنون لم يتلعثم.. بل إنه أصدر للمارد أمراً.. وطلب منه أن يقوم بتنفيذه فوراً.

★ أرجو أن تحول هذا الخنزير إلى بقرة.. حتى لا يستطيع أحد أن يقتفي أثره.

- هذا أمر سهل.. لكننا لو رجعنا للأصل.. سنجد أن الخنزير الذي يبدو أمامي.. كان خروفاً خاف من مصيره الدامي.. بعد أن توعده صديقك محمد بن خليفة العطية.. بأن يحول جسمه إلى ضحية.. ولم ينقذه من هذا المصير.. إلا تحوله إلى خنزير.. إلى أن واجهه جارك «سيمون» بتهديد خطير.. والآن فإني أسألك لماذا طلبت ما طلبت.. رغم أنك قد كذبت؟

★ لم أكن أعرف أنك تعرف!

- لا تكذب مرة أخرى.. وإلا فلن ألبي لك أمراً.. وعلى أي حال فإني الآن.. سأجعل هذا الذي ينتمي للخرفان.. يتجلى في هيئة بقرة.. حتى لا يقتفي صديقك الشاعر أثره.. وسأحمله دون أي جهد.. وأتركه على ضفة نهر السند.. في بلاد الهند.

★ هذه فكرة جميلة.. وعليك بتنفيذها بما لديك من حيلة.

بعد أن تم التحول من حال إلى حال.. ولم تعد هناك مخاطر أو أهوال.. اتفق الجميع على عدم إفشاء السر.. وهذا ما نفذوه على الفور.. وكانت البداية عندما رن التليفون.. في بيت المجنون.. وكان المتكلم هو الشاعر محمد بن خليفة العطية.. يسأل: هل تم نحر الضحية.. فأنكر المجنون احتضانه لأي خروف.. في أي ظرف من الظروف.. وقال بصوت هادئ وماكر.. وهو يرد على صديقه الشاعر:

عاش الخروف فأحرج الجزار
وتذبذبت في البورصة الأسعار

فاهرب - فديتك - من خروف جامح
يرعى.. وقد خدعت به الأبصار

إن الطريق إلى الخروف محير
وهو الذي تحلو له الأسفار

حيناً هو الخنزير يجتاز المدى
وتراه- حيناً - أهله أبقار

والأرض تشهد للخروف بأنه
متيقظ.. وقرونه إصرار

هو في المراعي يرتوي من نبعها
يحمي خطاه المارد الجبار

وبقلبه شوق إلى دنيا بلا
قتل.. وليس يسوسها إعصار

ويبــث للمجنــون مأمــاة الهــوى

إن عطــرت أنفاســه الأزهــار

ويقول: إن ضمائر النـاس اكتسـت

صـــدأ وإن قلـــوبهم أحجـــار

مــا للعطيــة يقتفــي أثــراً لمــن

غابــت رؤاه ولم يعــد يحتــار

ويظل يبحث عن خـروف قـد نـأى

في عـــالم..ســقطت بــه الأســوار

إن الخــروف وقــد نجــا متخفيــاً

تحميــه أشــجار لهــا أســرار



١٩

الخروف يتحول لطاغية ..
والمجنون يهدد بإلقائه في هاوية

تجلى الخروف للهندوس في هيئة بقرة.. وجلس متمدداً تحت ظل أقدم شجرة.. وبعد أن كانت تلاحقه السكاكين.. أصبح يتلقى الهدايا والقرابين.. من الناس الذين يتقربون إليه. ويسعون لأن تكون لهم حظوة لديه.. أو يباركهم بنظرة من عينيه.. وتجمعت حوله حشود من المشعوذين.. وجموع من أصحاب المصالح والمنتفعين.. وأخذ الفقراء يركعون أمامه بخشوع.. ويوقدون أنواعاً متنوعة من الشموع.. وقد ترقرقت من مآقيهم الدموع.

بعد أن اطمأن الخروف أن أحداً لن يجرؤ على أن يقتفي أثره.. منذ أن تجلى على يد المارد في هيئة بقرة.. أخذت طبيعته تتغير.. وبدأ يتكبر ويتجبر.. بل إنه أخذ يرفض بعض القرابين.. بحجة أنه لم يعجب بأصحابها المساكين.. أو أن ملابسهم تبدو رثة وممزقة.. أو لأن توسلاتهم إليه ليست منمقة.. وظل الخروف سعيداً بما وصل إليه الحال.. خصوصاً بعد أن تكدست حوله الأموال.. لكن تفكيره في المستقبل.. وخشيته من أن يصاب في مقتل.. أو أن يتعرض لمحاولة اغتيال.. أو للنصب والاحتيال.. كلها أمور جعلته يحتاط ويتدبر.. ويمعن في التفكير أكثر وأكثر.. وهكذا طلب من بعض أفراد الحاشية.. أن يسافروا سراً إلى أحد البلدان النائية.. لكي يضعوا أمواله في بنوكها.. ويعودوا إليه بمستنداتها

وصكوكها.. ولكي يتم الأمر بمنتهى السرية.. اقترح الخروف وضع الأموال في البنوك السويسرية.. بشرط أن ترسل إليه الفوائد.. لكي يقيم بها أفخر الموائد.. لمن يتجمعون حوله من المشعوذين.. وبعض أصحاب المصالح والمنتفعين.. ولا بأس من إطعام بعض المساكين.. خصوصاً ممن يتقربون إليه بأغلى القرابين.. وتذكر الخروف – وهو يضحك – قول أحد الشعراء.. ممن أكدوا أن البسطاء..هم أنفسهم الذين يصنعون ما يلاقونه من بلاء.. لأنهم دائماً يألهون الحكام.. حتى لو حكموا عليهم جميعاً بالإعدام.. كما أنهم لا يثورون ضد الظلم.. وهذا ما يجعله يزداد يوماً بعد يوم.

يسكت الخانع الذليل فيعرى
ويطول السكوت دهراً فدهرا
فتظل الشفاه تلعق طيناً
ويذوق الجياع بؤساً وقهرا
بينما تلهو طغمة في الليالي
بمصير الشعوب ظلماً وعهرا
«كل قوم خالقو نيرونهم
قيصر قيل له أم قيل كسرى»

هكذا تحول الخروف إلى طاغية.. وأصبح ينظر نظرة متعالية.. إلى أنواع عديدة من الحيوانات.. وإلى الخرفان بالذات.. كأنه يريد أن ينسى أصله القديم.. وكيف أنه كاد يواجه مصيره الأليم.. عندما حاول محمد بن خليفة العطية.. أن يجعله ضحية.. وأن يقدمه لضيوفه وليمة شهية.. وعندما رآه مستر «سيمون» جار المجنون.. فتصور أنه خنزير بالشحم مسكون.. وأن جسمه السمين.. يصلح وليمة لأصدقائه المسيحيين.

كان لابد أن يتصل المجنون.. بهذا الخروف الذي تحول إلى طاغية ملعون.. ونسي ما كان ينتمي إليه في الأصل..وتصور إنه قد نجا تماماً من القتل.. بعد أن تجلى للهندوس.. بقرة تقام لها الطقوس.. وتتلقى ما تتلقى من قرابين.. وتستنشق البخور

والفل والياسمين.. وبالفعل فإن المجنون إتصل بالخروف.. لكي يضع أمامه النقاط على الحروف:

★ آلو.. ماذا تفعل أيها الخروف؟

- من أنت يا من تكلمني.. يبدو أنك واحد يريد أن يزعجني!

★ أنا المجنون.. أنسيت صوتي أيها الملعون؟

- أؤكد لك يا مجنون الآتي.. إني لست خروفاً من الخرفان.. وإن كنت أعترف بأني كنت كذلك أيام زمان.

★ وما الذي حولك من خروف إلى طاغية؟

- بمجرد أن رآني الناس بقرة زاهية.. ركعوا أمامي في أقل من ثانية..ولا تنس أني أعمل بنصيحتك الغالية.. ألم تقل لي أنت..وبأعلى ما لديك من صوت.. لابد أن أتمسكن.. حتى أتمكن؟

★ .. ولماذا أصبحت تتنكر لأصلك؟

- هذا ليس من شغلك!

★ لا تجعلني أتهمك بالخسة والوضاعة.. بعد أن كنت في غاية الوداعة.

- وأنا لن أسمح لمجنون مثلك أن يتبجح.. وإلى متى سأظل أشرح.. دون أن تستوعب ما أقول.. عن إذنك فعندي الآن جولة تفقدية للحقول.

اغتاظ المجنون بشدة.. عندما أغلق الخروف السماعة بحدة.. ولما استبد بالمجنون الغضب.. حاول أن يهديء نفسه بأكل عنقود من العنب.. متمنياً لو كان قد ترك الخروف يروح ضحية.. على يد صديقه محمد بن خليفة العطية.. أو على يد جاره الذي يدين بالمسيحية.

قام المجنون باستدعاء المارد من القمقم.. فوقف أمامه يتمتم ويغمغم.. وخيَّره المجنون بين أحد اقتراحين.. إما أن يأتيه بالخروف في غمضة عين.. لكي يحوله بنفسه إلى كفتة وكباب.. وإما أن يهدده بأقسى عقاب.. بعد أن تحول من خروف إلى طاغية.. ينظر لمن حوله نظرة متألهة متباهية.. وحين تساءل المارد عن نوع العقاب.. قال له

المجنون: سأريه العجب العجاب.. وإذا كان قد تجلى للهندوس في هيئة بقرة.. ويظن أن أحداً لن يقتفي أثره.. وإذا كان قد أصبح طاغية.. فإني سأهدده بإلقائه في هاوية.. اذهب الآن أيها المارد إليه.. ولا تلق السلام عليه.. وإنما عليك أن تحمل له مرض «جنون البقر».. حتى لا يبقى منه أثر.





المجنون يؤكد عدم وجود البطيخ .. على سطح كوكب المريخ

يفرِّقُ المجنون بين العلم واستغلال العلم.. فهو يعرف أن العلم في حد ذاته مهم.. أما استغلاله فإنه قد يفيد.. كما أنه قد يبيد.. والأمر يتوقف على ما في قلوبنا من خير.. أو ما تنطوي عليه من شر فالذين لديهم مفاعلات نووية.. يمكنهم أن يقدموا الخير للبشرية.. إذا استخدموها في أغراض سلمية.. كما يمكنهم أن يدمروا الحياة.. إذا استخدموها بعقلية المجرمين الطغاة.. وهذا ما جرى عندما ألقى الأمريكان.. قنبلتين ذريتين على مدينتين من مدن اليابان.. فانهار ما انهار من العمران.. واختلطت أشلاء الإنسان بالحيوان.. ومثل هذا أكده «رهين المحبسين».. حين قال وهو يبكي من القلب لا من العينين:

«يسوسون الأمور بغير عقل
وينفذ أمرهم.. فيقال: ساسة
فأف من الحياة وأف مني
ومن زمن رياسته خساسة»

تحركت في عقل المجنون.. عاصفة هوجاء من الظنون.. بعد أن أدرك أن الذين يتحكمون في مصائر الشعوب.. ويستفيدون من إشعال نار الحروب.. قد كلفوا كثيرين من العلماء.. بأن يقوموا دون إبطاء.. بالتجسس على كوكب غامض بعيد.. وأن يقدموا لهم

ما هو مفيد بشأن كل ما يتعلق بهذا الكوكب الأحمر.. حتى يتسنى لهم أن ينقضوا عليه وأن يُستعمر.. وأخذ المجنون يتذكر.. أن العلماء حين وصلوا إلى القمر.. قد أفسدوا جماله على البشر.. ولم يعد أي واحد من الشعراء.. يصف وجه حبيبته بأنه قمر قد أضاء.. خصوصاً بعد أن أكد العلماء أن القمر مليء بالحجارة.. وليس فيه ما يدعو للدهشة والإثارة.. فضلاً عن أنه يسرق أنواره.. من الشمس التي تتأجج بالحرارة.

استبد بالمجنون فضول.. دفعه أن يفكر في الوصول.. إلى الكوكب الأحمر المدعو بـ«المريخ».. وأخذ يتخيل أنه مزروع بالبطيخ.. وأن الذين يسكنون فيه شيوعيون.. أو أناس مهووسون ودمويون.. طالما أن كل ما يبدو على هذا المريخ أحمر.. وأن هذا اللون هو وحده الذي يظهر.. ورأى المجنون أن يسافر دون إعلان.. حتى لا يسخر منه الأصدقاء والجيران.. وهذا ما كان.. حيث اتفق مع المارد المطيع.. على السفر إلى المريخ في بداية الربيع.. وانطلق الإثنان على بساط الريح.. بعد أن تأكدا أنه لا يحتاج لتصليح، وأخذ المجنون معه اسطوانة أوكسجين.. وعلبة بانادول وأسبرين.. وعدة أنواع من السكاكين.. حتى يتسنى له تقطيع البطيخ.. عندما يعثر عليه فوق سطح المريخ.

اطمأن المجنون في المرحلة الأولى من الرحلة.. فتصور أن المسألة سهلة.. لكن الأمور أخذت تتعقد.. فكادت عروقه من الرعب تتجمد.. ومن جديد عصفت به الظنون.. بينما كان ينفذ من ثقب «الأوزون».. حيث تراءى له الفضاء.. ظلمات تمتد بلا انتهاء.. لدرجة أن المارد نفسه ارتعد.. وقال للمجنون: فلنعد.. فإن ما تقوم به ليس مغامرة.. ولكنه أشبه بالمقامرة.

★ ★ أيها المارد العملاق.. ألم تكن تفخر دائماً بارتياد الآفاق؟

- هذا صحيح.. لكني أحس الآن كأني كسيح!

★ وأنا أحس أني بلا حراك.. بل إني لا أراك.. ومع هذا فعلينا أن نتسلح بالأمل.. فالناس أمثالي يقولون: «من جد.. وصل»

- إذن.. دعني أدهن وجهك ووجهي بالفوسفور.. مادامت الظلمات لا تشرق فيها ومضة نور.

.. بمجرد اكتمال الدهان.. بدأ المارد والمجنون يلمعان.. وأحس المجنون بالراحة والاطمئنان.. فأخذ يقهقه بغير انقطاع.. وهو يفكر فيما لدى الناس من حب استطلاع.

★ لماذا تضحك هكذا يا مجنون؟

- لأني أصبحت بعيداً عن الأرض.. بكل ما فيها من حقد وبغض.

★ لكني أعتقد أن هذا ليس السبب.

- «لو عرف السبب.. بطل العجب.. إني أضحك لأن علماء الكرة الأرضية.. سيتحدثون الآن عن كشوف علمية..وبالتأكيد فإنهم سيؤكدون اكتشاف كوكبين صغيرين.. لا يمكن أن يراهما أحد بمجرد العين.. وإنما بأحدث ما توصل إليه العلم.

★ وماذا يمكن أن يحدث؟

- بعد أن يعلن العلماء عما اكتشفوه.. ويتباهوا بما قد عرفوه.. سيتجمع الصحفيون والإعلاميون.. كما أن شاشات التلفزيون.. ستظل تتحدث وتشير.. إلى النبأ العاجل المثير.. اكتشاف كوكبين صغيرين.. يبدوان متجاورين ومشعين!.

★ وأين هما هذان الكوكبان؟

- يبدو أنك لا تعرف طبائع الناس.. من مختلف الأجناس.. إنهم جميعاً يحبون كل ما هو مثير.. ويتناقلونه على الأرض وفي الأثير.

★ لا أفهم شيئاً أيها المجنون.

- سأشرح لك الآن.. إن علماء الأرض سيقولون بكل اطمئنان.. إن العلم في خدمة الإنسان.. بينما سيفرح الذين يتحكمون في مصائر الشعوب.. ويستفيدون من إشعال نار الحروب.. أما الحقيقة التي لا يعرفها الناس.. فهي أن الاكتشاف بغير أساس.. فأنا وأنت أيها المارد العملاق.. نبدو للعلماء عبر الآفاق.. وبعد أن أصبحنا بالفوسفور مشعين.. نبدو في هيئة كوكبين صغيرين.. متجاورين ومتآلفين!.



٢١

الروبوت يتنفس ...
والمجنون يتجسس .. والمارد يتحمس

وصل المجنون بصحبة المارد.. إلى الكوكب الأحمر الخامد.. بعد أن ذاقا ما ذاقا من السهاد.. وبدا على كل منهما الإجهاد.. حيث قعدا على أرض المريخ وهما يلهثان.. وإن كانا بالطبع لا يدريان.. بأنهما قد أصبحا حديث أهل الأرض.. ذات الطول والعرض.. منذ أن تنافست وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.. والعديد من القنوات الفضائية.. وقطعت برامجها المألوفة العادية.. لكي تنقل الخبر العاجل الخطير.. بأسلوب فجائي مثير.. والحقيقة أن كل ما قيل.. هو مجرد وهم من أوهام الأباطيل.

«تلقينا في اللحظة والتو.. خبراً لا يتحمل النسيان أو السهو.. حيث علمنا أن النجمين الساطعين.. أو الكوكبين الصغيرين اللامعين.. قد سقطا على سطح المريخ متجاورين.. دون أن ينتج عن سقوطهما دمار.. ودون أن يلمح علماء الفضاء وميض انفجار.. وما زال العلماء يحاولون كشف المستور.. لكنهم يؤكدون أن «الروبوت» المحصور.. ما يزال يعمل بكل حيوية.. كما إنه يرسل إشاراته الرمزية.. إلى مركز الاتصالات الأرضية.. ومحطة «اناناسا» الفضائية..».

لم يهتم الحفاة والجائعون والكادحون.. بما بثته على الهواء مباشرة قنوات التلفزيون.. لأنهم لا يلهثون إلا وراء لقمة العيش..

ولا يعنيهم أمر الذين يتصارعون على أي عرش.. أما الإمبراطور «بووسواس».. الذي يحاول التحكم في كل الناس.. فإنه طالب جميع العلماء.. ممن يعملون في وكالة الفضاء.. بأن يكشفوا له ما جرى على الفور.. قبل أنّ يتوصل المارقون إلى معرفة السر.. وقد وعدهم «بووسواس» بأن يدعوهم لأفخر مائدة.. إذا نجحوا في استخلاص الاستثناء من القاعدة.. وإلا فإنه سيعتبرهم ناساً بلا فائدة.

بعد أن ارتاح المجنون وأفاق.. لم يعد يشعر بالضيق والاختناق.. خصوصاً بعد أن ابتلع قرص أسبرين.. وفتح المارد له أسطوانة الأوكسجين.. لكن المجنون أحس بأنه أصبح خفيف الوزن.. فقال لنفسه: الآن لم يعد لي أي شأن.. أحس أني مجرد ذرة تائهة في الكون.. واقترب المارد منه في الحال.. وانحنى قليلاً ثم قال:

★ إني لا أرى إنساناً واحداً قد قنع.. فالكل يحب الطمع.. والأقوياء دائماً ينهبون ما لدى الضعفاء.. وهذا سر الداء وأصل البلاء.. لأن الطمع يجعلهم في حالة عداء.. ليس لها حد ولا انتهاء.

- أيها المارد العملاق.. إني دائماً مشتاق.. لأن يسود العدل في الأرض.. حتى تتلاشى أشباح البغض.. لكن الناس فعلاً لا يعرفون القناعة.. وأخشى أن يستمروا هكذا إلى قيام الساعة.. ولهذا أكد «رهين المحبسين» أبو العلاء.. أن الصخور أفضل منهم جميعاً بغير استثناء:

«ما فيهم بَرٌّ ولا ناسكٌ

إلا إلى نفع له يُجذبُ

أفضل من أفضلهم صخرة

لا تظلم الناس ولا تكذبُ»

والآن قل لي أيها المارد.. لماذا أنت قاعد.. علينا أن ننهض لكي نتجول.. وأن نتمهل حتى نتأمل.. وإن كنت أشعر بأني لن أجد البطيخ.. فوق سطح هذا المريخ.

لمح المجنون والمارد كائناً غريباً يلمع.. وبدا لهما كأنه رجل أصلع.. فانطلق الإثنان إليه على عجل.. يحدوهما الأمل.. في أن يعرفا سر هذا الرجل.. وحين اقتربا منه تأكدا أنه «الروبوت».. وأنه يعمل في صمت وسكوت.. ويبدو أن «الروبوت» أحس باقتراب الاثنين.. لأنه رفع ما له من ذراعين.. كأنه يهديهما التحية.. بإحدى إشاراته

الرمزية.. وفجأة نطق «الروبوت» باللغة العربية:

★ قبل أن تلعب بكما الظنون.. أريد أن أخبركما عمن أكـون.. أنـا – في الحقيقـة– اختراع غريب.. وأبدو في هيئة إنسان عجيب.. لكني مجرد آلة علمية.. من ابتكار علماء «أناناسا» الفضائية.. وهم يريدون مني اكتشاف أشياء كثيرة.. وأنا أعمل هنا بهمة كبيرة.. لكني حتى الآن لم أعثر على مياه.. تؤكد أنه كانت هنا حياة.

– وأنا أيها الروبوت جئت إلى المريخ.. متصوراً بأني سأكتشف على سطحه البطيخ!

★ أي بطيخ يا مجنون؟!.. إن الإمبراطور «بووسواس» يريـد بنـاء السـجون.. عـلى سطح هذا الكوكب غير المسكون.. لأنه يعتقد أن معتقل «سجنتا كـامو» لـيس كفايـة.. هذا هو كل ما في الحكاية..

– وهل توافق أنت على هذا العمل؟

★ إني أتسلح بالأمل.. ولهذا أعمل دون ملل.

– أي عمل؟

★ أريد التمرد على كل الأوامر.. حتى أتصرف بعقل غيـر صـاغر.. وهـذا يعنـي أن أحقق لعقلي الاستقلال.. حتى تكون لي حرية في الأفعـال.. لابـد أن أتمـرد عـلى علمـاء الأناناس.. حتى أنقذ الناس.. من مكائد «بووسواس».

أكد «الروبوت» أنه تعلم كيف يتنفس.. بينما أخذ المجنـون يحـاول أن يتجسـس.. ووقف المارد وهو يتحمس.. لكشف مكائد«بووسواس».. ضد جميع الناس.. وترددت على سطح الكوكب الأحمر الخامد.. أبيات قالها شاعر عربي خالد:

«إذا كـان علـم النـاس لـيس بنـافع

ولا دافـــع.. فالخســـر للعلمـــاء

قضـى الله فينـا بالـذي هـو كـائن

فـتم.. وضـاعت حكمـة الحكمـاء

وهل يأبق الإنسـان مـن ملـك ربـه

فيخـرج مـن أرض لـه وسـماء؟»





أهل المريخ .. يتعرضون للتوبيخ والدمار.. وراءه أسرار

بعد نفاد الصبر.. صرخ البحر.. إلى متى أحمل هذا الموج فوق الظهر.. على امتداد الدهر؟.. ليت هذا الموج يتبخر.. حتى يصفو بالي ولا أتكدر.. وبمجرد أن قال البحر ما قال.. تكدرت على الفور الأحوال.. حيث اجتاحت الموج عاصفة من غضب.. فاحتج وماج ثم احتجب.. فتحجرت في قاع البحر الأسماك.. والحياة أصبحت بلا حراك.. وتحول البحر إلى أرض مالحة.. تتراءى فيها صخور كالحة.. وها هو البحر يبدو كالأصلع.. ولم تعد الشمس فوقه تسطع.. إلا لتعلن أنه لم يعد ينفع.. وهكذا تحقق للبحر ما شاء.. أمنية حمقاء.. تكفلت بإخراجه من عالم الأحياء..

هذا ما أكده الروبوت.. وهو يطلق حمم حزنه المكبوت.. فارتعش المجنون أيما ارتعاش.. وفتح فمه في اندهاش.. محاولاً أن يتعرف على التفاصيل.. حتى يتأكد أن ما سمعه ليس أباطيل.

★ أيها الروبوت العجيب.. لا تدفعني للبكاء والنحيب.. أيعقل أن يكون البحر في المريخ انتحر.. أيعقل أنه من الغيظ انفجر؟

- أنت حر في أن تصدقني.. وحر في أن تكذبني.. فأنا روبوت ديمقراطي حقاً.. لكني لا أنطلق إلا صدقاً.

***

★ إني أحاول أن أفهم.. وأن أعلم ما لم أكن أعلم.. وأنت نفسك قلت لي من قبل.. إن سطح هذا المريخ معتل.. ولم تكن فيه حياة.. طالما أنه خال من المياه.

– لا تتسرع يا مجنون.. ولا تسيء بي الظنون.. اسمع الآن الحكاية. من بدئها لحد النهاية.. فكل ما حولك هنا من دمار.. وراءه أسرار خلفها أسرار.. وإني لأنتهز هذه الفرصة السانحة.. لأعبر عن سخطي بصورة واضحة.. إني أتوجه بأقسى عبارات التوبيخ.. لكل من سكنوا هنا في المريخ!

★ وأنا أقول لك إني لم أفهم؟

– عليك يا مجنون بالصبر.. حتى أوضح لك الأمر.. أليس على سطح الأرض الآن آدميون؟.. كذلك كان هنا في المريخ مريخيون.. وكانوا في البدء يحيون في حب.. إلى أن دفع الطمع أقواهم للسلب وللنهب.. فنشبت بينهم أكثر من حرب..و الجدب حل مكان الخصب.. وسقط من المريخيين قتلى وجرحى كثيرون.. ولم يعد الباقون يعشقون.. بعد أن صارت الكراهية هي البطل..وساندتها في دورها كل العلل.. فأصيب سطح المريخ بالخلل.. أما الموج فقد احمر من فيض الدم.. فاغتاظ البحر واغتم.. وأخيراً بعد نفاد الصبر.. صرخ البحر.. إلى متى أحمل هذا الموج فوق الظهر.

★ تكلم يا روبوت بصراحة.. ففي الصراحة راحة.. وبدلاً من هذا التلميح.. لماذا لا تتحدث بشكل صريح؟

– ولماذا أتكلم وحدي ولا يتكلم هذا المارد.. أليس له رأي فيما يجري وما هو سائد؟

.. التفت المجنون للمارد فوجده يبكي بلا انقطاع.. وفي عينيه نظرات حزن والتياع.. فسأله المجنون عما أصابه.. بينما قال الروبوت – مداعباً – لعله يتذكر أحبابه.. ولهذا نراه قد فقد صوابه.

نفض المارد عنه الحزن.. وقال: ما أجمل هذا الكون.. الفضاء أسراب من النجوم.. تشع فتزيح عن النفس الهموم.. لكن سر الداء وأصل البلاء.. يكمن في نفوس بعض

الأحياء.. ولهذا تنتصر الرذائل.. وتوشك أن تهدم بالمعاول.. أجمل ما في الأرواح من فضائل.. لقد جئنا أيها الروبوت من الأرض.. لنبعد قليلاً عما فيها من بغض.. فوجدناك تقوم بتوبيخ.. أرواح من راحوا من سكان المريخ.. ورأيناك تؤكد أن ما حولنا من دمار.. وراءه أسرار خلفها أسرار.

قال الروبوت على الفور: وأنا سأبوح لكما بسر.. إن المتجبرين من الآدميين.. يريدون أن يبنوا فوق المريخزنازين.. لأن زنازين الأرض لم تعد كافية.. رغم أن قتل السجناء يحدث في كل ثانية.. وأنا شخصياً سمعت الإمبراطور بووسواس.. يقول:ويل لكل الناس.. إنهم دائماً يقفون ضدي.. لكني أرفض أن أكون وحدي.. ولهذا سيبقى هنا معي الطيبون.. وليذهب إلى المريخ المارقون.. أعتقد أن هذا أفضل حل.. لأنه يجنبنا مزيداً من القتل.

★ وماذا ستفعل يا حضرة الروبوت؟

- قلت لك من قبل إني أتهيأ لأن أستقل بعقلي.. لكي أكون حراً في قولي وفي فعلي.. ولك أن تتوقع مني كل خير.. عندما أتغلب على عقول الشر.

قَبَّلَ المجنون رأس الروبوت الأصلع.. وتمنى له أن يكون الأروع والأبرع.. وأكد وهو يداعبه أن البقاء للأصلع.. أما المارد فقد قام بوضع مزيد من الفسفور.. فتألق هو والمجنون بسحر النور.. وانطلق الإثنان ببساط الريح.. على امتداد الفضاء الفسيح.. وفي الفضاء تذكر المجنون.. ما كان قد قاله ابن خلدون.. «الظلم مؤذن بخراب العمران».. ولا يسلم منه الإنسان.. إلا إذا تخلص من الطغيان.. وأخذ المجنون يستعيد حكاية البحر.. بعد أن نفد منه الصبر:

أيها البحر.. لماذا تتوارى

بعد أن كنت حصاناً لا يجارى

وجهك المخطوف تمثال بليد

موجك الآن رمال في صحارى

لم يعـــد فيـــك هـــدير يتـــوالى

مـــذ تملّحـــت ضـــياعاً وانكســـارا

هـــا هـــو المـــريخ مصـــبوغ دمـــاء

أشـــبع الحقـــد أمانيهـــا دمـــارا

وعـــلى الأرض طغـــاة مـــا أحبـــوا

غيـــر قتـــل الحـــب لـــيلاً ونهـــارا

فـــانتفض يـــا مـــارد الخيـــر أبيـــاً

فالحيـــاة الآن تجتـــاز اختبـــارا



٢٣

زهرات الفل .. تتمايل في الليل .. على إيقاع صهيل الخيل

يعرف العقلاء أن الزهور لا تتفتح.. إلا حين يأتي الفجر بحصانه المجنح.. حيث يوقظها برفق وحنان.. فتجود بما لديها في أجواء المكان.. أما الذين لا ينامون.. ويظلون طول الليل يسهرون.. ومن بينهم المجنون.. فإنهم – أحياناً – يرون زهرات فل.. تتمايل في الليل.. على إيقاع صهيل الخيل.. وربما بكت منهن زهرة.. لكي تطلق ما في قلبها من حسرة.. وربما استسلمت أخرى لدوامة الحيرة.. لكن كلاً منهن تعود من جديد.. لكي تتظاهر أن قلبها سعيد. فتظل طول الليل تتأرجح.. بل إنها قد تترنح.. وهي تقدم أغلى ما لديها.. لكل من يأتي إليها.

ترقص الزهرات دوماً والصهيل.. يتعالى لكي يشفي الغليل.. ومن «الليدو» إلى «كازينو بديعة». يظل أمثال عمر بن أبي ربيعة.. يتفحصون جمال الزهرات.. ويتذوقون نبيذ الرغبات.. بينما ترقص الزهرات بسيقانهن العارية.. في ليالي المدن القريبة والنائية.. ولا مكان لمن تظل باكية.. فعلى كل زهرة أن تبدو زاهية.. وتتظاهر بأن روحها من الهم خالية.

انطلق أحد الشعراء العرب.. ممن يحبون اللهو والطرب.. حيث التقى مع زهرة فل ناعمة.. لكنه اكتشف في النهاية أن روحها واجمة.. خصوصاً أنها أخبرته بما تذوقته من المآسي.. ولأن قلب الشاعر لم يكن بالقاسي.. فإنه تضايق واكتأب..وكتب عن تلك الزهرة ما كتب:

«جئتهـــا في ليلـــة فابتســـمت
بســمة تفتــر عــن حــر الشــهيق
ثـــم قالـــت: مرحبـــاً يـــا مرحبـــا
بـــأخي اللـــذات أهـــلاً بالعشـــيق
هـــا هـــي الزهـــرة يـــا نحـــل الهـــوى
فاظفروا بالشهد وامتصـوا الرحيـق
واطرحوهـــا زهـــرة قـــد ذبلـــت
في ربيـــع ناضـــر غـــض وريـــق»

قارن المجنون بين هذا الشاعر الذي يحب السهر.. لكي يتذوق في الليل ما يحلو لـه من ثمر.. وبين شعراء آخرين يحبون الحذر.. ولا يسهرون في أي ملهى من الملاهـي.. وكأنهم يقولون: ياما تحت «الملاهي» دواهي.. وقـد التقـى المجنـون مـع شـاعر مـن هؤلاء.. فأكد له أنه ينام مباشرة بعد العشاء.. وإن كان يتقابـل مـع أصـدقائه الشـعراء.. حيث يختارون أحد المطاعم.. كي تفوز بطونهم بأشهى المغانم.. وقد أتـيح للمجنـون أن يطلع على صورة.. تم التقاطها لهـؤلاء في مطعـم «النـافورة».. وعـلى الـرغم مـن أن الوجوه كانـت راضـية. فـإن المجنـون لاحـظ أن الأطبـاق خاويـة.. وأدرك أن هـؤلاء الأصدقاء لا يحبون زهرات الفل.. رغم أنها تتمايل بـالقرب مـنهم في الليـل.. وتحـب الرقص على إيقاع صهيل الخيل..

فشل المجنون في إقناع صديقه «بلال البدور».. بأن يجرب ولو مرة أن يـزور.. أحـد الملاهي الليلية.. لكي يستنشق أزهـار الفـل السـحرية.. أو يتبـين الفـرق بـين البيضـاء والسمراء والخمرية.. وعندما أدرك المجنون أنه قد فشل.. تـرك صـديقه عـلى عجـل.. وانصرف وهو يفكر في أحوال الناس.. فمنهم من يحب الاحتراس.. ويفضل النوم بعـد العشاء.. لكي يتوجه إلى عمله الصباحي دون إبطاء.. ومنهم من يحب السهر كما يشاء.. حيث يرقص مع زهرات الفل.. وهي تتمايل في الليل.. على إيقاع صهيل الخيل.. وأخذ المجنون يكتب عما يدور.. لكي يرسله لصديقه بلال البدور:

بـلال.. يـا أطيـب الأصـحاب في البلـد

وفي دبـي التـي تشـكو مـن الحسـد

إني شـبعت مـن الأشـعار في ورق

لكـن بـلا طبـق قـد نمـت في كمـد

وهـذه صـور الأصـحاب شـاهدة

أن لم يـذوقوا سـوى وهـم بـلا جسـد

فاشـبع بعينـك والأطبـاق فارغـة

واشـرب مـن المـرق المكسـو بالزبـد

إن الغـواني – إذا أحببـت – سـاهرة

في كل ملهى بقرب المطعم «الصفدي»

وإن وجـدت نهـود الغيـد جامحـة

«فـلا تظـنن أن» الغيـد في رغـد

فكـل سـاهرة مـنهن حـائرة

في غابة الليل تخفي المدمع في الخلد

ما حصحص الحق إن أصبحت شاهدكم

فاكتب لأصحبكم واكتم عن «الصمدي»

واهـرب مـن القشـطة النشـوى بفسـتقها

وقـل لصـحبك أن يـأتوك بعـد غـد

وواجـه الصـحب بالتجديـد معتـذراً

عـن اللقـاء بغيـر الغيـد.. تسـتفد

وابلـع مـع السـمك المشـوي شـوكته

لكـي تشـع انتعاشـاً ليلـة الأحـد

وأغـــرق الغيـــد في بحـــر بقافيـــة
وعلـــق الهـــم منبـــوذاً عـــلى وتـــد
واسـهر بملهـى وملهـى فارسـاً نهمـاً
وطـف «بتـرك وطليـان» بـلا عـدد
إن الخـــدود ورود حـــين تقطفهـــا
تخطـو جريئـاً إلى الميـدان كالأسـد



٢٤

المجنون يتشاجر مع كارمن.. ويؤكد أن عاشقها ليس بخائن

قال المجنون لنفسه بصوت حانق.. يبدو أن الجو الرائق.. أصبح حلماً لا يتحقق على الأرض.. لأن عواصف الشر والبغض.. تتحرك من مكان إلى مكان.. وفقاً لتعليمات أكبر شيطان.. إني أتشوق للنزهة في الحدائق.. لكني لا أرى سوى الحرائق.. ولا أشاهد غير الغرباء اللؤماء.. يتمشون في الطرقات بكل خيلاء.. وهم يستمتعون بشرب كؤوس الدم.. بينما يتجرع الناس كؤوس الهم.. ولهذا لابد أن أبتعد عن الجميع.. إلى أن يعود للأرض الربيع.

بعد أن ركب المجنون صاروخه العابر للزمان.. أحس بقدر من الراحة والأمان.. فأخذ يتأمل السحب المتمهلة.. وهو يستنشق النسمات المقبلة.. وفجأة تمايل الصاروخ عدة مرات.. كأن السماء قد امتلأت بالمطبات.. أو كأن شظايا القنابل.. قد حولت السماء إلى جحيم من الزلازل.. وعلى الفور قرر المجنون الهبوط.. وفي القلب إحساس بالضيق والقنوط.

هبط المجنون في ساحة كبيرة.. فرأى أناساً يقومون بحركات مثيرة.. وهم يمسكون بسيوف عمياء.. يطعنون بها أجساد ثيران حمقاء.. بينما يتعالى التهليل من هنا وهناك.. عندما يسقط ثور دون حراك.. ولم يشعر المجنون بالراحة.. فقرر أن يتجول بعيداً عن

هذه الساحة.. وبعد أن تجول كما أراد.. وجد فتيات يرقصن بكل اعتداد.. وقد ارتدين أطول الفساتين.. وكأنهن زهرات تتفتح في قلب البساتين.

★ من أنت أيها الرجل الغريب؟

- قولي لي أين أنا الآن قبل أن أجيب.

★ قل لي أنت أولاً من أنت.. ومن أين أتيت؟

- أنا واحد ممن تدعو حالهم للعجب.. فقد كان حضارتهم أزهى من الذهب.. والآن يخشاهم الآخرون كما يخشون الجرب!

★ في الأمر سر.. هل أنت من الهنود الحمر؟

- لا.. لست من هؤلاء.. فالهنود الحمر عندهم عزة وكبرياء.. أما من أنتمي لهم أعمق انتماء.. فإن حالهم تدعو للرثاء.. والآن يا أجمل زهرة في البستان.. قولي لي أين أنا الآن؟

★ أنت في «اشبيلية» الخضراء.. وأنا ورفيقاتي نرقص «الفلامنكو» هنا كل مساء.

- أتعريفين أن أجدادي عاشوا هنا عدة قرون؟!

★ إما أنك مجنون.. وإما أنك ماكر وملعون؟

- أنا مجنون العرب.. أولئك الذين كانت حضارتهم من الذهب!

.. أشفقت الفتاة الحسناء.. على المجنون عندما أجهش بالبكاء.. وهو يقول.. في شبه ذهول:

الفلامنكو حنين لزمان ضاع منك

والفلامنكو بكائي فوق أنقاض الزمان

إنه قلبي الذي يبكي مع «الجيتار» يحكي شارداً عني وعنك

ثم ينسى كل شيء غير عينيك وما كنا – مع الماضي – وكان

الفلامنكو صبايا مستحمات بموسيقى كساها الكبرياء

في زمان عربي أبله النظرة يعدو صاغراً دون رداء

الفلامنكو عزاء

عندما أحضن يأسي في زمان عربي صادروا منه الرجاء

.. اندفعت الفتاة نحو المجنون دون أن تتردد.. واحتضنته بشوق وهي تتنهد:

جـادك الغيـث إذا الغيـث همـى

يـا زمـان الوصـل بالأنـدلس

لم يكـن وصـلك إلا حلمـاً

في الكـرى أو خلسـة المختلس

★ أعترف بأني سعيد بهذا اللقاء.. لكني لا أعرف اسمك أيها الحسناء.

★ اسمي «كارمن».. وأعشق الدنيا بما فيها من متع ومفاتن.

★ أأنت حقاً «كارمن»؟.. إذا كنت حقا «كـارمن».. فاسمحي لي أن أعترض على موقفك الشائن!

– ما هذا الذي تقوله يا مجنون العرب؟.. أتريد أن يستبد بي الغضب.. بعد أنكنا معاً في حالةطرب؟! هل تعرف عني ما تخفيه؟!

★ أعرف بعض الأشياء!

– وهل فيها ما يدعوك للاستياء؟

★ يا كارمن.. أنت مستبدة ساحرة.. لكن روحك تبدو حائرة.. وأخشى أن تجرفك دوامة الغيرة القاهرة.

– وضح لي ما تقول يا مجنون.. حتى لا تتركني أسيرة للظنون.

★ لماذا تتلاعبين بقلب حبيبك «جوزيه»؟.. هذا ما كنت أحاول أن أخفيه.

– «ياما تحت السواهي دواهي».. هل تعرف حقاً جوزيه؟

★ أعرف أنه يتعذب.. وأنه على نار العشق يتقلب.

– جوزيه خائن!

★ هذا ليس صحيحاً يا كارمن.

– وما الصحيح في رأيك إذن؟

★ الصحيح أن جوزيه ليس بخائن.. وهو لا يعشق إلا وجهك الفاتن.. أما أنت فإنك تعذبينه.. وهذا ما قد يحول حبه لك إلى ضغينة.

- وماذا تريد مني أن أفعله؟

★ كوني له وردة أو سنبلة.. ولا تنفجري فيه كأنك قنبلة.. بهذه الطريقة.. يمكن للصحراء أن تصبح حديقة.. صدقيني فأنا لا أقول لك غير الحقيقة.



٢٥

صور القتلى عديدة.. إنما في كل جريدة.. أصبحت ذكرى بعيدة

يفخر الإنسان بما حباه الله من عقل.. يدفعه لاختيار الأصوب في القول وفي الفعل.. لهذا يندهش المجنون حين يرى أن الناس تتلذذ بالقتل.. منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل.. فشربت الأرض دماء أول قتيل.. وبدأت أولى حلقات مسلسل القتل والتنكيل.. ومنذ ذلك اليوم الذي لا نعرفه.. أصبح هذا المسلسل أمراً عادياً نألفه.. كما أصبح قابلاً للعرض.. على امتداد سطح الأرض.. حيث يظل القاتلون يقتلون.. ويظل المتفرجون يشهدون.. ومنهم من لا يهتم.. إلا إذا تلطخت ثيابه بالدم!

هرش المجنون رأسه وقفاه.. وهو يتأمل ما يراه.. فالحيوان لا يقتل أخاه الحيوان.. إلا إذا أفقده الجوع الاتزان.. فهو يقتل لكي يأكل.. وإذا شبع فإنه لا يقتل.. أما الإنسان المتزن العاقل.. فإنه يحب أن يتحول إلى قاتل.. حتى وهو مصاب بالتخمة.. وحتى إن كان القتيل جلداً على عظمة.. لأنه لا يجد ثمن اللقمة.. كما أن الإنسان الذي يتميز بالعقل.. هو الذي يخترع كل ما يسهِّل عليه القتل.. ابتداء من السكاكين الغبية.. حتى الصواريخ الذكية.. ومن ساحات الإعدام.. حتى حقول الألغام.. والأغرب من هذا أن الذين يسمون أنفسهم متحضرين.. هم الذين يقتلون المتخلفين.. لكي ينهبوا ما في أرضهم من خيرات.. أو يستخرجوا منها ما

يطمعون فيه من ثـروات.. وهـم يبـررون مـا يرتكبـون.. بـأن المتخلفـين لا يعقلـون..
ويرفضون الرقص على حبال الديمقراطية.. لهذا يجب قتلهم دون دية.!

يقتل المرء.. لو.. لونه لم يرق لمجون العين

يقتل المرء.. لو حاصرته الظنون

يقتل المرء.. حتى وإن كان طفلاً بروح بريئة

فغداً.: يكبر الطفل، والأحوط الآن أن تقتلوه

يقتل المرء.. كي يستريح إذا أرهقته الحياة بأثقالها

يقتل المرء.. كي يستريح تماماً..

من العيش في ظل بؤس المخيم

يقتل المرء.. لو راح يعدو لينجو من القصف.. كي يستقر وينعم

يقتل المرء.. حتى ولو كان أماً رؤوماً تحيط بأطفالها

يقتل المرء.. لو دينه لم يرق للنفوس الدنيئة

يقتل المرء.. لو صوته غير أصواتكم أيها الحاملون الجنون

أيها الحاملون السلاح المباح ولا تحملون عقولاً مضيئة!

في القاهرة حي يسمى الزمالك.. وتتشعب في هذا الحي المسالك.. بعضها يفضي إلى المهالك.. ويتحصن في هـذا الحـي أغنيـاء الفنـانين.. حتـى لا تنـزعج عيـونهم برؤيـة الشحاذين.. ولا يضايقهم أصحاب الحاجة.. ممن يحلمون بأن يـأكلوا في السـنة فخـذ دجاجة.. كما يتجمع في هذا الحي رجال الأعمال.. وكلهم يعيشـون في أحسـن حـال.. حيث يقيمون السهرات الرائعة.. ويتمايلون عند الـرقص بأشـكال بارعـة.. ويتنـاولون الأفخاذ المرمرية.. حتى لو لم تكن لهـم شهية.. أما الفقراء فبينهم وبين الزمالك نفـور.. لأن عيونهم تخاف من رؤية الفلل والقصور!

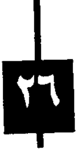
اقترض رجل الأعمال من البنوك ملايين.. ربما لكي يتصدق بها على المسـاكين.. أو ليقدم لهم اختراع الكهربـاء.. حتـى يعرفـوا في الليـل معنـى الاضـياء.. وتـزوج رجـل الأعمال فنانة شهيرة.. وأخذ يغار من شهرتها الكبيرة.. لأنه يعرف أن العشاق كثيرون..

وأنهم في حروب الحب يتنافسون.. وهكذا أخذ الزوج الغيور.. يفتعل الأسباب لكي يثور.. وطالب الزوجة ألا تسهر خارج البيت.. وأن تلتزم بآداب الصمت.. وتحبس ما لديها من جمال الصوت.

رفضت الزوجة هذا العرض.. فتحول حب الزوج إلى بغض.. وتحولت الغيرة إلى قوة عمياء.. فلم يعد يستطيع تمييز الأشياء.. برغم كل أضواء اختراع الكهرباء.. وفي الليلة المعهودة.. وقعت الحادثة المشهودة.. حيث انهمر الرصاص ليخترق الجسد.. ولم تعد الفنانة مثاراً للحسد.. فقد بكى عليها كثيرون.. بعد أن غاب الصوت الذي كانوا يحبون.. بسبب الغيرة التي تندفع بلا عيون.. وهنا تنافست الجرائد.. في حكايات كثيرة عما جرى من مكائد.. وقيل إن الزوجة قد سقطت شهيدة الحب.. رغم أن الزوج كان يتمتع بأطيب قلب.. وهنا تعجب المجنون من جديد.. وسأل نفسه: كيف يتحول القلب إلى صنم بليد؟.. وظل المجنون يهرش رأسه وقفاه.. من هول ما يراه.. من مآسي هذه الحياة.. وكلها من المآسي التي يتسبب فيها الإنسان.. دون أن يفكر فيها أي حيوان.. وبعد أن ساد الصمت.. صرخ المجنون بأعلى صوت:

صور القتلى عديدة	عندما تطغى المكيدة
وخواء العقل يفضي	للخيالات البليدة
ودم الإنسان يجري	بعد سهرات سعيدة!
السلاح الآن سهل	والعناقيد مبيدة
لم يعد للعقل معنى	والخطى ليست رشيدة
صوت حب قد تلاشى	بعد مأساة جديدة
وجه من كانت تغني	ضاع في ريح عنيدة
وجهها أصبح ذكرى	والليالي لن تعيده
همسة الحب تلاشت	أصبحت ذكرى بعيدة





ناد المثقف واعطه بقشيشا .. وإذا تلكأ .. وفه التلطيشا

جلسوا متصنعين الأدب والخشوع.. بعد أن قيل لهم عليكم دائماً بالخنوع.. فإذا قيل لكم: قفوا، عليكم بالوقوف.. وليس شرطاً تسوية الصفوف. وإذا قيل لكم: **لا تقرأوا**.. عليكم بتمزيق الحروف.. أما إذا قيل: أطيعوا، فعلى كل منهم أن يتحول إلى خروف.. ولا بأس من أن يكتسي بالصوف.. لكن لابد أن ينزع قرنيه.. حتى لا ننزع منه عينيه.

تزاحم المتنافسون.. وتنافس المتزاحمون.. فيمن يجلس في الصفوف الأولى قبل سواه.. وهكذا غاب العقل أو تاه وفجأة رفع الحراس والحُجاب ما في أيديهم من حراب.. وقال أحدهم بصوت منغم مسموع:.. **الكلام الآن ممنوع**.. لأن سيدنا المهاب.. سيدخل حالاً من هذا الباب.. فعليكم بالوقوف بكل أدب.. حتى لا تصبحوا مثل دعاة الشغب.. وعليكم أن تصفقوا بانتظام.. حتى يشعر سيدنا بما تضمرونه له من احترام.. وإذا أشار لكم بالجلوس.. فعليكم أن تجلسوا حسب البرنامج المدروس.. واحذروا أن يندس بينكم أي مهووس.. حتى تعيشوا في أمن وسلام.. بفضل همة سيدنا الهمام.

بعد طول ترقب وانتظار.. دخل المهاب مبتسماً وسار.. حيث أجلسه حشد من الأعوان.. بكل راحة واطمئنان.. على كرسيه

الفخم الوثير.. بعد أن وضعوا خلفه مخدة من الحرير.. وهكذا بدأ الحفل.. وامتد إلى منتصف الليل.. حيث قامت راقصة لولبية.. بأداء حركات استعراضية.. ومع كل حركة من الحركات.. كانت القلوب تتحول إلى جسور للتنهدات.. والحق أنه لم يكن في تلك الحركات ما يدعو للاستهجان.. لأن الكل يتبرك بشهر رمضان.. وفي أجواء رمضان المبارك.. لا يجوز لأحد أن يتشابك.. إلا مع الشياطين.. بعد أن يقدم الطعام للمساكين.. وعندما انتهى الرقص بالفرفشة.. ألقى أحد الشعراء قصيدة مزركشة.. وقد لوحظ أن الشاعر قد نزع قرنيه.. وأنه كان دائماً يسبل عينيه:

قـف للمعظـم.. وفـه التسـبيلا
كـاد المعظـم أن يكـون عميـلا

أرأيـتِ أجمـل أو أحـن مـن الـذي
يـأتي وتمسـك كفـه منـديلا

إن الـذي جعـل الحيـاة جميلـة
بـالرقص يحيـا مشـرقاً وجميـلا

يسخو على الشعراء بالـذهب الـذي
يجـري اللعـاب ويوجـب التطبيـلا

مـا أصـدق الشـعر الـذي إن قلتـه
في مـدح غيـرك يسـتحيل رذيـلا

أنت النـدى للـورد يـا بـدر الـدجى
والـورد أنـت إذا سـخوت مُنـيلا

بعد أن فرغ الشاعر من قصيدته.. جلس منتعشاً ومزهوا جوار صديقته.. أما السيد المهاب فقد سأل عن معنى كلمة «عميل».. وهل هي هجاء رذيل.. أم مدح جميل.. وهنا تدخل أحد الأعوان.. وقال له إنها كلمة تدعو للاطمئنان.. وبعد أن اطمأن السيد المهاب.. تقرر أن تدار الأكواب.. تمهيداً لتوزيع العطايا ورش الذهب.. وهنا دخل

القاعة من اكتسى وجهه بالغضب.. وأخذ يتحدث عما يواجهه الجميع من خيبة. خاصة وأن النكبات تتوالى نكبة بعد نكبة.

ظل الرجل الغاضب يشير إلى سفينة.. تتقاذفها الأمواج وهي مستكينة.. ولم يفهم الهمام ما يقال.. لكنه خرج من القاعة في الحال.. وهو يسأل هامساً عن معنى نكبة.. وهل هي مدح أم سبة؟.. وأثناء خروجه نادى على أخلص الأعوان.. وقال له: اقرأ الآن.. هذا البيان:

نــاد المثقــف..واعطــه بقشيشــاً
وإذا تلكــأ.. وفــه التلطيشــا

فأنــا أحــب نفــاق كــل مثقــف
يرضى السكوت ويعشق التطنيشا

ويقول: مـا أحـلى الجـوائز في يـدي
إن جلجلـت برنينهـا.. لأعيشـا

والبهلــوان أحبــه.. متراقصــاً
متأبطــاً ألعابــه وحشيشـــا

أو خائفـاً مـن حضـرتي إن لم أطـق
ألعابــه.. فتوقــع التفنيشـــا

لكــن هــذا الوغــد لــيس كغيــره
يجــري لجــائزة فيصــبح طيشــا

فلترجعــوه إلى الحظيــرة ضــارعا
أو فــانزعوا أفكــاره والريشـــا

أو فاســجنوه إذا تناســى ســطوتي
أو أمعنــوا في بيتــه تفتيشـــا

إن الثقافـــة آفـــة تجتاحنـــا
فتكـــدر السـهرات والتحشيشـــا
ســـأظل في كرســـي لوحـــاً ثابتـــاً
فلقـد صـبغت ملامحـي ونريشـا !





المهـووس الأحمـق.. يقـع في مأزق.. والثعلب لا يترفق

لن أسمح أبداً لمجنون أو عاقل.. أن يناقشني فيما أنـا فاعـل.. وطالما أني أحب النساء.. فلابد أن أتزوج منهن كما أشـاء.. وقـد جربـت المـرأة العربيـة الحسـناء.. لكنـي طلقتهـا بسـرعة.. لمـا فضحتني وقالت إني سيء السمعة.. وحين تنازلت وقررت الزواج من امرأة منحطة.. تسمي نفسها «مالطة».. وجدتها تتحول فجأة إلى أشرس قطة.. وابتعدت عني قائلة إن هذا الزواج أكبر غلطة.

خوفاً من أن يقتلني الرجال.. أحطت نفسي بفتيات يعرفن فنون القتال.. وأحطت نفسي بالمـاعز والجمـال.. وأخـذت أتغـزل في امرأة من إفريقيا.. رغم أنها تعاني من فقر الدم والأنيميا.. وقلت لها بنبرة فيها ما فيها من إغراء.. إني أحبـك أيتهـا الجميلـة السـوداء.. وسأظل أحبك دون انتهاء.. وسأدفع مهرك بـالملايين.. حتـى لـو قال أعدائي إنيّ صرت من المجـانين.. لكنـي – كمـا قلـت – لـن أسمح لمجنون أو عاقل.. أن يناقشني فيما أنا فاعل.

قالت المرأة الأفريقية في الحال.. إن زواجنا الآن محال.. فلابد أولاً أن تتحسن الأحوال.. ولا يمكن أن تتحسن هـذه الأحـوال.. إلا إذا بعثرت عليها وعلى أقاربها الأمـوال.. حتـى يتجنبـوا بـؤس الحياة في الأدغال.. ويهربوا مما يواجههم من أهوال.

***

فجأة وجدت نفسي في العراء.. بعد أن انفضحت أمام الأصدقاء والأعداء.. خصوصاً بعد أن رفضتني نساء كثيرات.. ورغم أن فيهن جميلات.. إلا أني اعتبرتهن رذيلات. لأنهن رفضن الزواج مني.. وابتعدن – واحدة تلو أخرى – عني.. وقد أغاظتني إحداهن.. وتركتني أتوجع وأئن.. حين قالت لي أني مهووس أحمق.. ولهذا أقع دوماً في مأزق.. كما أغاظتني امرأة أخرى لئيمة.. لكنها تزعم أنها حكيمة.. مؤكدة أن الثعلب لا يترفق.. بأي مهووس يوقع نفسه في مأزق.. خصوصاً حين تظل الحفرة تتعمق.. ولم تتردد هذه المرأة اللئيمة.. أن تقول إني ارتكبت ضد أهلي أبشع جريمة.. وإني قد قتلت من قتلت.. ونسفتُ ما نسفت.. كما فشلتُ في الزواج ممن أ؛ببت.. وأخيراً فإني ركعتُ واستسلمت!..

أحس المجنون أن الهواء. لا يحمل إليه غير رائحة المآسي السوداء.. وأخذ يبكي ويضحك حين تأمل الصحراء.. فوجد أنها تتشابه مع رأسه الصلعاء.. ولمح المجنون رجلاً يهذي ويصيح.. وتبدو عيناه زائغتين في الفضاء الفسيح.. فاندفع إليه بكل فضول.. وسأله وهو في شبه ذهول:

- لماذا تأكل قشر البطيخ؟

★ لأني كنت أحلم أن تصبح هذه الصحراء.. أرضاً خصبة خضراء.. وحين يئست من الأحلام.. حكمتُ عليها بالإعدام.. فأنا لا أطيق هذا اللون الأصفر.. ولهذا تراني ألتهم الآن قشر البطيخ لأنه أخضر!.

- لكني رغم ما يقال عن جنوني.. من جانب الذين رافقوني أو صادقوني.. أ؛ب أن أؤكد لك الآن.. أن العين لا تستمتع إلا بتنوع الألوان.

★ أتحاول أن تجعل إيماني بالأخضر يتزعزع.. هذا محال أيها المجنون الأصلع.. وإلا ضربتك كما يضربون حماراً يتعثر في مطلع!.

خاف المجنون من لجوء الرجل للعنف.. بعد أن لمح قربه ألف سيف وسيف.. لكنه اطمأن لما رأى السيوف يكسوها الصدأ.. كأنها تؤكد أن نور المجد قد انطفأ.. وانطلق المجنون في قلب الصحراء.. وفجأة ثارت عاصفة سوداء.. وشوهد الثعلب يتقدم في قلب العاصفة.. دون أن تمنعه من التقدم أية أشجار واقفة.. لأن الأقنعة الخضراء كانت زائفة.

- لماذا أتيت أيها الثعلب؟

★ هل تظن يا مجنون أني ألهو أو ألعب.. إن المهووس الأحمق.. قد أوقع نفسه في مأزق.. وأنت تعلم أني لا أترفق.. إن المهووس يطلب الزواج من أمريكية بيضاء.. بشرط أن تأكل قشور البطيخ الخضراء.. لكنه ارتعد من العاصفة السوداء.. وتخلى عن شرطه دون إبطاء.. والآن عليك أن تبتعد يا مجنون عن طريقي.. حتى لا أصب عليك سيول حريقي.

غلت نار الغضب عند المجنون وثار.. وقال ساخراً من الثعلب المكار.. إنك تتقدم الآن ولكن من غير ذيل.. بعد أن ذقتَ ما ذقتَ من أطباق الويل.. وذات يوم سيتوحد لقتلك الكل.. وساعتها سأقدم للكل الياسمين والفل.. وما هي إلا لحظات.. حتى انطلق صوت ساخر النبرات:

رفع الثعلب كأساً	من كؤوس الماكرينا
شرب المهووسُ منه	فتداعى مستكينا
وتلوى فوق رمل	لاعقاً ذلاً وطينا
والزواج الآن أضحى	وهمَ مهووس أهينا
ليس للثعلب عهدٌ	لا ولا يعرفُ دينا
ها هي الحفرة تبدو	كي تواري الساقطينا



أفعى غادرة.. تتسلى بامرأة فاجرة.. تزعم أنها طاهرة

تعرضت مهنة رعاة البقر.. لألف خطر وخطر.. فأمضى الرعاة السهر.. وهم يفكرون في مهنة.. تبعدهم عما يواجهونه من محنة.. وهداهم تفكيرهم أن يتاجروا بالأوهام.. بعد أن يؤكدوا للبلهاء أنها أحلام.. وبهذا يخفون ما في قلوبهم من مرض.. ويتحقق لهم ما يهدفون إليه من غرض.. وهكذا نزعوا أولاً أشجار المحبة والوفاق.. وبذروا مكانها بذور الشقاق.. فارتوت الأرض من شلالات الدماء.. وتساقطت فوقها أجساد الأبرياء.. وفيهم أطفال رضع ونساء.. ونسي الناس معاني الأخوَّة.. وأصبح المنطق السائد هو القوة.. وحلَّ وجاءُ القتل.. ليلغي جمال العقل.. كلا هذا لكي تروج تجارة الأوهام.. والويل لمن يعترضون فمصيرهم هو الإعدام.

كما يصطف خروف وراء خروف.. اصطف التعساء في صفوف.. وأخذوا يتزاحمون على شراء الأوهام.. بعد أن أقنعهم التجار أنها ألذ من أشهى طعام.. فاشترى بعضهم خريطة للطريق.. واشترى بعضهم أشياء دون تأمل أو تدقيق.. لأنها موضوعة في علب فاخرة.. ومرتبة بطريقة خادعة وماكرة.. أما الذين تم نهب بيوتهم.. فقد حصل بعضهم على ثمن سكوتهم.. وخلال لعبة المتاجرة.. كان لابد أن ينحني السماسرة.. تحت أقدام التجار الجبابرة.. حيث انتشرت تجارة التحرير.. وهي تجارة تبدأ بالتدمير.. حتى تتحقق أوهام التغيير.. ويتراءى سراب التطوير!.

أمام ضفاف بحيرة الحيرة.. وقف المجنون ينظر في حسرة.. بعد أن رأى أقداماً همجية.. تتحرك بكل حرية.. ورأى أطفالاً يبكون.. كما شاهد عقلاء يلهون.. ورأى كيف ارتجف من ارتجف.. كما رأى من تم تعذيبه فاعترف.. دون أن يكون قد ارتكب جناية.. أو وقع في مصيدة الغواية.. ولم يطل المقام بالمجنون.. فقرر أن يركب بساط الريح المضمون.. حتى يستطيع الرؤية بشكل أكبر.. ويتعرف على ما يجري أكثر وأكثر.

في غمضة عين.. رأى المجنون امرأتين.. إحداهما تتحلى بالوقار والجلال.. أما الثانية فتبدو في غاية الجمال.. وكانت المرأتان تتحركان باعتداد.. وكل منهما تتشحان بالسواد.. أما الأقدام الهمجية.. فإنها كانت تحاول بكل ضيق وعصبية.. أن توقف المرأتين عن المسير.. مع تهديدهما بأنهما ستواجهان أسوأ مصير.. إذا لم تستسلما للغواية.. وفقاً لحبكة الرواية.

خلال عدة لحظات.. وقفت الجميلة الشابة بثبات.. وحولت جسدها إلى عاصفة من نار.. فاحترق على الفور بعض الأشرار.. ودب الذعر بين الأقدام الهمجية.. بعد أن كانت تتباهى بمشيتها العسكرية.. أما المرأة الرائعة الجليلة.. فإنها تحولت إلى مقاتلة أصيلة.. لمجرد أنها سمعت أن الهمج يريدونها خليلة.. ودون أي تردد أو مهادنة.. تحركت لتقاوم القراصنة.. وحين سقط أحد أبنائها وأصبح في عداد الشهداء.. لم تلجأ للدموع سلاح النساء.. وإنما امتزج الحزن في قلبها بالكبرياء.. وهي تقول بصوت هادئ وعنيد.. مخاطبة روح ابنها الشهيد:

اكشف بروحك للرجال سماء ... يا أيها الوجه المشع إباء

وافضح بموتك من تعرّوا فجأة ... واسترحموا الأوغاد واللؤماء

وتساقطوا ورقاً هزيلاً دائخاً ... ومع السقوط تنفسوا الصعداء

صاروا على أيدي المغول عجينة ... وتبجحوا أن أصبحوا حكماء

أنت الشهيد الحي في درب الفدا ... يا من رفضتَ الوهم والإغواء

جرح يصيح على المدى وضحية ... تتلمس الحرية الحمراء»

ابتعد المجنون ببساط الريح.. وهو يشعر أن قلبه مستريح.. بعد أن رأى بالعين.. ما

كان من أمر المرأتين.. الشابة الجميلة.. والرائعة الجليلة.. وفجأة سمع المجنون وهو في الفضاء.. أصواتاً تمتزج فيها الفوضى بالضوضاء.. وتتعالى من قلب الصحراء.. وبالطبع فإنه هبط على الفور.. عساه أن يكشف وجه السر.

وجد المجنون نفسه أمام مرآة معتوهة.. حركاتها طائشة ومشبوهة.. ظلت المرأة تخلع ما عليها من ثياب.. قائلة لنفسها: لقد قضيت حياتي في سراب وراء سراب.. وآن لي الآن أن أعيش حياتي.. وأن أستمتع بالزمان الآتي.. ولابد أن أسلم جسدي للأقدام الهمجية.. حتى أتلذذ بمفاتني الجسدية.. وأعلن للكل أني لست متحجرة.. وإنما امرأة عصرية متحررة.

تعرت المرأة المعتوهة دون حياء.. فأغمض المجنون عينيه دون إبطاء.. لكنه فتحهما حين أحس بحركة.. فرأى المرأة تبدو مرتبكة.. بعد أن التفت حولها أفعى غادرة.. جعلتها تائهة وحائرة.. وأخذت الأفعى تلتفُ وهي تتسلى.. بمن كانت تزعم أنها المثل الأعلى.. وبين الإشفاق والأسف.. تذوق المجنون طعم القرف.. حين رأى تلك الأفعى الغادرة.. تتسلى بامرأة فاجرة.. كانت تزعم دوماً أنها طاهرة.. ومرة أخرى وجد المجنون نفسه أمام ضفاف بحيرة الحيرة.. وهو يذرف عبرة تتلوها عبرة.

من أعماق الفضاء البعيد.. تجاوب المجنون مع صوت فريد.. صوت أكبر شعراء العرب.. وهو يؤكد أن ما جرى لا يدعو للعجب:

«ذلَّ من يغبط الذليلَ بعيش — رُبَّ عيش أخفُّ منه الحِمامُ

كل حلم أتى بغير اقتدار — حجةٌ لاجيء إليها اللئام

من يهن يسهل الهوانُ عليه — ما لجرح بميت إيلام»

ها هي المرأة اللعوب تعرت — بعد أن لفت روحها الأوهام

تشتهي أن يذوقها أي فحل — لو أتاها وفي يديه لجام

يا لعهر مزخرف بالمخازي — فاض من وجهه الغبي ظلام



٢٩

قيس بن الملوح يترنح.. بعد ن أخبروه أن ليلى تتأرجح

أذاب الحب قلب قيس.. وهو يتقلب بين الرجاء واليأس.. فمرة يتذكر لياليه السعيدة.. قبل أن تصبح ليلى بعيدة.. ومرة يتعزى بكتابة الشعر.. حين يضيق الصدر.. وينأى عنه الصبر.. ومرة تدعو حالته للإشفاق.. خصوصاً حين تعصره الأشواق.. لليلى المريضة في العراق.. وأخذ الحزن يتجمع ويتجدد.. بينما يهذي قيس ويتنهد:

يبوح القلب دوماً باشتياقي
لليلاي المريضة في العراقِ
أرى جسداً تفتته المآسي
على أرض تئن من الشقاق
وتحلم بالنهار يبث فيها
شموساً للتناغم والتلاقي
ولكن كيف يشفيها طبيب
يدس السم في جسد الوفاق؟
أنا المجنون - يا ليلى - أنادي
عليك وقد نأى عني رفاقي
وأنت الآن في ظلمات بؤس
يلف يديك في دمك المراق

بعد أن قال قيس بن الملوح ما قال.. خر مغشياً عليه في الحال.. فاندفع إليه صديقه مجنون العرب.. وقد استبدت به حالة من الهياج والغضب.. وطلب من قيس أن يفيق.. وألا يبدو دائماً كأنه غريق.

- يا أخي قيس.. انهض وانفض عنك اليأس.. صدقني إن هذا الإغماء.. لا يستفيد منه سوى الأعداء.. إننا نحتاج إلى التفكير.. لا إلى أن تستسلم للتخدير.

★ لكني فقدت شهيتي لأن أتكلم.. ولم يبق لي إلا أن أهذي وأتمتم.

- وأنا أطالبك حالاً بالانتباه.. لكل ما تنطق به الشفاه.

★ أية شفاه تقصد يا مجنون؟

- شفاه الجميع.. وفيهم من يحبون لليلى أن تستمتع بالربيع.. وفيهم من يريدون أن تبدو لهم بمظهر خليع.. وفيهم كذلك من يدبرون لأمر فظيع.

★ وأنا لا أتمنى إلا أن أستمع لليلى.. فهي الأحلى في حياتي والأغلى.

- سأحقق لك ما تريد.. أيها الشاعر الهائم الشريد.

... تأكد المجنون أن «الموبايل» على ما يرام.. فسجل عليه عدة أرقام.. ثم أعطى «الموبايل» لقيس.. فاستمع إلى صوت أزاح عنه اليأس:

★ آلو.. أنا ليلى.. وأنت من تكون؟

- أنا عاشق التراب الذي تمشين عليه.. أنا قيس الذي يتمنى أن يفديك بعينيه.. وقد أحببت أن أطمئن عليك.. متمنياً لو كنت الآن بين يديك..

يقولـــون لـــيلى بـــالعراق مريضـــة

فيـــاليتني كنـــت الطبيـــب المـــداويا

★ دائماً تؤكد لي أن إحساسك صادق.. وهذا شأن الإنسان العاشق.. إن الحركة هنا مرتبكة.. والرعب يكاد يشل الحركة.

- هل يقربك الآن أحد؟

★ الغرباء الذين لا أعرفهم كثيرون.. والمخلصون في زنازين السجون.. وهناك من يقولون إني لستُ عربية.. ومن يقولون إني كردية.. وهناك من يرددون أني شيعية.. بينما

يردد آخرون أني سنية.

- وأنت يا ليلى ماذا تقولين؟

★ ألم تعرفني يا قيس على امتداد السنين.. أنا كل هؤلاء أجمعين.. أنا عربية وكردية وشيعية وسنية ومسيحية وصابئية.. أنا كل هؤلاء أجمعين.. رغم العبث والعابثين.. ورغم كل الذين يريدون هدم البيت.. ويعلنون هذا بأعلى صوت.

- أحمد الله على أنك تقولين هذا يا غالية.. وإن كنت أحس أنك قد صرت نائية.. وأحياناً أتوهم أنك قاسية.

«معذبتي.. لولاك ما كنت هائما

أبيت سخين العين حران باكيا

معذبتي.. قد طال وجدي وشفني

هواك فيا للناس قل عزائيا»

★ يا قيس بن الملوح.. يا حبيبي لا تترنح.. لقد أخبروك أن ليلى تتأرجح.. وهذا كذب مبين.. فانهض بعزم لا يلين.

- إني أحس بالانكسار.. بعد أن تأخر إشراق النهار.

★ النهار يشرق من القلب.. ما دام قلبك ينبض بالحب.

- حقاً ما أجمل الحب يا ليلى.

★ حاول أن تجعله يتجلى.. وهو لا يتجلى إلا بالعمل.. لكي ننتصر على كل العلل.

- ما دمت قد أكدت بصوتك الجميل.. أننا سنزيح من طريقنا كل رذيل وخيل.. فمن حقي الآن أن أتطلع للنهار.. رغم كل ما حولك من دمار.





مهبوش بن مرعوش ..
أقوى من كل الوحوش !

بحمقه المعهود.. وأفقه المحدود.. تخيل مهبوش بن مرعوش.. أنه أقوى من كل الوحوش.. فنظر حواليه باستعلاء وازدراء.. تجاه كل ما يراه في الأرض والسماء.. وأراد أن ينزع الحب من قلوب الناس.. فتصادق مع الوسواس الخناس.. لكي يتمكن من تحويل الكرة الأرضية.. إلى غابة مرعبة دموية.. وهكذا جمع الذئاب والثعالب.. وتحالف مع الأفاعي والعقارب.. ثم أمر بإطلاق حقده الدفين.. لكي يدك به بيوت الآمنين.. كما أمر بإطلاق نار البراكين.. لكي يحترق النخل في البساتين.. والويل كل الويل للمعترضين.. فمصيرهم هو القتل أو الرمي في الزنازين.

شل الخوف قلوب العصافير.. فلم تعد تغرد أو تطير.. ولم تعد تقفز من غصن لغصن.. بعد أن أطل من عيونها الذعر وسوء الظن.. وهذا ما أغاظ أحد العشاق.. ممن يحبون رحابة الآفاق.. فأخذ يدعوها للغناء والانطلاق:

«ألا طيـــــري.. ألا طيـــــري

وغنـــــي يـــــا عصـــــافيري

فمـــــن غصـــــن إلى ثـــــان

يفـــــوح شـــــذى الأزاهيـــــر

ومـــن أشـــواقي أعمـــاقي

أغـــُـان في مزاميــــــري

ونـــور الشـــرق في الــــدنيا

لـــه ســـحر الأســـاطير

اقترب من العاشق الطيب عصفور.. وقال له: لماذا أنت مسرور؟.. ألا ترى أن الشر قد زاد عن الحد.. وأن السماء كلها برق ورعد؟... وبدلاً من أن تغرد العصافير على الأغصان.. تعالى في الجو نعيق الغربان.. وبدلاً من أن تنضج الفواكه والثمار.. شوهدت الخفافيش تتعلق بالأشجار.. فقهقه من فرط النشوة مهبوش بن مرعوش.. وعلى الفور نافقته صغار الجحوش.. فصفقت له بالحوافر والذيول.. وهي تتمرغ فوق الوحول.. بينما لبست الحقول ثياب الحداد.. في كل أرض السواد.. وتحدرت فوق خدود الفرات دموع.. وصرخ دجلة من قرارة قلبه الموجوع.. وتحجرت الكلمات على شفاه النيل.. منذ أن غاب عنه الفارس الأصيل.. فلم يستطع أن يساعد النهرين.. لأنه وجد نفسه مقيد القدمين.

بالقرب من المدينة التي عشقها الرشيد.. أيام المجد العربي التليد.. شوهد الألوف من الأبرياء العراقيين.. وهم يذوقون ويلات الجحيم في الزنازين.. على أيدي القتلة والسفاحين.. ممن أوهموا الآخرين.. بأنهم أرقى المتحضرين.. وعلى باب كل زنزانة.. تتلاقى نظرات كل سجان وسجانة.. والكل يرفع علامة النصر.. كأن لهم مع المساجين أقدم ثأر.. مع أنهم جميعاً غزاة أجانب.. تدربوا على اللسع واللدغ في معسكرات العقارب.. منذ أن حول مهبوش بن مرعوش الكرة الأرضية.. من واحات ظليلة وندية.. إلى غابة مرعبة وحشية.

تلاحقت صور الفظائع الهمجية.. عبر القنوات الفضائية الأجنبية والعربية.. حيث شاهد الجميع أجساد الأبرياء.. عارية إلا من آثار التعذيب والدماء.. أو موصولة بأسلاك الكهرباء.. وتراءت وجوه القتلة والسفاحين.. وقد تلذذ أصحابها بما ارتكبوه من إثم مشين.. وهكذا ظهرت فظائع المحررين.. وتأكد الجميع أنهم من قطاع الطرق

المحترفين.. وبمجرد أن بان الزيف على حقيقته.. خرج مهبوش بن مرعوش إلى ساحة حديقته.. وأكد أنه قد امتعض مما رآه.. وأنه لابد أن يعاقب الجناة.. رغم أنه هو الذي حركهم مع سواهم من المرتزقة الأجانب.. ممن تدربوا على اللسع واللدغ في معسكرات العقارب.

مهبوش بن مرعوش.. يتخيل أنه أقوى من كل الوحوش.. والحقيقة أنه أخطبوط.. يحاول الإمساك بكل الخيوط.. ولهذا يريد تحويل الكرة الأرضية.. إلى غابة مرعبة دموية.. تتنزه فيها الأفاعي مع العقارب.. وتتعشى فيها الذئاب والثعالب.. على ما تبقى من يمام وأرانب.. لكن الخاتمة المثيرة.. لهذه الحكاية القصيرة.. تؤكد أن هذا الإخطبوط.. لا يدري أنه على وشك السقوط.





٣١

إرخي الستارة اللي فريحنا أحسن ريحتنا تفضحنا

كأنهم بدون عيون.. أو أنهم بعيونهم لا يبصرون.. ويبدو أنهم قد فقدوا السمع.. بعد أن تعرض قفا كل منهم للصفع.. كما أنهم أصيبوا بمرض فقدان الإحساس.. وسرت العدوى منهم إلى كثيرين من الناس.. وقد تجسس عليهم المجنون.. منذ أن أدرك أنهم كاذبون.. وأنهم لا يتحركون إلا بعد رنين التليفون.. حيث يتلقون كل صباح مكالمة.. تهددهم بالطرد من الخدمة دون محاكمة.. إذا لم ينفذوا ما يُتلى عليهم من تعليمات.. دون أي مناقشات أو تعليقات.

تظاهر الجبناء أنهم فرسان.. وأنهم أشجع الشجعان.. وهكذا تلاقوا مع بعض.. رغم ما في قلوبهم من مرض ينضح بالبغض.. وبعد أن شربوا عصير الكذب الأسود.. تخيل أحدهم أنه العبقري الأوحد.. فصاح مهدداً بهدم المعبد.. بعد أن أحس أنه جلس على مسمار في المقعد.. وبمجرد أن ابتعد عنهم وخرج.. أحس بعض الجالسين بالحرج.. بينما قال آخرون: «جانا الفرج».. وهكذا تخيل الجميع.. «أن الجو بديع.. والدنيا ربيع..».. وخوفاً من الحسد.. أو من أن يراهم أحد.. أحكموا إغلاق الستائر السوداء..

«إرخي الستارة اللي فريحنا»
أحسن ريحتنا تفضحنا
أو ييجي بشبوش يدبحنا
يا مضروبين بالقوي يا احنا

فجأة هبت عاصفة قاصفة.. فتزلزلت كل القلوب الخائفة.. وانقلبت على الجالسين الموائد.. وسقط بعضهم تحت المقاعد.. إلى أن طمأنهم من حولهم من الأعوان.. مؤكدين لهم أنهم في منتهى الأمان.. وكل ما في الأمر أن رياح التغيير.. كانت تحاول هدم غرف التخدير.. لكنها فشلت في المحاولة.. وقد تبين للأعوان بعد المداولة.. أن رياح التغيير دوماً حاقدة.. وأنها أجنبية ووافدة.. وتحب إشعال النار الخامدة.. وإبعاد رائحة الجيف الهامدة.

بعد أن أفاق الجميع من الصدمة.. أخفى كل منهم عن الآخر همه.. إلى أن قال أحدهم وهو يدعي الحكمة:

- إن جبني يشارك.. في كل المعارك.. حيث أدعي أني في حالة نوم.. إلى أن يزول العناء والغم.. ولهذا لا أخوض في أي جدال.. حول ما يسمونه بالنضال.. وبهذه الوسيلة الجميلة.. يمكنني أن أحيا حياة طويلة!

★ لكني أعرف أن الجبن رذيلة.

- وأنا أعرف أنك تدعي الشجاعة.. وتحاول أن توهمنا بهذا بكل براعة.

★ قل عني ما تشاء.. ولكن فلتتذكر أن الأرض تفيض بالدماء.. ولن يرحمنا أحد من الأعداء.

- الذين تسميهم أعداء.. يمكننا بالجبن أن نجعلهم أصدقاء.

★ هناك نساء عربيات أصبحن سبايا.. أما الصغار فقد حصدتهم الشظايا!

- يا أخي.. لا تفسد علينا جمال الليلة.. لماذا لا تتذكر أننا في أحلى حفلة.. قل لكل امرأة من نسائنا العربيات.. توقفي الآن عن إطلاق الصرخات.. تطول المعارك.. وجبني مشارك.. بقتل صغارك.. واسكت الآن لتسمع قصيدتي الجديدة.. لأنها تنطق بالحكمة الفريدة:

أخي.. ضيعت خيلُنَا الموعدَا

فمد الضياع إلينا اليدَا

كما تلطم النادبات صرخنا

«أخي.. جاوز الظالمون المدى»

ورحنا نجدد «سفر الخروج»

وهم في الدخول أعدوا المدى

خرجنا مع العار والقدس تنأى

وضاق الزمان بمن شُردا

رجعنا من القدس للرجس نحيا

وباح الخراب بما قد بدا

وعشنا مع الوهم نلهو وكلٌّ

يرى نفسه فارساً أوحدا

تركنا الصغار بكهف «الجدار»

وزيف «الطريق» وما حددا

نسينا الشهيد وطرنا خفافاً

لنرفع نخب كؤوس العدى

سجدنا على وحلهم ضارعين

«وكانوا لنا قدراً مرصدا»

فقد خمدتْ في الصدور الشموس

وشق الضلالُ جبين الهدى

وضلت خطانا وعدنا حزانى

وباهى الجمود بما أفسدا

وفر المسوخ إلى جحرهم

وقالوا: «سلام» وما من صدى

وفي «غزة» صاغ غدر الغزاة

سلاماً – على ذوقهم – أسودا

ونمنــــا طـــويلاً كمـــا نشــــتهي

لنمحـــوَ الحمـــاس وننســـى الفـــدا

سكتنا عـلى الـوحش منـذ ارتجفنـا

فطرنــــا هبـــاء وصـــرنا ســـدى

فلســــطين.. لا تزعجـــي نومنـــا

وأهَدي وحـوشَ العـدا المســجدا!



٣٢

«أرانب الحرية»
مسرحية مضللة هزلية

لم يستطع الممثلون.. إقناع الذين يتفرجون.. أن فكرة المسرحية.. تنبثق من أوجاع الأرض العربية.. فضلاً عن ممثلين كثيرين.. لم يكونوا لأدوارهم حافظين.. ولهذا استعانوا بجهود الملقنين.. فتداخلت الأصوات وارتفع النشاز.. وتناقضت أوتار العود مع موسيقى الجاز.. وقد حرص مؤلف المسرحية.. وهو أجنبي لا يجيد اللغة العربية.. أن يظل متوارياً عن الأنظار.. وإن كان قد شوهد بعد رفع الستار.. وهو يحاول تعديل بعض الجُمل.. حتى لا يشعر الحاضرون بالملل.. أو يهرب منه الذين أصبحوا بلا عمل.

قبل أن يبدأ عرض المسرحية.. كانت الأرض قد اهتزت على وقع انفجارات قوية.. وكان بعض مساعدي المؤلف.. قد انتقدوه مؤكدين أنه رجل مخرف.. بعد أن دب بينهم في السر.. خلاف حول المكافأة والأجر.. وطبيعة ما هو مسموح به من دور.. وربما لهذا صرخ «أحمق اللهبي».. لقد عبثوا بأدواتي ولعبي.. كما سرقوا ما لم أكن قد رأته من كتبي.. وبالطبع فإن أحداً لم يقتنع بالأسباب.. خاصة بعد أن ارتفع صوت بدر شاكر السياب:

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون

أيخون إنسان بلاده؟

إن خان معنى أن يكون.. فكيف يمكن أن يكون

قبل أن يبدأ العرض كانت قد وجهت دعوات.. لمجموعات معروفة من الشخصيات.. وقد رفض كثيرون منهم الحضور.. لأنهم أدركوا أن المسرحية لا تعبر عن رأي الجمهور.. وهناك آخرون رفضوا مجرد تسلم الدعوة.. وقالوا الأفضل لنا أن نجلس على القهوة.. وصرح الشاعر الكبير معروف الرصافي.. بأنه يحب المشي على الشوك وهو حافي.. لأنه يعرف الكثير من الأسرار والخوافي.. أما محمد مهدي الجواهري فقد مزق البطاقة.. مؤكداً أن «دجلة» لا يحتاج مزيداً من الإعاقة.. بينما تساءل الجاحظ صاحب «البيان والتبيين».. من منكم يحترم عمل ممثلين.. جميعهم جاءوا بالتعيين؟

وقف المجنون خارج القاعة.. يواجه الشمس بصلعته اللماعة.. وهو يسأل أحد التعساء.. ممن يبيتون عادة في العراء:

★ أرجو أن تخبرني من فضلك.. ما عنوان هذه المسرحية؟

- هذه ليست مسرحية.. بل فبركة هزيلة هزلية.. عنوانها «أرانب الحرية».

★ العنوان جميل.. يبدو أن المؤلف عربي أصيل.

- بل العنوان رذيل.. أما المؤلف فهو أعجمي دخيل.

لم يشأ المجنون إطالة الجدال.. فانطلق هائماً ما بين حواري الحق وميدان الضلال.. وابتعد عن المبنى الذي تعرض فيه المسرحية.. بعد أن عرف أنها مضللة وهزلية.. ومن بغيد رأى معروف الرصافي.. يمشي على الشوك وهو حافي.. ويقول على لسان وحش أحمق.. أوقع نفسه في مأزق:

وحش يدندن والضحايا تنزفُ
ويقول بعد سقوطها: متأسفُ
ما كنت أقصد أن تفوح جرائمي
لكن طوفان الغريزة يجرف

ما كنت أنوي أن أفيض نذالة
لكنه الشيطان حين يزخرف
كانت فتاتي بَعْدَ بُعدي وحدها
وأنا هنا.. وظنون ليلى تسرف
و«أبو غريبٍ» غابةٌ وحشيةٌ
وبكل زاوية دم لا ينشف
فخلعت إنسانيتي ونسيتها
وصعقت من بقيود سجن يرسف
علقته عند الجدار مجندلاً
والكهرباء بجسمه تتصرف
جئنا لنسحق من طغى ونذيقه
مما أذاق.. فنحن لا نتعسف
سترون كيف تصون كل كرامة
ومنابع الإرهاب كيف تجفف
وإذا استحث «البنتجون» جنوده
«أتظن أن هناك من يتخلف؟»





٣٣

إعلان الذئاب.. عن تغيير الثياب لا يعني أنها بلا أنياب

اكتست ملامح الخروف بالحزن.. منذ أن أدرك أن أعضاء مجلس الأمن.. يحبون أكل لحم الضأن.. فاستغرق طويلاً في التفكير.. إلى أن استطاع التحول إلى خنزير.. ثم تحول ذات مرة إلى بقرة.. حتى لا يستطيع أحد أن يقتفي أثره.. وهكذا أصبح الخروف الداهية معبود الهندوس.. ولم يعد يهتم بتذكر حرب البسوس.. بقدر ما يخشى أن يكشف حقيقته جاسوس.. خصوصاً بعد أن رصد الشاعر محمد بن خليفة العطية.. مكافأة كبيرة سخية.. لكل من يضع النقاط على الحروف.. بشأن المكان الذي اختفى فيه هذا الخروف.

توصلت إدارة مخابرات الذئاب.. إلى معرفة كيف اختفى الخروف وغاب.. وأصبح كأنه «فص ملح وذاب».. لكنها لم تبح لأحد بالسر.. حتى تتمكن وحدها بالحيلة والمكر.. من أن توقعه في الأسر.. ولهذا جهزت له زنزانة سرية.. في مكان ما فوق سطح الكرة الأرضية.. لكنها ليست في «جوانتانامو» بكل تأكيد.. وليست في معتقل «أبو غريب» على وجه التحديد.. خصوصاً بعد أن بانت الفضائح.. وتحول ما كان عذباً إلى ماء مالح.. وهذا ما دفع المجنون لأن يصب وابلاً من الشتائم.. على أحد «أبطال» هذه الجرائم.. ممن كذبوا على الناس.. وأوهموهم أن قلوبهم مرهفة الإحساس.. وليسوا –كما يقال– عنهم من الأنذال والأنجاس.. ومن هنا جاءت صرخة المجنون.. في وجه الوحش الملعون:

مـزق وأحـرق مـن تـراه مقيـدا

وافخـر بُجـرم أسـود لا يوصـف

وافـرح بصـورتك التـي تزهـو بهـا

فشـجاعة الجبنـاء طبـل أجـوف

مـا أنـت إلا دميـة دمويـة

يلهـو بهـا متألـه متعجـرف

مـا أنـت إلا كذبـة مفضـوحة

يعـلي جبـابرة بهـا مـا زيفـوا

أنـت التطـرف في رداء حضـارة

فـاخرس إذا وافـاك منـه تطـرف

كـم مـن ضـحايا أخمـدت أنفاسـهم

وبكذبـة التحريـر رحـت تخـرف

كـم مـن فتـاة حـرة سـيقتلكم

عـن ذكـر مـا كلـتم لهـا تتعفـف

فارحـل عـن الأرض التـي دنسـتها

فـالريح آتيـة بمـا لا تعـرف

حريـة الإنسـان ليسـت عظمـة

تلقـى لكلـب جـائع يسـتعطف

كان لابد أن تتظاهر الذئاب بالخجل.. حيث تجمع كبارها على عجل.. وأكد كل ذئب أنه على ما جرى يتأسف.. وأنه سيحاكم كل من كان يتعسف.. لكن الذئاب اكتشفت خلال اجتماعها السري المحدد.. في غابة البيت الأسود.. إنه لابد من تغيير أسلوب النهب.. حتى لا يغضب النهر العذب.. وهنا قال الذئب المتعجرف الخطير..

بشكل فجائي مثير:

★ صحيح أني وأنتم من أشرس الذئاب.. ولكن علينا أن نتذكر كيف يحيا الحروف الذي اختفى وغاب.. فلكي يظل حياً تحول مرة إلى خنزير.. ثم تحول إلى بقرة ليس لها نظير!

– ما هذا الذي تقول؟.. أتريد منا أن نأكل الحشائش في الحقول؟.. هذا شيء يدعو للذهول!

★ أنا لم أقل هذا أيها الذئب الخائب.. أنا أقصد أن نتعلم من أصدقائنا الثعالب.. ونستطيع في هذه الحالة أن نأتي بالعجائب!

– هذا أمر غامض مبهم.. ولهذا لم أفهم.

★ وأنا أقول لك أن الأمر غير معقد. فبعد خروجكم من غابة البيت الأسود.. سأتوجه وحدي إلى الصحفيين.. وأتحدث معهم بشكل رصين.. عما حققناه حتى الآن.. بشأن تجفيف منابع الفئران.. ثم أفاجئ الجميع بعرض إعلان!

– أي إعلان؟.. إني أوشك أن أجز على الأسنان!

★ اهدأ قليلاً يا أغبى ذئب.. أتظن أن مثلي له قلب؟.. إننا سنغير الأسلوب.. هذا هو المطلوب.. سيكون ما أعلنه هو «إعلان الذئاب.. عن تغيير الثياب».. وهذا لا يعني أننا سنخلع ما لنا من أنياب.. خصوصاً أننا ما زلنا نتصدى للإرهاب.. كل منا سيرتدي صوف خروف.. أما الفعل فسيظل كما هو مألوف.. وبدلاً من أن نوصف بأننا متوحشون أجانب.. ويأتينا اللوم من كل جانب.. فإننا سنصبح قوة متعددة للنهش.. وهذا ما سيطمئن قلب كل جحش!





٣٤

الليل تدحرجَ في الغابة .. والنور يعانقُ أحبابه

الأغصان تتمايل.. ومع كل نسمة تتفاعل.. والأمواج تتلاحق وتتواصل.. ولا يستطيع أحد أن يوقف حركة الحياة.. لكن كل غبي يتعثر في خطاه.. يتمنى أن يتجمد كل ما يراه.. حتى يتحقق له ما يرضاه.. وهذا ما جرى لحضرة الليل.. حين راح يفكر في حل.. يبقيه على قيد الحياة وحده.. ويبقي معه أعوانه وجنده.. لكي يحارب كل من يقف ضده.

اقتربت من الليل الخفافيش.. وظلت في أحضانه تتقلب وتطيش.. ثم استفزته بالقول: أين جبروتك أيها الليل.. إن رياح التغيير.. تطالبني بألا أطير.. كما تطالبني بألا أتعلق بالأغصان.. وألا أقترب من وجه أي إنسان.. وفضلاً عن هذا فإن هذه الرياح.. تحب أن تساعد سفينة الإصلاح.. وتدفعها إلى المزيد من الحركة.. بحجة أن الحركة بركة.. والآن أين جبروتك أيها الليل. ابحث لنا حالاً عن حل.

تعاطف الليل مع الخفافيش.. وأكد ضرورة عودة محاكم التفتيش.. واستمرار العمل بقوانين الطوارئ.. ومنع سفينة الإصلاح من الاقتراب من الشواطئ.. مع تجميد الحركة في الموانئ.. وأعلن الليل أن العدو الذي ينبغي أن يُقهر.. هو النور الذي يتجلى ويظهر.. لأنه يأتي من كل مكان.. وهذا ما يوقظ الإنسان.. ويجعل الينابيع تترقرق.. كما يتيح للأفكار أن تتدفق.. واستبدت بالليل حالة من الهياج والغضب.. بعد أن تذكر أن الناس في أرض العرب. يؤكدون أن موعدهم مع الشمس اقترب.

ظل أقارب أهل الكهف.. مرتجفين من إحساسهم بالبرد رغم حر الصيف.. وأصبحوا يخشون من لقاء أي ضيف.. وكلما سمعوا عن هبوب رياح التغيير.. أدخلوا من يفكرون في غرف التخدير.. ودفعوا الذين يعاندون.. إلى ظلمات المعتقلات والسجون.. وطلبوا من الليل أن يدهسهم.. أو أن يدوس على حناجرهم كي يخرسهم.

من ناحيته، حاول الليل تشويه العقول.. حتى لا تقول ما تريد أن تقول.. كما حاول إخافة كل سنبلة.. مهدداً إياها بحد المقصلة.. وتزاحمت حول الليل أسراب الخفافيش.. مؤكدة أنها لا تقبل التهميش.. ولابد لها أن تظل تعيش.. لكن العارفين ببواطن الأمور.. أدركوا أنه من المستحيل سجن النور. لأنه دائماً قادر على العبور.. فالنور يطل من أعلى جبل.. لكي يكشف الأمراض والعلل.. ويبين مواطن التصدع والخلل.. والنور في قلب كل إنسان.. يعرف أنه بالإمكان.. تحقيق أحسن مما كان.. والنور يفضح وجوه أهل الكهف.. ويفضح ما هم فيه من جهل ومن ضعف.

يتصور الخائفون.. أن أهل الكهف على كراسيهم يجلسون.. لكنهم في الحقيقة نائمون.. ولا يتصورون أن شظايا المآسي.. ستسقطهم من فوق الكراسي.. مهما حاولوا تقديم الرشاوي لليل.. لكي يحميهم من أن يسقطوا في الوحل.. ويبدو أن أهل الكهف لا يعرفون.. أن بحارة سفينة الإصلاح قادمون.. وأن الليل تدحرج في الغابة.. بعد أن فقد أنيابه.. خصوصاً بعد أن أدرك الناس في أرض العرب.. أن موعدهم مع الشمس اقترب.. فقد آن أن ترحل الكآبة.. لكي يعانق النور أحبابه.. حتى وإن ظل أهل الكهف.. يحاولون أن يطاردوه بغباء وعنف:

إنهم يسبكون الأكاذيب في كل صبح يجيء
حيث يغوون أفكارنا خلسة ثم يستأسدون
إنهم يُقبلون
من بعيد لكيْ يطردوا من هنا كل وجه بريء
إنهم يسكبون الزمان الرديء
فوق أحلامنا.. ثم يستبشرون
إنهم حين يخشون هول السقوط
يطلقون الضباب المراوغ في طرقات النهار
يجعلون الشوارع كالأخطبوط
يفرضون الحصار.. ولن يشربوا غير ذل وعار..

حسن توفيق - سيرة ومسيرة

- بينما كانت الحرب العالمية الثانية تحصد أرواح ملايين البشر ، كان هناك ملايين آخرون يولدون، ومن بين هؤلاء ولد طفل مصري ، اسمه كاملا حسن توفيق محمود محمد ، وقد ولد في أحد أحياء القاهرة الشعبية وهو حي شبرا يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٣ ، وفيما بعد - عندما كبر - أحس بالنشوة تغمر روحه حين اكتشف أن الشاعر الكبير الذي أعجب به أيما إعجاب وهو الدكتور إبراهيم ناجي كان قد ولد هو أيضا في حي شبرا ،لكنه ولد في آخر يوم من أيام القرن التاسع عشر الميلادي.

- في الخامسة من عمره شاهد الطفل بنفسه عمليات طلاء فوانيس الغاز المعلقة في الشوارع باللون الأزرق ، ثم أخذ يستمع كل صباح وهو في طريقه إلى المدرسة الابتدائية إلى أغنيتين كانتا تذاعان باستمرار، هما يا مجاهد في سبيل الله - جاه اليوم اللي بتتمناه بالعامية المصرية وأخي جاوز الظالمون المدى وهي بالفصحى ، وكانت الأغنية والقصيدة تغمرانه بالنشوة وبالحماسة وبنوع من الطرب التلقائي الذي يدفعه لمحاكاة ما سمعه في الأداء ، لكنه لم يكن يعرف أن الجيوش العربية قد خاضت في فلسطين حربا ضد العصابات الصهيونية وأن هذه الجيوش قد ذاقت مرارة الهزيمة القاسية .

- تلقى تعليمه الإعدادي في مدرسة السيدة حنيفة السلحدار الإعدادية بشبرا ، وفيما بعد عرف أن السيدة حنيفة كانت سيدة ثرية ولم يكن لها أبناء، ولهذا تبنت طفلة كانت مخطوفة من تركيا ، هي الشاعرة جليلة رضا ، وقد قرأ الطفل ديوانا كان قد صدر لتلك الشاعرة وهو اللحن الباكي كما قرأ عن طريق مكتبة المدرسة مجموعة كبيرة من كتب المغامرات والرحلات ، وكان متفوقا على كل زملائه في مادة اللغة العربية لكنه كان يرسب باستمرار في مادة الرياضة والحساب .

- تلقى تعليمه الثانوي في مدرسة روض الفرج الثانوية، وكان اسمها قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ مدرسة الأمير فاروق الأول ، وكان ممن تعلم على أيديهم خلال تلك المرحلة أستاذ اللغة العربية وهو الشاعر كمال نشأت - الدكتور فيما بعد ، وماهر ميخائيل أستاذ اللغة

الإنجليزية الذي أهداه مجموعة كبيرة من دواوين الشعراء الإنجليز من بينهم إليوت ووليم بتلر ييتس وأودن ولوي ماكنيس ، وذلك لتشجيعه في محاولاته غير الناجحة لكتابة قصائد باللغة الإنجليزية، أما مكتبة المدرسة فقد أتاحت له فرصة التعرف على رواد الشعر الحر من خلال مجلة الآداب البيروتية التي كانت تصل المكتبة بانتظام ، وهكذا حفظ حسن توفيق قصائد أنشودة المطر ومدينة بلا مطر وعرس في القرية لبدر شاكر السياب وقصائد أخرى عديدة لصلاح عبد الصبور ونازك الملائكة وخليل حاوي ونزار قباني ، كما حفظ عن ظهر قلب معظم قصائد ديوان وراء الغمام للدكتور إبراهيم ناجي ، وما يزال يعتز بالنسخة التي يقتنيها من هذا الديوان لأن ناجي كان قد كتب على صفحتها الأولى إهداء بخط يده لحضرة صاحب العزة عبدالحميد بك خضر مفتش وزارة المعارف العمومية – ٢٦ مايو ١٩٣٤ .

- تلقى تعليمه الجامعي بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة القاهرة ، حيث حصل على ليسانس الآداب في يونيو سنة ١٩٦٥ وخلال تلك المرحلة سعد برعاية وتشجيع أساتذته فيما يتعلق بفن الشعر ، ومن أساتذته الذين يدين لهم بالحب والولاء الدكتورة سهير القلماوي والدكاترة شوقي ضيف وشكري محمد عياد ويوسف خليف الذي كان شاعرا رومانسيا رقيقا وحسين نصار وعبد الحميد يونس وعبد المحسن طه بدر الذي كان يسمح لتلميذه بأن يزوره في بيته بالمعادي حيث تعرف على أدباء كثيرين ، منهم غالب هلسا وسليمان فياض ومحمد أبو المعاطي أبو النجا وعبد الجليل حسن ، وما تزال صداقاته مع أبناء دفعته ممتدة ووطيدة منذ سنة التخرج – ١٩٦٥ –حتى الآن ومنهم من أصبحوا مرموقين مثل الدكتور جابر عصفور والدكاترة يوسف حسين بكار وإبراهيم السعافين وأحمد أبو مطر والكاتب الناقد فتحي عبد الحافظ .

- بدأ يتعرف بشغف على عالم الصحافة عموما والصحافة الأدبية خصوصا وهو ما يزال طالبا جامعيا ، وهكذا توثقت صلاته بالكاتب الصحفي أحمد بهجت وأصبح يتردد على مبنى جريدة الأهرام القديم ، واستطاع أن يلتقي بصورة منتظمة مع الدكتور لويس عوض والفنان الشامل صلاح جاهين وشعراء العامية الذين كانوا يترددون على صلاح جاهين ومنهم عبد الرحمن الأبنودي وسيد حجاب وعبد الرحيم منصور ،ومن خلال تواصله مع هؤلاء أخذ يكتشف الفارق بين ما يكتبونه من قصائد مرتبطة بالواقع وما يكتبه هو من القصائد الغارقة في رومانسيتها .

- كانت للطالب الجامعي وقتها جولات منتظمة لزيارة سور الأزبكية القديم حيث استطاع أن يقتني مجموعة كبيرة من أعداد مجلة أبولو ، فضلا عن الطبعات الأولى من دواوين شعراء تلك الجماعة ، ومنهم محمود حسن إسماعيل وحسن كامل الصيرفي وصالح جودت وعلي محمود طه ، وخلال تلك الفترة تعرف على نجم أدبي شهير ما لبث أن أصبح صديقا حميما له وهو الكاتب والناقد رجاء النقاش .
- بعيدا عن أسوار الجامعة ، كان حسن توفيق من المشاركين في الأمسيات الشعرية الأسبوعية التي كانت الجمعية الأدبية المصرية تعقدها ، وكذلك شارك في العديد من الأمسيات التي كانت دار الأدباء تنظمها في مقرها بشارع القصر العيني ، وكان واحدا من الرواد الدائمين لمقهى ريش الشهير بشارع طلعت حرب حيث كان العملاق نجيب محفوظ يعقد ندوة أسبوعية مساء كل يوم جمعة ، وكان مرتادو تلك الندوة ممن كانوا يعرفون ب أدباء الستينيات ، ومن هؤلاء أمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله وإبراهيم أصلان وممن كانوا يقيمون في مصر وقتها الشاعران عبد الوهاب البياتي ومحمد الفيتوري .
- بدأ ينشر قصائده منذ سنة ١٩٦٣ حيث نشر عددا منها في مجلة الشعر القاهرية التي كان يرأس تحريرها الدكتور عبد القادر القط كما نشر في مجلة الآداب البيروتية، ثم أخذت قصائده تتوالى في النشر على صفحات مجلة المجلة بتشجيع من الكاتب الكبير يحيى حقي ومن بعده الدكتور عبد القادر القط الذي خلفه في رئاسة تحرير المجلة .
- سجل – بعد تخرجه في الجامعة – رسالة الماجستير سنة ١٩٦٦ لكن مغريات الساحة الثقافية والفنية التي انغمس فيها لم تمكنه من إنجازها إلا سنة ١٩٧٨ حيث حصل على الماجستير بتقدير ممتاز عن أطروحته : شعر بدر شاكر السياب – دراسة فنية وفكرية ، وقد صدرت تلك الدراسة في بيروت خلال نفس تلك السنة ، واعتمد عليها باحثون أكاديميون في جامعات عربية عديدة ، وأعيد طبعها مرة ثانية في عمان ، كما أنها على وشك الصدور في طبعة جديدة ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة في مصر .
- عمل بعد تخرجه في الجامعة مديرا لمكتب الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور والذي كان وقتها مديرا عاما للنشر بالهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر – الهيئة العامة للكتاب فيما بعد ، كما عمل محررا بمجلة الفكر المعاصر التي تناوب على رئاسة تحريرها الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور فؤاد زكريا وله كتابات نقدية

عديدة على صفحات تلك المجلة، وعمل لمدة سنتين في دار الكتب المصرية ،ثم عمل في الهيئة العامة للفنون حتى سنة ١٩٧٩.

- اختاره رجاء النقاش ضمن من اختارهم للعمل معه في جريدة الراية القطرية منذ سنة ١٩٧٩ وهي الجريدة التي ظل يعمل بها رئيسا للقسم الثقافي طيلة ثلاثين سنة، حيث عاد إلى وطنه مصر منذ يوم ٥ يوليو سنة ٢٠٠٩ ليتفرغ للكتابة الأدبية .
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الشعر عن ديوانه انتظار الآتي سنة ١٩٩٠ بإجماع أعضاء لجنة التحكيم وهم الدكتور عبد القادر القط والدكتور يوسف خليف والدكتور محمود مكي والشاعر فاروق شوشة .
- حصل على جائزة أفضل قصيدة من مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري سنة ١٩٩١ وذلك عن قصيدته السندباد والرحلة الجديدة التي كانت قد نشرت في الملحق الأدبي لجريدة الأهرام ، ثم اشتمل عليها فيما بعد ديوانه ليلى تعشق ليلى .
- أصدر أول ديوان له سنة ١٩٦٩ بعنوان الدم في الحدائق –انظر العطاء الأدبي للشاعر.
- أصدر كتابه النقدي الأول ضمن سلسلة المكتبة الثقافية بعنوان اتجاهات الشعر الحر سنة ١٩٧٠ وقد كان استقبال هذا الكتاب من جانب الساحة الأدبية استقبالا جميلا متحمسا .
- عضو الجمعية الأدبية المصرية منذ سنة ١٩٦٦ وقد رشحه لعضويتها كل من الدكتور عبد الغفار مكاوي وصلاح عبد الصبور وفاروق خورشيد ، وخلال تلك المرحلة كان يساهم مساهمة فعالة في تحرير مجلة الأدب الشهرية التي كان يصدرها شيخ الأمناء أمين الخولي .
- عضو اتحاد كتاب مصر منذ بداية تأسيسه حتى الآن .
- ترجمت قصائد من شعره إلى اللغات الأسبانية والإنجليزية والروسية والأوكرانية ، حيث قامت المستعربة الأسبانية الدكتورة كارمن رويث برافو بترجمة ونشر قصائد من ديوانه ما رآه السندباد في مدريد ، كما قام الدكتوران محمد شاهين – الأردن وعبد الواحد لؤلؤة – العراق بترجمة مجموعة من قصائده إلى الإنجليزية ، وقام المستشرق الأوكراني البروفيسور فاليري ريبالكن بترجمة مجموعة من قصائده إلى اللغتين الروسية والأوكرانية .

- زار العديد من الأقطار العربية للمشاركة في ملتقيات ومهرجانات أدبية وثقافية كما زار عدة دول أوربية للمشاركة في مشروع كتاب في جريدة الذي يصدر بالتعاون مع منظمة اليونسكو و كذلك للمشاركة في بعض دورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، وزار اليابان سنة ١٩٩٨ لمدة أسبوعين بدعوة من وزارة الخارجية اليابانية ، حيث سجل انطباعاته عن تلك الزيارة التي شملت طوكيو والعاصمة القديمة كيوتو وهيروشيما ونجازاكي ، فضلا عن لقاءاته مع أشهر الشعراء اليابانيين ، وقد تمت ترجمة تلك الانطباعات إلى اللغة اليابانية ، وله كتاب يصنف على أنه من كتب أدب الرحلات ، ويضم معظم ما كتبه عن تلك الزيارات والرحلات ، والكتاب بعنوان رحلات شاعر عاشق – مع الشعر والحب في الشرق والغرب .
- زار أوكرانيا تلبية لدعوة من جامعة عالم الشرق ، حيث ألقى محاضرة عن واقع الأدب العربي في قسم اللغة العربية بتلك الجامعة وذلك في شهر أبريل سنة ٢٠٠٦ وقد نشرت إحدى أشهر الجرائد اليومية الأوكرانية ترجمة لتلك المحاضرة شغلت مساحة صفحة كاملة .
- كتب أستاذه صلاح عبد الصبور مقدمة لديوانه الدم في الحدائق ، كما كتب الدكتور عز الدين إسماعيل دراسة عن شعره ، تصدرت ديوانه أحب أن أقول لا .
- كتب كثيرون من النقاد والشعراء والصحفيين عن شعره ومن كتبه النثرية ، ومن هؤلاء الدكتور شكري محمد عياد – الدكتور يوسف حسين بكار – الدكتور كمال نشأت – الدكتور ماهر حسن فهمي – فاروق شوشة – الدكتور أحمد أبو مطر – علاء الديب – إقبال بركة – فاروق خورشيد – أنيس منصور – صالح جودت – الدكتور رياض عصمت ... وسواهم .
- اهتمت مواقع عديدة بنشر وإعادة نشر قصائده على الشبكة العنكبوتية – الإنترنت .
- له موقع رسمي على الإنترنت بعنوان : مجنون العرب – موقع الشاعر والكاتب حسن توفيق ، وله مدونتان شخصيتان إحداهما ضمن مدونات مكتوب والمدونة الثانية ضمن مدونات إيلاف .

- www.magnoonalarab.com
- magnoonalarab.maktoobblog.com
- hassan66.elaphblog.com



العطاء الأدبي للشاعر

أولا : الشعر :

(١) الدم في الحدائق – الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩ – الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، وقد صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٨٩

(٢) أحب أن أقول لا – الطبعة الأولى سنة١٩٧١ الهيئة العامة للكتاب ، وقد صدرت الطبعة الثانية منه سنة ١٩٨٩

(٣) قصائد عاشقة – الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ وقد صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٨٩

(٤) حينما يصبح الحلم سيفا – الطبعة الأولى سنة ١٩٧٨ – دار النشر والإعلان – طرابلس – ليبيا وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٨٩

(٥) انتظار الآتي – سنة ١٩٨٩

(٦) قصة الطوفان من نوح إلى القرصان – ١٩٨٩

(٧) وجهها قصيدة لا تنتهي – سنة ١٩٨٩

(٨) ما رآه السندباد – سنة ١٩٩١

(٩) ليلى تعشق ليلى – سنة ١٩٩٦

(١٠) الأعمال الشعرية – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨ – دار الخليج للطباعة والنشر – الدوحة – قطر ، أما الطبعة الثانية فقد صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٢ وصدرت الطبعة الثالثة ضمن إصدارات مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٣

(١١) عشقت اثنتين : توشكا وتمنراست – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩ – دار الخليج للطباعة والنشر – الدوحة – قطر

(١٢) بغداد خانتني – قصائد ومقامات في حب العراق – الطبعة الأولى ٢٠٠٤– مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت – لبنان

(١٣) وردة الإشراق – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥– المجلس الوطني للثقافة – الدوحة – قطر

(١٤) أحبك أيها الإنسان – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٨– الهيئة المصرية العامة للكتاب

(١٥) حلم يتفتح في صخر – قيد الطبع ضمن إصدارات وزارة الثقافة والفنون – الدوحة – قطر .

(١٦) لا مكان للشهداء – ضمن سلسلة الإبداع الشعري المعاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة .

ثانيا : فن المقامة :

(١) مجنون العرب بين رعد الغضب وليلي الطرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٤– مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت – لبنان

(٢) ليلة القبض على مجنون العرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥ – مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت – لبنان ، وقد قام المترجم التونسي عبد الودود العمراني بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية، والترجمة منشورة على شبكة الإنترنت – موقع جمعية المترجمين العرب

ثالثا : دراسات وتحقيق :

(١) اتجاهات الشعر الحر – سنة ١٩٧٠ – سلسلة المكتبة الثقافية

(٢) وداعا عبد الناصر – بالاشتراك مع أمل دنقل – سنة ١٩٧١ – الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٣) إبراهيم ناجي – قصائد مجهولة – سنة ١٩٧٨ – مكتبة مدبولي – القاهرة

(٤) شعر بدر شاكر السياب – دراسة فنية وفكرية – سنة ١٩٧٩ – المؤسسة العربية

للدراسات والنشر – بيروت – لبنان

(٥) أزهـار ذابلـة وقصـائد مجهولـة للسـياب – سـنة ١٩٨٠ – المؤسسـة العربيـة للدراسات والنشر – بيروت – لبنان

(٦) جمال عبد الناصر – الزعيم في قلوب الشعراء – سنة ١٩٩٦ – المكتبة العالميـة – الدوحة – قطر

(٧) الأعمال الشعرية الكاملة للـدكتور إبـراهيم نـاجي – سـنة ١٩٩٦ – المجلـس الأعلى للثقافة – القاهرة

(٨) الأعمال النثرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي – مجلدان – سنة ٢٠٠١

(٩) مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين – الجزء الثالث – شعراء قطر – ٢٠٠١

(١٠) جمال عبد الناصر – الزعيم في قلوب الشعراء – طبعة موسعة – سـنة ٢٠٠٢ – مؤسسة بيسان – بيروت – لبنان

(١١) الأعمال الشعرية المختارة للدكتور إبراهيم ناجي – سـنة ٢٠٠٣ – المجلـس الوطني للثقافة – الدوحة – قطر

(١٢) محمد بن خليفة العطية شاعرا وإنسانا – تقديم وتحرير – سنة ٢٠٠٤

(١٣) خليل الفزيع شاعرا – تقديم وتحرير – سنة ٢٠٠٦

(١٤) قاموس الأدب العربي الحديث – إعداد وتحرير الدكتور حمدي السـكوت – (كتابة المواد المنشورة عن أدباء قطر) – سنة ٢٠٠٧ – دار الشروق – القاهرة

(١٥) الحياة الحب والحب الحياة – شعراء جبناء ونساء لهـن عضـلات – الطبعـة الأولى سنة ٢٠٠٩ – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة

(١٦) الأعمال النثرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي – طبعة جديدة منقحة – صدر المجلد الأول منها سنة ٢٠١١ – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة .

(١٧) من شعر ناظم حكمت – ترجمة الدكتور علي سعد – تقديم ودراسة – ضمن سلسلة ميراث الترجمة – المركز القومي للترجمة – القاهرة .

(١٨) آلام فرتر لجوته – ترجمة أحمد حسن الزيات – تقديم ودراسة – ضمن سلسلة ميراث الترجمة – المركز القومي للترجمة – القاهرة .

رابعا : أدب الرحلات :

(١) رحلات شاعر عاشق – مع الشعر والحب في الشرق والغرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١ – دار الخليج للطباعة والنشر – الدوحة - قطر

(٢) رحلات جديدة مع الشعر والحب – قيد الصدور

خامسا : مقالات وقصائد منشورة :

هناك عشرات القصائد ومئات المقالات المنشورة في مجلات أدبية وثقافية مثل الهلال وإبداع وأدب ونقد في مصر والعربي الكويتية والدوحة القطرية والثقافة العربية الليبية والمجلة السعودية وغيرها، وفي العديد من الجرائد اليومية العربية ، ومنها الأهرام – الجمهورية – الأخبار – الخليج الإماراتية – القبس الكويتية – أخبار الخليج البحرينية – الوطن العمانية – العلم المغربية – الخبر الجزائرية – الشرق الأوسط السعودية . وهناك عمود أسبوعي ينشر في جريدة الشرق القطرية كل يوم خميس بعنوان مرايا الروح .

سادسا : فن الرواية :

(١) عرفة ينهض من قبره – رواية – تبدأ الرواية الأولى لحسن توفيق من حيث اختتم الكاتب الروائي العملاق نجيب محفوظ روايته الشهيرة أولاد حارتنا – الطبعة الأولى يناير سنة ٢٠١١ – وكان النص الكامل للرواية قد نشر في مجلة نزوى العمانية في العدد الثالث والستين الصدر في يونيو ٢٠١٠ - وقد كتبت عن هذه الرواية دراسات ومقالات عديدة بأقلام فاروق شوشة والدكتور أحمد أبو مطر وحنان بكير وعيسى الشيخ حسن وبيانكا ماضية واعتماد عبد العزيز وغيرهم، هذا إلى جانب لقاءات تليفزيونية عديدة خصصت لمناقشة الرواية .

(٢) زازا – رواية مجهولة للشاعر الدكتور إبراهيم ناجي - جمع وتقـديم – الطبعـة الأولى سنة ٢٠١١ – مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت .

(٣) ثرثرة فوق الأنقاض – رواية جديدة تستوحي ثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ وتتوغل أحداثها في زمن أبعد من زمن كتابة نجيب محفوظ لروايتـه الرائعـة – لم تصـدر بعد .



فهرس الكتاب

فهرس المحتويات